فهد قاسم الموسى

رحلة

من شمال المملكة العربية السعودية
إلى أطراف الشام

التنضيد والإخراج
دار الشادي
دمشق ـــ هاتف ٢١٦٥٣٩
ص.ب ٧٨٣٠

رحلة

من شمال المملكة العربية السعودية
إلى أطراف الشام

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ ـــ ١٩٩٣ م

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الإهـداء

أهدي كتابي «رحلة من شمال المملكة إلى أطراف الشَّام» إلى روح والدي الطاهرة ، راجياً من الله العليِّ القدير أن يتغمَّده بفسيح جناته كون الرحلة بدأتها في حياته ..

فقد جاءت نهاية أيَّامه بعد ثلاث سنوات من بدء الرحلة ، حيث كان يشجِّعني رحمه الله على الاستمرار في الكتابة . وكنت أتمنى لو أنجز هذا الكتاب بحياته ...

قال رسول الله ﷺ :

«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث :

صدقةٍ جاريةٍ ، أو علمٍ ينتفع به ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له» .

[رواه مسلم] .

فله منِّي الدُّعاء بالمغفرة من الله .

ونرجو منه أن يهدينا إلى سواء السَّبيل ، فهو نعم المولى ونعم النَّصير ...

المؤلِّف



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى من اتبع هداه إلى يوم الدين وبعد :

هذه الرحلة .. بدأتها قبل ثلاثين عاماً من بدء التحضير لإخراج هذا الكتاب ، بدأتها من القريَّات ، التي تقع منطقتها في الجزء الشَّمالي الغربي من المملكة العربية السعودية ، والتي تعتبر جزءاً حدودياً هاماً من تشكيلات مناطق المملكة ، فهي تشترك مع المملكة الأُردنيَّةِ الهاشميَّة الشَّقيقة بخطٍّ يمتدُّ أكثر من ستّمائة كيلو متراً ، وتبعد عن العاصمة الأردنيَّة عمَّان ١٦٥ كيلو متراً ، وتقدَّر مساحتها بأكثر من (٤٠٠٠٠) أربعين ألف كيلو متر مربع تقريباً ، وعدد سكانها في حدود مائتي ألف نسمة (٢٠٠٠٠٠) ، عامرتها كاف قبل ستون عاماً تقريباً والتي تحولت إلى قرية صغيرة مهجورة بعد أن كانت تعجُّ بحركة تجارية ضخمة للقوافل ، التي ترد إليها لامتيار[1] الملح ، والتي تفد من بلاد الشام ، قلَّ شأنها بعد أن اختط معالي الأمير عبد العزيز بن أحمد السديري رحمه الله للمدينة الجديدة (النبك) أبو نخيلة والتي تحولت إلى اسم القريات لشهرة هذه المنطقة ، والتَّسمية القريَّات أو البليدات كما يسميها البدو ، هي كونها مجموعة قرى تتبع عامرة هذه المنطقة وهي : كاف ، مِنْوَة ، العين ، إثْرَة ، القرقر ، كما يتبعها مراكز عدَّة مثل ،

(١) امتيار : هو توفير الحاجة وما له علاقة بغذاء الإنسان .

الحديثة ، العيساوية ، مركز الحماد ، مركز قراقر ، أو وادي السرحان ، مغيرا الطبيق ، نعيج ، مركز الهزيم ، أبو طلحة ، ومركز عظمان ، وغطّي ، وقليب خضر ، والناصفة والهوج .

هذه المنطقة تتأثر بعوامل مناخ البحر الأبيض المتوسط ، فهي ممطرة شتاءاً ، ومعتدلة في انقلاب فصلي الربيع ، والخريف ، ويتميَّز فصل الصيف بجو يعتبر من ألطف أجواء المملكة ، فدرجة الحرارة نادراً ما تتجاوز معدلها الحار كما يلاحظ في بقيَّة أجزاء المملكة . وقد لا تتجاوز ٣٠ درجة مئوية غالباً .

هذه المنطقة تتأثر في حكم موقعها الجغرافي بعلاقات تاريخية قديماً وحديثاً فهي منهلاً لإمداد بلدان الشام وإلى وقت قريب من الملح ، والذي يعتبر ثروة طبيعية هامة يجب التركيز عليها .

إذ أن لملح قرية إثرة في القريات أهمية في الجودة قديماً ولا يزال ، وكذلك كاف وإلى مدة قريبة من كتابة هذه الرحلة والحكومة السورية وبعهد أمير القريات رحمه الله سلطان بن عبد العزيز السديري تناقش مع بعض كبار المسؤولين امتيارها من الملح .

ولقد كان تاريخ هذه المنطقة أيضاً يتأثر في حكم جوارها لبلاد الشام ، فقد كانت قديماً مجرد واحاتٍ ضحلة ، ومراعٍ ، يستفيد منها الغزاة ، والأقوام للمدد في معاداتهم لأهالي منطقة الجوف (دومة الجندل) والتي تعتبر أغنى من هذه المنطقة من حيث وفرة المياه والزراعة .

ففي السنة الثالثة عشرة هجرية وجَّه أبو بكر الصديق رضي الله عنه خالد بن الوليد أميراً على الأمراء الذين بالشام ضمَّهم إليه فشخص خالد من الحيرة في ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة في ثماني مائة ويقال في خمسمائة واستخلف على عمله المثنَّى بن حارثة فلقيه عدو بحدوداء[٢] فظفر بهم وخلف بها ابن حرام

---

(٢) حدوداء : اسمها الآن معروف بمنطقة القريّات بحضوضاء .

الأنصاري ولقي جمعاً بالمضيّح والحصيد[٣] عليهم ربيعة بن بجير التغلبي ، فهزمهم وسبى وغنم ، وسار ففوّز من قراقر إلى سوى[٤] ، (وقراقر واحة من واحات القريات المعروفة وتبعد حوالي ٤٠ كيلو متراً شرقي مدينة القريات)[٥] .

(وبذكر سير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام) :

لما رأى المسلمون مطاولة الروم استمدوا أبا بكر ، فكتب إلى خالد بن الوليد يأمره بالمسير إليهم وبالحثّ وأن يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المثنَّى بن حارثة الشيباني ، ولا يأخذنّ من فيه نجدة إلا ويترك عند المثنَّى مثله ، وإذا فتح الله عليهم رجع خالد وأصحابه إلى العراق .

فاستأثر خالد بأصحاب النبي ﷺ على المثنَّى وترك للمثنَّى عدادهم من أهل القناعة من ليس له صحبة ، ثم قسم الجند نصفين فقال المثنَّى : والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر ، وبالله ما أرجو النصر إلا بأصحاب النبي ﷺ فلما رأى خالد ذلك أرضاه[٦] .

وقيل : سار من العراق في ثمانمائة ، وقيل في ستمائة ، وقيل : في خمسمائة وقيل في تسعة آلاف ، وقيل في ستة آلاف ، وقيل : إنما أمره أبو بكر أن يأخذ أهل القوّة والنَّجدة ، فأتى حدوداء فقاتله أهلها ، فظفر بهم ، وأتى المصيّح وبه جمع من تغلب فقاتلهم وظفر بهم وسبى وغنم ، وكان من السبي الصهباء بنت حبيب بن بجير ، وهي أم عمر بن علي بن أبي طالب ، وقيل في أمرها ما تقدَّم .

وقيل : سار خالد فلما وصل إلى قراقر وهو ماء لكلب ، أغار على أهلها

---

(٣) الحصيدة : معروفة الآن بمنطقة القريّات باسم حصيدات (حصيدة الشرقية) و(حصيدة الغربية) .

(٤) سوى : منطقة ببلاد سوريا يظن أن اسمها ابو دالية أو البطمي شرق مدينة ضمير .

(٥) تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد جرير الطبري جزء الرابع ص ٣٩ .

(٦) الكامل في التاريخ لمحمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير مجلد ٢ صفحة ٤٠٧ .

وأراد أن يسير منهم مفوزاً إلى سوى ، وهو ماء لبهراء بينهما خمس ليال ، فالتمس دليلاً ، فدلَّ على رافع بن عميرة الطائي ، فقال له في ذلك ، فقال له رافع : إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال ، فو الله إن الركب المفرد يخاف على نفسه ، فقال : إنه لا بدّ لي من ذلك لأخرج من وراء جموع الروم لئلا يحبسني عن غياث المسلمين ، فأمر صاحب كل جماعة أن يأخذ الماء للشعبة لخمس ، وأن يعطِّش من الإبل الشرف ما يكتفي به ثم يسقوها عللاً بعد نهل ، والعلل الشربة الثانية ، والنهل الأولى ، ثم يصرّوا آذان الإبل ويشدُّوا مشافرها لئلا تجتر .

ثم ركبوا من قراقر ، فلما ساروا يوماً وليلةً شقُّوا لعدَّة من الخيل بطون عشرة من الإبل فمزجوا ماء في كروشها بما كان من الألبان وسقوا الخيل ، ففعلوا ذلك أربعة أيام فلما دنا من العلمين قال للناس : انظروا هل ترون شجرة عوسج كقعدة الرجل ؟ فقالوا : ما نراها ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، هلكتم والله وهلكت معكم وكان أرمداً ، فقال لهم : انظروا ويحكم ، انظروا فرأوها قد قطعت وبقي منها بقيةٌ فلما رأوها كبَّروا فقال رافع : احفروا في أصلها ، فحفروا واستخرجوا عيناً فشربوا حتى روى الناس ، فقال رافع والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرةً واحدةً مع أبي وأنا غلام فقال شاعر من المسلمين :

لله عينا رافع أنَّى اهتدى ... فوَّز من قراقر إلى سوى

خمساً إذا ما ساره الجيش بكى ... ما سارها قبلك إنسيّ يرى

وقد ورد في (بعث خالد بن الوليد إلى العراق) في السنة الثانية عشرة من الهجرة النبوية .

لما فرغ خالد بن الوليد من اليمامة ، بعث إليه الصديق أن يسير إلى العراق وأن يبدأ بفرج الهند ، وهي الأيلة ، ويأتي العراق من أعاليها ، وأن يتألف الناس ويدعوهم إلى الله عز وجل ، فإن أجابوا وإلا أخذ منهم الجزية ، فإن امتنعوا عن ذلك قاتلهم ، وأمره أن لا يكره أحداً على المسير معه ، ولا يستعين بمن

ارتدَّ عن الإسلام وإن كان عاد إليه ، وأمره أن يستصحب كل امرىء مر به من المسلمين ، وشرع أبو بكر في تجهيز السرايا والبعوث والجيوش إمداداً لخالد رضي الله عنه ، قال الواقدي : اختلف في خالد ، فقائل يقول : مضى من وجهه ذلك من اليمامة إلى العراق ، وقائل يقول : رجع من اليمامة إلى المدينة ثم سار إلى العراق من المدينة فمر على طريق الكوفة حتى انتهى إلى الحيرة قلت : والمشهور الأول وقد ذكر المدائني بإسناده أن خالداً توجه إلى العراق في المحرم سنة اثنتي عشرة من الهجرة ، فجعل طريقه البصرة وفيها قطبة بن قتادة ، وعلى الكوفة المثنَّى بن حارثة الشيباني(٧) .

وقال محمد بن إسحاق عن صالح بن كيسان : إن أبا بكر كتب إلى خالد أن يسير إلى العراق فمضى خالد يريد العراق حتى نزل بقريات من السواد يقال لها بانقبا وباروسما وصاحبها جابان ، فصالحه أهلها ، قلت : وقد قتل منهم المسلمون قبل الصلح خلقاً كثيراً ، وكان الصلح على ألف درهم ، وقيل دينار ، في رجب ، وكان الذي صالحه بصبهرى بن صلوبا ، ويقال صلوبا بن بصبهرى ، فقبل منهم خالد وكتب لهم كتاباً ، ثم أقبل حتى نزل الحيرة فخرج إليه أشرافها مع قبيصة بن إياس بن حيَّة الطائي وكان أمَّره عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر فقال لهم خالد : أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين لكم ما لهم وعليكم ما عليهم ، فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم فقد أتيتكم بأقوامٍ هم أحرص على الموت منكم إلى الحياة ، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، فقال لهم قبيصة : مالنا بحربك من حاجة ، بل نقيم على ديننا ونعطيكم الجزية ، فقال لهم خالد : تبّاً لكم إن الكفر فلاة مظلة ، فأحمق العرب من سلكها ، فلقيه رجلان أحدهما عربي والآخر أعجمي فتركه ، واستدل بالأعجمي ، ثم صالحهم على تسعين ألفاً ، وفي رواية مائتي ألف درهم فكانت

(٧) الكامل في التاريخ لمحمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير المجلد ٢ صفحة ٤٠٨ .

أول جزية أخذت من العراق وحملته إلى المدينة هي والقريات قبلها التي صالح عليها ابن صلوبا[8] وفي رواية أخرى :

قال الوليد عن صفوان عن عبد الرحمن بن جبير قال : بعث هرقل مائتي ألف عليهم ماهان الأرمني ، قال : فسارت الروم فنزلوا الواقوصة (قريباً من اليرموك) ، وصار الوادي خندقاً عليهم ، وبعث الصديق عند ذلك إلى خالد بن الوليد أن يستنيب على العراق وأن يقفل بمن معه إلى الشام ، فإذا وصل إليهم فهو الأمير عليهم ، فاستناب المثنَّى بن حارثة على العراق وسار خالد مسرعاً في تسعة آلاف وخمسمائة ودليله رافع بن عميرة الطائي ، فأخذ به على السماق حتى انتهى إلى قراقر ، وسلك به أراضٍ لم يسلكها قبله أحد ، فاجتاب البراري والقفارَ وقطع الأودية ، وتصعَّد على الجبال ، وسار في غير مهيع ، وجعل رافع يدلّهم في مسيرهم على الطريق وهو في مفاوز معطشه ، وعطّش النوق وسقاها الماء عللاً بعد نهل ، وقطع مشافرها وكمّها حتى لا تجتر رحل أدبارها ، واستاقها معه ، فلما فقدوا الماء نحرها فشربوا ما في أجوافها من الماء ، ويقال بل سقاه الخيل وشربوا ما كانت تحمله من الماء وأكلوا لحومها[9] .

تاريخ المنطقة في عهد آل سعود :

في عام ١٢٢٥/هـ سار سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود (بالجنود) المنصورة والخيل والجياد المسوَّمة المشهورة واستنفر جميع النواحي من جميع الحاضر والباد من وادي الدّواسر ، إلى مكة والمدينة ، إلى جبل طي والجوف ،

(٨) أبي الفداء الحافظ بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ لكتابه البداية والنهاية الجزء السادس صفحة ٣٤٢ ــ ٣٤٣ .

(٩) أبي الفداء الحافظ بن كثير لكتابه البداية والنهاية الجزء السابع صفحة ٦ . كما يلاحظ أن تسمية القريّات ليست تأكيداً على أنها القريّات الحالية ، وقد تكون بالعراق ، ولكن طريق الجيش حين يسير من أيلة إلى اتجاه العراق لا بد أن يكون طريقه على القريّات الحالية ، وذلك مما يشك فيه المؤلف أن التسمية للقريّات الحالية .

وما بين ذلك ، نحو ثمانية آلاف خرج من الدرعية لثلاث خلون من ربيع الثاني وقصد نقرة الشام المعروفة ، لأنه بلغه الخبر أن بوادي الشام وعربانه من عنزة وبني صخر وغيرهم فيها ، فلما وصل تلك الناحية لم يجد فيها أحداً منهم وإذا قد سبقه النَّذير إليهم ، فاجتمعوا على دوخي بن سمير رئيس ولد علي من عنزة وهو من وراء الجبل المعروف بطويل الثلج ، قرب نابلس ، نازلين عين القهوة من جبال حوران ، ولما بلغ ابن سمير ومن معه أقبل سعود إليهم انهزم بمن معه من البوادي ونزلوا الغور من حوران ، فسار سعود في تلك الناحية وأقبل فيها وأدبر واجتاز بالقرى التي حول المزيريب وبصرى فغنمت الجموع ما وجدوا فيها من المتاع والطعام ، وأشعلوا فيها النيران وكان أهلها قد هربوا عنها لما سمعوا بمسيره . ثم نزل عين البجَّة وروى منها المسلمون وشربت خيلهم وجيوشهم ، ثم أقبل على قصر المزيريب ، فظهر عليهم منه خيل فحصل طراد فانهزمت الخيل إلى القصر واحتصروا فيه ، فأراد المسلمون الحشدة على القصر ولا أحب سعود ذلك مضنَّة بالمسلمين لأجل إحصانه ثمَّ ترحَّل ونزل بصرى وبات فيها ، ثمَّ رجع قافلاً إلى وطنه ومعه غنائم كثيرة من الخيل والمتاع والأثاث والطعام ، وقتل من أهل الشام عدَّة قتلى ، وحصل في الشام رجفة ورعب عظيم بهذه الغزوة في دمشق وغيرها من بلدانه وجميع بواديه[10] .

ومن ذلك يتبين أن امتداد رقعة الدولة السعودية في عهد سعود بن عبد العزيز ابن محمد قد تمددت لتشمل هذه المنطقة في نفوذها بعد أن اتسعت بشكل قد يغطي الجزيرة إلا القليل . وأما المآثر الجليَّة في منطقة القريَّات وما جاورها فتتمثَّل في قلعة الصعيدى ، التي تشكل أثراً من المعالم البارزة على قمة جبل ينبسط في القمَّة يشرف على قرية كاف ، عامرة القريات قبل أربعين عاماً جاء ذكرها في كتب كثيرة ، وأنه حين بلغت شدَّة وطأة البدو في نواحي عجلون خلال

---

(١٠) عنوان المجد في تاريخ نجد للعلامة عثمان بن بشر النجدي الحنبلي الجزء الأول ص ١٥٠ ــ ١٥١ .

النصف الأخير من القرن الماضي اعتزم سكان القرى في المنطقة على الهجرة منها ، ويبدو أن الحكومة شعرت بخطورة الموقف فأرسلت قوَّة عسكرية (عثمانية) تعاونت مع الأهلين على مهاجمة منطقة وادي العرب التي كان البدو يتَّخذون منها معقلاً للأنقضاض على القرى وإرهابها .

ووفقت تلك الحملة إلى القضاء على أفراد قبيلة السعيدى ، وقيل إن مياه الوادي اصطبغت بدمائهم وما يزال أحد المواقع يعرف حتى اليوم باسم قلاع الصعيدى حيث قتل عدد كبير من أفراد تلك القبيلة[11] .

ولقد أصرَّ جلالة المغفور له الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن رحمه الله على أن يجعل من منطقة الجوف وهذه المنطقة حلقة وصل يمتار بواسطتها سكان المملكة العربية السعودية حاجتهم من الغذاء من بلاد الشام والعراق .

وعندما تم تشكيل المملكة العربية السعودية كوحدة متكاملة بحدودها الحالية نالت هذه المنطقة من اهتمام جلالته أهمية كبيرة إذ عندما تنازل الأمير نواف الشعلان عن منطقة الجوف والقريات للملك عبد العزيز حددت هذه المنطقة لتشتمل على فاصل إداري بينها وبين منطقة الجوف ، والمنطقة الشمالية تحت اسم مفتشية الحدود الغربية وإمارة منطقة القريات ، وذلك في عهد الملك سعود ابن عبد العزيز بن عبد الرحمن رحمه الله .

وتتالى على إمارتها كل من .. بن حمدان ، ثم عبد الله الحواس من أهل الرس ، ثم تولّى أمرها صالح بن عبد الواحد ، ثم عين عبد العزيز بن زيد مفتشاً للحدود الغربية في الوقت الذي كان فيه صالح بن عبد الواحد أميراً للقريات ثم استلم عبد الكريم بن زيد إمارة القريات بن أخ عبد العزيز بن زيد مفتش الحدود الغربية بذلك الوقت ، ثم عين الأمير عبد العزيز السديري ليتولى الإمارة والمفتشية ومنطقته من جديّدة عرعر إلى حقل ولغاية عام ١٣٧٦/هـ حيث انفصلت بقية

(١١) منيب الماضي وسليمان موسى في تاريخ الأردن في القرن العشرين طبعة أولى ص ٤ .

المناطق الشمالية .

ولقد قام عبد العزيز بن أحمد رحمه الله بادىء ذي بدىء في أن يختط له مدينة تكون عامرة منطقته ، وذلك بتأسيس مدينة القريات الحالية (النبك) بدل كاف ، ولتكون مقر إمارته بعد أن ساد الأمن والاستقرار الذي سعى إليهما ووطدهما في هذه المنطقة ، ثم أخذ يباشر نشاطاته في توسعة مدينته الجديدة .

ولقد خلفه ، سعادة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز السديري ، الذي عاصر مدينة جديدة ، وعليه أن يبحث تحديثها ، فقد وسَّع من حدود المدينة ضمن الإمكانيات المتاحة في ذلك الوقت .

وابتدأ في أعمال عصريّة كانت غاية في التحديث فقد سعى إلى تأسيس جمعيَّة تعاونية قائمة هدفها أن توفر للمساهمين في المنطقة وسكانها أيضاً حاجتهم الضرورية من ألبان ولحوم وبيض .

ولقد كانت تجربته على مستوى مناطق المملكة الأولى من نوعها ، إضافة إلى مشروع جمعية البر والإحسان التي تقدم مساعداتها والتي سبقت تعميم شمول مشروع الدولة الخيّر للضمان الاجتماعي بفضل بناة هذه المملكة من أبناء عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، والمخلصين في هذه المملكة من أبناء هذا الوطن العزيز .

فقد أجمع الكثير من حكام المناطق أن تجربة عبد الله بن عبد العزيز السديري هي مثال (الفكر النيِّر) ولقد باشرت الجمعيتان عملهما في وقت متقارب عام ١٣٨٢/هـ إلى هذا اليوم ، وهما مثال الرِّيادة في هذا المجال .

ولم تطل مدة إمارة عبد الله بن عبد العزيز السديري فقبل أن ينهي سنواته التسعة في إمارة المنطقة يعين معاليه كوكيل لسمو وزير الداخلية لشؤون البلديات ، ولينتدب ممثلاً عن الدولة لرسم الحدود بين المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية الشقيقة في وقت أيضاً ينتدب به لمهمة رئاسة لجنة

السلام في اليمن الشقيق[١٢] .

ويتوالى على إمارة القريات ، كل من معالي الأمير سلطان بن عبد العزيز بن أحمد السديري رحمه الله ، يساعدُه في وكالة الإمارة أخيه نايف بن عبد العزيز رحمه الله .

كما يعين سعادة الأمير سلطان بن عبد الله السديري وكيلاً للإمارة وهو الآن أمير القريات بعد وفاة عمه سلطان بن عبد العزيز .

وعليه فإنني أرجو قبول عذري كون الرحلة والحديث عنها قديماً لم يتغير ، فهي بأسلوبها كما وضعت في ذلك الوقت ، ولعلِّي أعذر حين تكون خلاصة لجهود جاءت كما سيرد .. مع وافر تقديري للأستاذ سميح خلف عبد الله خلف الذي تولَّى تدقيق هذا الكتاب لغوياً ، شاكراً ومقدِّراً جهده النَّبيل ، كما أشكر وبمزيد من العرفان الأخ العزيز عبد الرزاق بن محمد الرميح الملحم الذي أمليت عليه الرِّحلة بُعيد قيامي بها وفي تاريخ ١٧ ذي الحجَّة لعام ١٣٨٤ هـ ولمدة أسبوع كامل . فله منِّي مزيد الشكر والتقدير .

هذا وأسأل الله أن يهدينا إلى سبيل الرَّشاد .

المؤلف

فهد قاسم الموسَّر

---

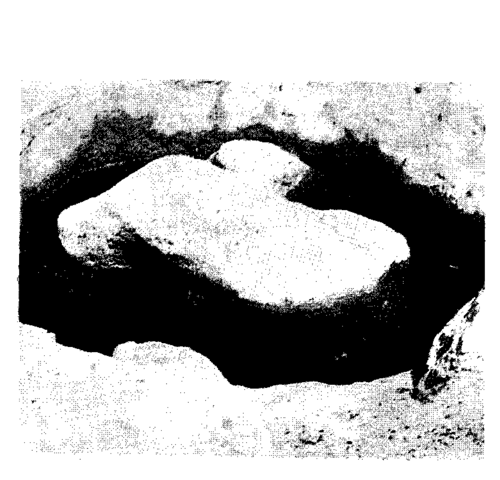
(١٢)من نهاية صفحة ٨ من المقدمة إلى نهاية صفحة ١٦ نشر بجريدة اليوم عدد ٤٧٧٣ صفحة ٣ الأردن وH 5 وبفلسطين H 6 بحيفا . وقد استبدل اسم إجفور بالأردن إلى «الرويشد» «وإجفايف «بن رميح»



قرية كاف ، وقصر الأمير نوّاف الشعلان



حضوضي

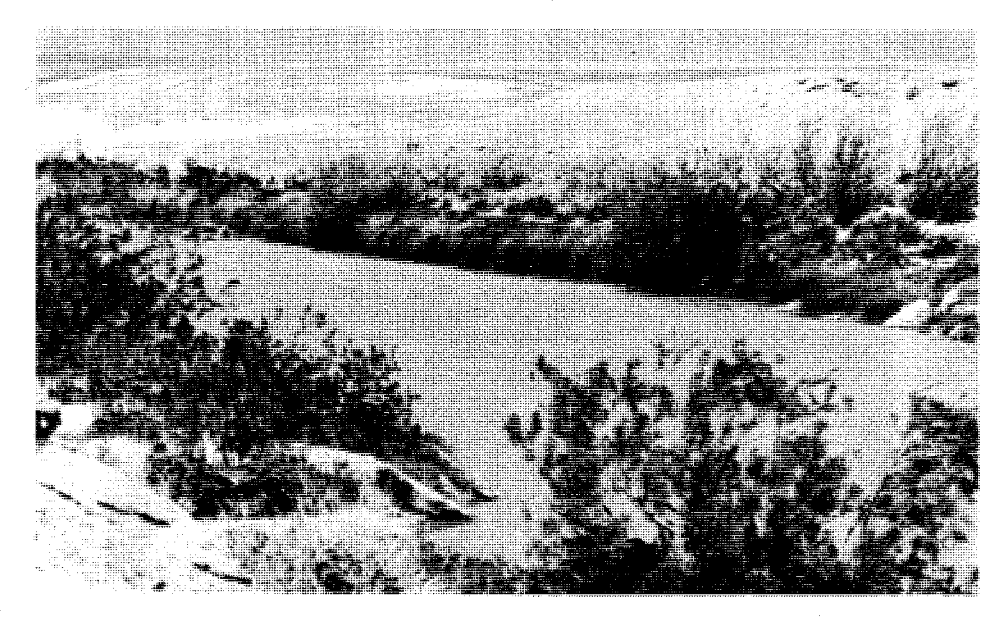


من آبار قراقر



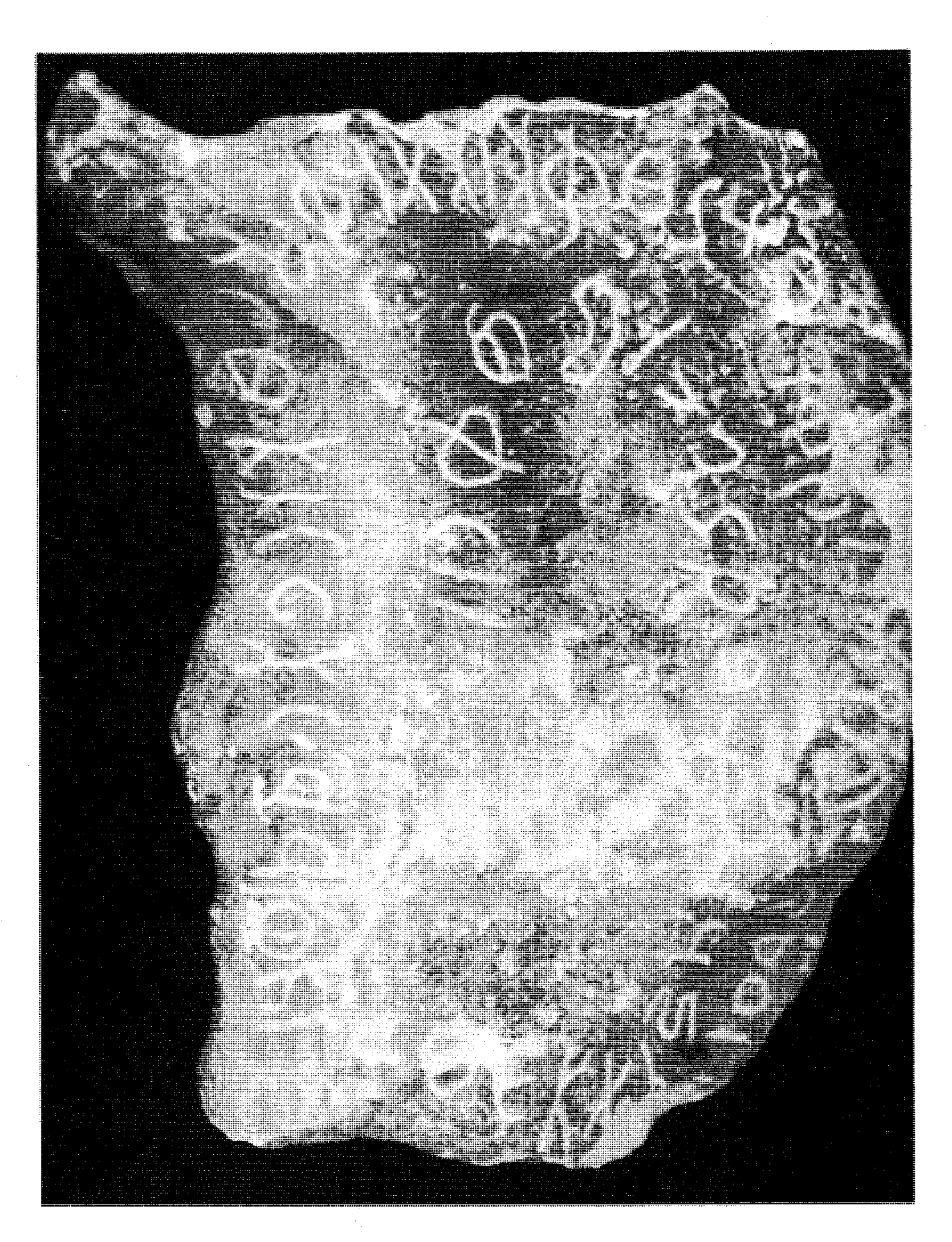


الجهق (الجرجير البري)



وادي حصيدة الغربية





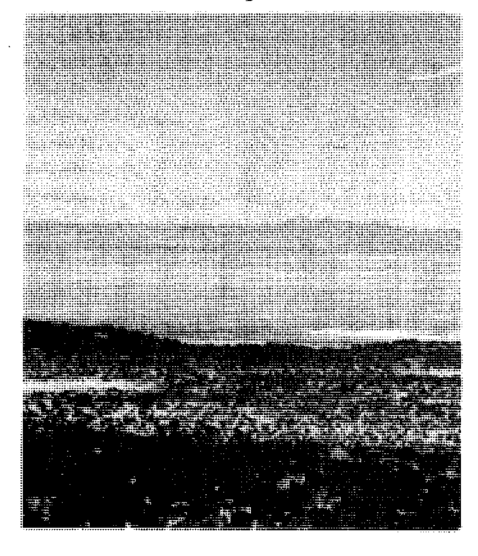
من الحجارة في منطقة القريّات




نقش على حجر البازلت (شمال غطي)

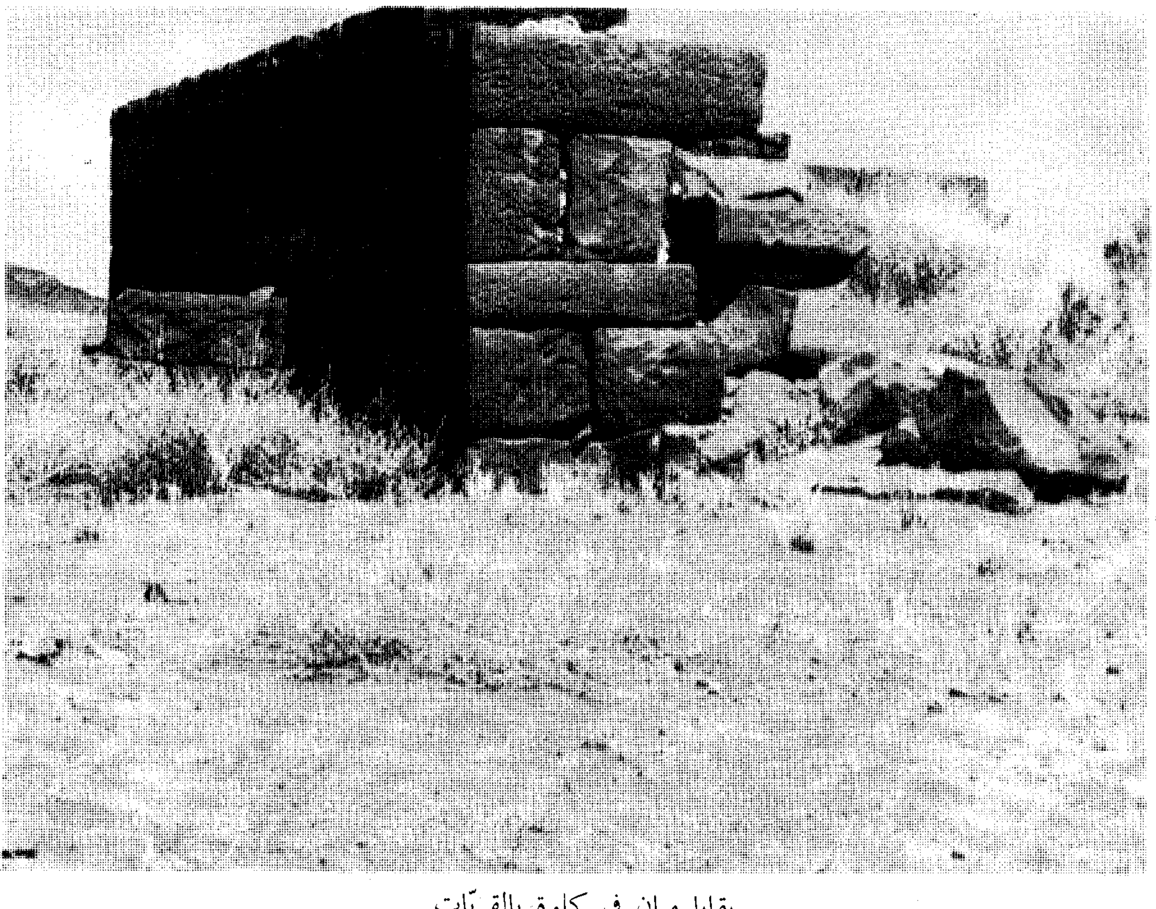

الكمأة في منطقة القريَّات


كهف قرب قصيباء


الحرة البركانية المحيطة بحضوضي

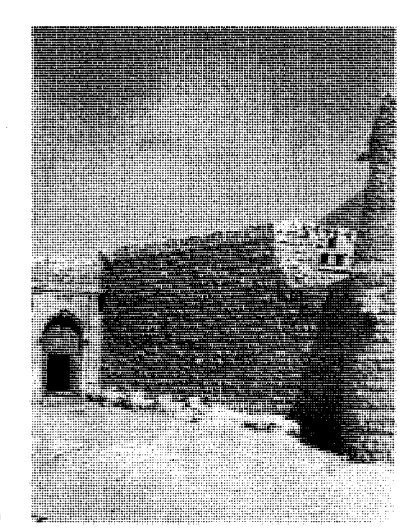

من نخيل منوه في القريَّات



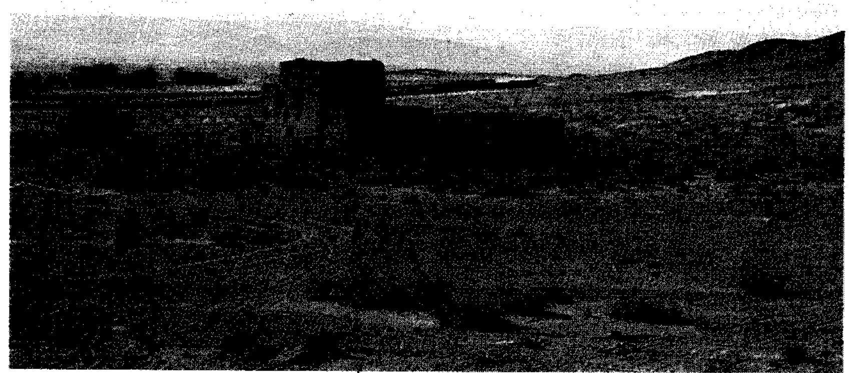


بقايا مبان في كلوة بالقريات





واجهة قصر الشعلان (كاف).

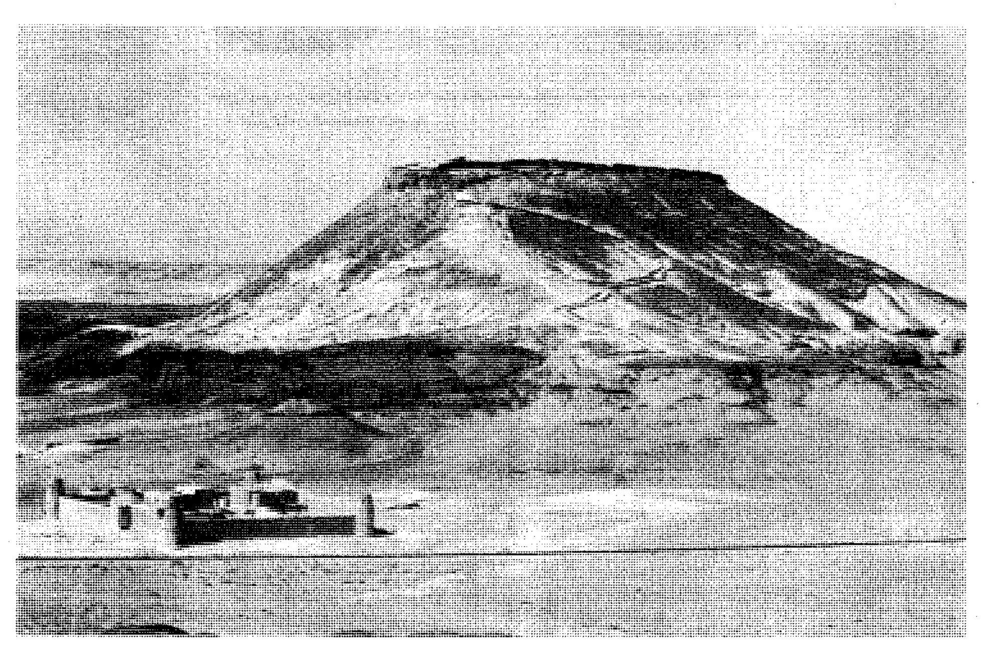


بقايا الرسلانية (أثره)

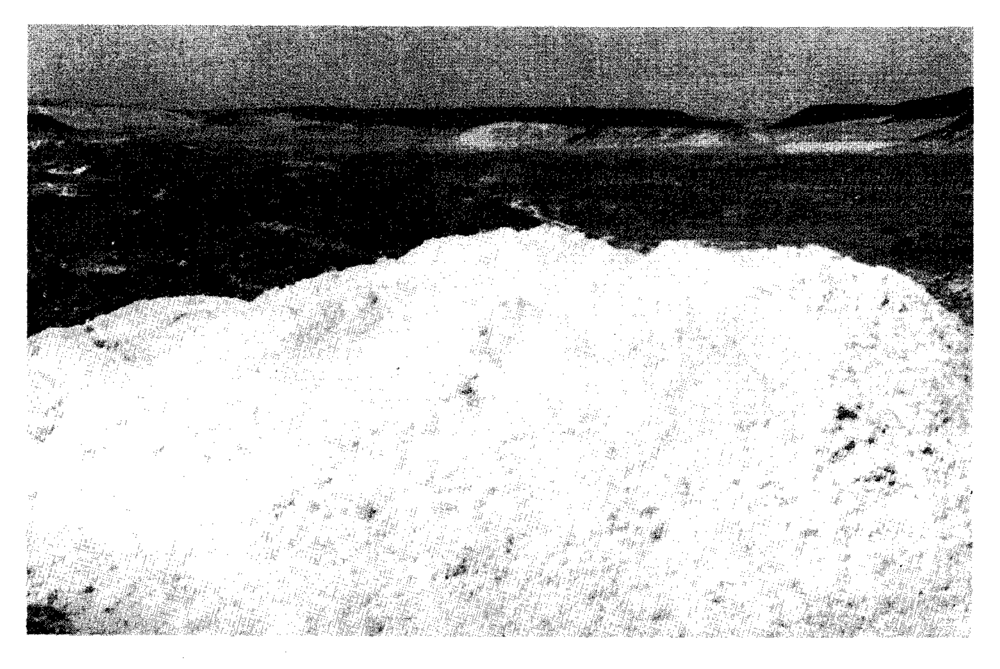


بقايا مباني كلوة





جبل الصعيدي المشرف على كاف، ويبدو قصر الشعلان



الملح في إثرة





طير الصَّقر والحبارى



الإبل الشُّرف بالقريَّات

الفصل الأول :

وصف طريق القريات
طريف ورفاق الرحلة

كان الجو ملبَّداً بالغيوم ، والسحب تتكاثف فوق سماء القريات ، حين خطر لي أن أترك الرحلة إلى الشام ، والتي كنت أزمع القيام بها قبل أيام .

ولهذا فقد اعتزمت البقاء ، ريثما يصحو الجو ، ويبدو السفر شيِّقاً والسماء صافية ، غير أنني كنت ملزماً على استئناف السفر ، وعليَّ أن أنتهز فرصة حلول عيد الأضحى من عام ١٣٨٤/هـ ، ١٩٦٤/م لأتيح لنفسي مجالاً ضيِّقاً لأيام معدودات ، أروِّح بها عناء النفس لعام كامل انقضى في مواجهة روتين عملي جامد ، غير أن مخططي هذا لم يحقق وفق نسق مرسوم كان عليَّ به أن أبدأ في بداية أوَّل يوم من ذي الحجة ولقد انقضت ستة أيام حتى الآن دون أن أخرج بنتيجة حاسمة .

وبينما كنت أسبح في خيالات اليوم السابع من شهر ذي الحجة لعام ١٣٨٤/هـ وفي نحو الساعة الواحدة ، بعد الظهر ، إذ بي أفاجأ بصوت منبه السيَّارة ينبعث من الشارع المجانب للبيت الذي استأجره ، وبشكل يثير الرُّعب ، فقد وصلت السيارة ، بناء على طلبي الذي رغبت تحقيقه من قبل أخي الصَّغير عبدالعزيز(*)، ووجدت نفسي مضطراً إلى مغادرة البيت ووداع الأهل ، والأصدقاء قبل أن أجمع شتات احتياجاتي الضرورية على ما يرام ، وسرت بخطىً متثاقلة بعد

(*) أخي الصَّغير عبد العزيز ، هو مهندس ضابط وبرتبة مقدَّم في قيادة القوات الجوية، وملحقاً عسكرياً الآن في الولايات المتحدة ولثلاث سنوات ونصف وليس كما في بداية الرحلة .

الوداع ، ووقفت عند السائق الذي كنت أنتظر منه تعيين مكاني بالسَّيَّارة(*) .

وأشار لي بيده أن أركب ، وياله من مركب ، تبدو لك السيارة لأول وهلة أنها من الأحجام المريحة ، بيك آب ، شيفروليه ، موديل ٥٧ !. غير أنك حين تدقق النَّظر وتمعن بسيارته جيداً وعن كثب ، تجد أنها مجرد أوصال مركَّبة ملفّقة دون تنسيق ، تخشى على نفسك إذا كنت ممن يحرصون على أرواحهم الركوب بمثل هذه السيارة .

أمسكت بالباب لتواجهني مشكلة الركوب ، ففي مقدمة السيارة الوانيت يركب اثنان أحدهما(*) يكفي لأن يسد بكتفيه الثغرة بين السائق والنافذة المقابلة له ، أما الآخر(*) فكأنما هو طير يحاصر من قبل طيور كاسرة ، ويحاول الفرار ، غير أنه ليس للفرار من سبيل ، فالسَّائق لا بأس فيه بالنسبة للحجم ، وأخذت أراود نفسي في مصيري الآن ، هل أنتظر حتف نفس يشوقها الانطلاق في مجال الحياة !؟، وأقدمت على الركوب بعد أن أفسح لي المجال قليلاً ، إذ أن صاحبي الذي كنت أشبِّهه بالطير ، ضاق ذرعاً في هذا المصير السيء ، واختار على أن يعتلي صندوق السيارة عن أن يبقى محاصراً من قبل عملاقين كبيرين ، يكفي أحدهما لأن يهدم بيد واحدة جداراً ضخماً ، وسأجد نفسي مضطراً أمام جبهتين ناريتين ، الجبهة الأولى يخطر لي فيما لو أنني أعيِّن مكاني بجانب السائق ولي أن أفرض نفسي ذلك لاعتبارات خاصَّة ، عليَّ أن أواجه نار الرجل الضخم لأن كفة توازن ثقله ستميل إلى جانبي حتماً .

وخلصت بتفضيلي الركوب بجانب النافذة رغم إلحاح رفيقي الآخر عليَّ بالجلوس في مكان الرَّاكب الأول ، ولكن عليَّ أن أتَّخذ احتياطات دفاعية تكفل

(*) السائق هو المدعو جروان بن صويدر البلعاسي «أبو صالح» .

(*) والمدعو «صياح قاسم المصلوخي» .

(*) وهو المدعو «مطخان ديمان البلعاسي» .

حمايتي من صاحبي هذا ، لأن الطَّريق وعرة وصعبة المسالك بين القريات وطريف .

تنساب في بادئها بتلول رملية مفروشة بالحصى الصَّواني الأسود ، تكثر بها المدرجات ، والتي تنتج عن حمولة السيارات الضَّخمة لهذا فقد كنت يقظاً لأيِّ احتمالات تنتج في المستقبل ، وطلبت من السائق أن يمر بنا بسوق القريات (النبك) لأتمكن من شراء طعام أسد به وجبة الغداء ، والتي لم أتمكن من تناولها في بيتي وكانت الطامة الكبرى بالنسبة لسائقي هذا ، فقد انصبَّ عليَّ بوابل من كلام لم أفهم معناه ، رغم أنه بشتَّى السبل يحاول إقناعي في السير ، دون المرور إلى السوق ويذكر أنَّه سيتحوَّل عن طريقه بعد (٤٠) أربعين كيلو متراً ليمر بنا إلى بادية في منطقة تسمى (الشَّامة) تتوسط موقعاً سهليَّاً بين طريف والقريات ، ومن هناك سنأخذ نصيبنا من اللبن .

ولكنه كان يجد منِّي إصراراً ، بالغاً في المسير إلى السوق ، وتحت رغبتي تحامل على نفسه ، ومررنا بالسوق ، وأخذت نصيبي من الخبز واللبن ، والمربَّى والجبن وسرنا على بركة الله ، وانطلقت بنا السيَّارة ، لتعبر طريقاً تحف به أشجار (المصع) و(الطّرفا)(١) ، وكان عليَّ ضرورياً أن أتناول وجبة الغداء ، لأن الطريق وعرٌ ، ولهذا سيكفل لي الهضم قبل أن نصل إلى (الشَّامة) وعرضت مشاركة صحاب الرحلة لغدائي ، إلا أنهما أبديا ممانعتهما ، بادِّعائهما تناول طعام غدائهما في الساعة الثانية عشر ظهراً .

ونصل مسافة خمس كيلو مترات بعد نصف ساعة ، تمنيت لو أنني كنت أسيرها على قدماي فقد كنَّا كمن يلعب لعبة كرة السَّلة ، إذا أن طريقنا يعوِّد القفز كل من يمر به .

ولكنني لم أغفل قط أثناء سيرنا بهذا الطَّريق عن صاحبي ، والذي كنت

---

(١) شجر برِّي يكثر في الأراضي السبخة ، والسَّبخأ : أرض تكثر بها الملوحة ، ويتميَّز هذا الشجر بأن ناره يخرج منها دخان يدمع العين ، وقد يجوز أن تسميته طرفاً لأنه يطرفها .

أتوقَّع منه أن يتأرجح نحوي ، ففي أية نقطة يقترب منها الخطر أتَّخذ احتياطاتي ومع مرور الوقت ، أيقنت أنَّ صاحبي أخذت تلفت انتباهه هذه الظاهرة ، وأخذ يحاول الابتعاد كلما أوجست منه خيفة ، وأخذت أطلب من الله أن يبقيه على هذه الحالة ، ولكنني في آن واحد كنت أحتمل أن ينسى نفسه مرة واحدة وأن يحدث مالا بالحسبان .

ووصلنا بعد ساعة قرية كاف ، القرية التي كانت تعتبر قبل ثلاثين عاماً عامرة القريات نظراً لمكانتها الاستراتيجية ، إذ أنها تتمتع بحصانة جبلية تحيط بها من ثلاث جوانب ، وتتميز بوجود قلعة قديمة تسمى قلعة (الصعيدي) تستخدم هذه القلعة سابقاً ضد الغزوات القبليَّة ، وتعلو أعلى منطقة في القريات ، وهي مجرد مكان على قمة جبل منعزل ، ينبسط في القمة محاط بسور منيعة من الحجارة ، ومتهدمة في بعض الأمكنة يؤدي للمكان درب متعرج حتى يصل القمة وباعتقادي أن التكوين الجيولوجي لهذا الجبل ، عبارة عن ركامات رملية ، أخذت تتراكم مع مرِّ العصور حتى غدت إلى حالتها الحاضرة .

ويلاحظ المشاهد طبقات رسوبية على أثر حفر جوانب بعض الجبل ، ولكن مع مرِّ العصور تصلَّب ، وزاد تماسكاً ، لقد كنَّا مضطرِّين للوقوف في هذه القرية لوجود مركز للشرطة ، يتعرف على حمولة السيارات التي تتخذ طريقها بين طريف والقريات أو العكس ، وبقصر قديم بني بعهد الأمير نواف الشعلان . وبعد فترة وجيزة استأنفنا السَّير عبر تلال رملية في غور ينساب ضمن هذه التلال الجرداء ، ينبت بها شجر صغير ، يكتسب من الناحية البيولوجية مناعة ضد احتياج الماء ، فأوراقه تكتسي بطبقة شمعية تحول دون البخر ، وهذا ما يجعله حيَّاً طوال فترة طويلة من السنة ، والأرض في هذا المكان ، تكتسي بطبقة حصويَّة تعلو القشرة الأرضية ، ويحتمل أنها جاءت نتيجة حتمية للرياح الشديدة التي كانت تهبُّ قديماً من مناخ البحر الأبيض المتوسط ، والتي تحمل أمامها

الحصى ، حيث يأخذ مكانه في أرض رخوة[٢] قوامها الرِّمال ، وقليل من التربة الطِّينية ، الخفيفة ، أو كانت تشكيلاً تحت تأثير بحر تتس[٣] القديم ، الذي كان يغمر هذه المنطقة و لم تمض علينا فترة ، حتى أعلن صوت السيارة وجود خلل فني وتمنَّيت لو أنَّني فضَّلت البقاء في القريات عن أن أغامر برحلة كهذه ، وكنت أخشى أن تتوخَّم عواقب مكاني في السيَّارة فينسى رفيق طريقي نفسه ، ويميل ليطبق عليَّ بكتفيه العريضتين فلا يدانيني غير الباب ، والباب من حديد ، والصمت في هذا الوقت يطبق على الكل منَّا ، وهذا مما يلذُّ لي .

غير أنني لم أتوقع انفراج ستار جديد ، بمسرحية جديدة يكون بطلها السائق الذي انطلق بالحديث يجهر بصوته كالرعد المجلجل ،وأخذ يحدِّثني عن بداية حياته العاطفية ، فقد كان ممن يولعون بالتشبُّب في النساء انصرافاً منهم لهذا الضَّرب من ضروب اللهو ، وحكى لي عن قصَّة مطوَّلة لعب دورها مع فتاة جميلة أوقعته في شبيكة حبٍّ فهام بها ، ويذكر أن الفترة التي قضاها مع هذه الفتاة من أسعد أيام حياته ، فهو حالياً بسن الستين تقريباً ويتوجَّد ويرسل الزفرات والآهات على ذلك الوقت ، الذي يذكر أنَّه مرَّ كالأحلام ، وضجرت من طول القصَّة التي كان يحدثني عنها في السنة واليوم والليلة ، ولما لم أجد وسيلة من الخلاص أخذت أهزُّ رأسي تعجُّباً وأصفرُّ أحياناً لحادثة تمر ، أفهم منها كلمتين دون أن أعلم ما مرَّ قبلها من تطويل .

ولكنَّني وجدت أخيراً أن إيماء رأسي لا يزيده إلا تفصيلاً وإسهاباً بالقصَّة ، هل من سبيل إلى الخلاص ؟.. ثم أتثاءب لا شعورياً ، لأنِّي أملُّ مثل هذا الحديث .

وفهمت من صاحبي أنَّه كان مكبوتاً ، ومضى عليه وقت طويل من الصَّمت

(٢) الرَّخو : الهشّ من كل شيء .
(٣) بحر تتس القديم يعتقد العلماء بأنه جاء على مدى حقب طويلة من طوفان نوح ثم انحسر .

دون حديث ، ولهذا فعليه أن يسدَّ هذا الفراغ بثرثرة لا أرى أنني ملزم في الاستماع إليها ، اجتزنا ثلثي المسافة وهو غارق في قصَّته المطوَّلة .

ويزعجني كثيراً أنني كنت ألحظ بقسمات وجهه أنه يتحفَّز لجعل هذه القصَّة كحلقة صغيرة تتبعها سلسلة طويلة من الحلقات ، وكانت تهون عليَّ حالياً قصَّة صاحبي الضخم ، ونسيت نفسي وتمنَّيت لو يداهمني خطر منه ، على أن أضحِّي بسائقي وسيَرِه ، ولقد أصبح رفيقي الضَّخم جنَّة إذا ما قسته بنار الآخر وكنت تراني أدعو الله الخلاص من مشكلة عويصة ، وكأنما حيكت لي لأقع بين حبائلها وانتهت قصة السائق أبي صالح وجاء حدسي صادقاً ، فقد ابتدأ بقصة جديدة ، يذكر أنَّها لا تقل طولاً عن الأولى وتضجَّرت وأرسلت زفرة من الأعماق يفهَمُها أيّ إنسان يدرك .

ولكم كانت فرحتي شديدة حين استجاب سائقي قائلاً : تبدو عليك يا أخي سمات الملل فهل أنت برغبة إلى الإغفاء قليلاً ، فأومأت برأسي دون أن أجيبه بلساني ، وصَمَتُّ ، ولكن ما يجيش بصدره وما يتفاعل بسريرته من إقبال في الاستمرار بالحديث والكلام لا يتساوى مع تقبُّلي له كمتحدِّث ، وإشباعاً لهذه الرغبة فقد ارتبطت قصته الجديدة مع صاحبي ، وغفوت تصنُّعاً علَّهما يتركان مجال الحديث بينهما . ولكنِّي ارتحت قليلاً لأن السائق اقتصر الجهر في الصوت وأخذ يتخلَّل الحديث فترات من الهمس ، يحاول بها السائق إحاطة التستُّر على مسامعي .

ومضينا برهة على هذه الحالة ، حتى اقتربنا من طريف بعد مرورنا بالشامة والتي لم ننل منها ما كان يمنينا به السائق من لبن ، كما ذكر لنا حين ألححت عليه في بداية الطريق وذلك بطلبي المرور إلى السوق للحصول على غدائنا من هناك . والشامة تشكل هضبة منبسطة بين طريف ، والقريات أرضها طينية ممزوجة بنسبة عالية من الرمل ، تربتها حمراء ، تكثر بها الأشجار صغيرة الحجم ،

قصيرة العمر يؤمها البدو للرَّعي ، تنبت الأعشاب غير أنها لا تصلح كمنطقة رعويَّة ، لأن نسبة تساقط الأمطار في السنة لا تعدو خمسة بوصات ، ولما تصنَّعت اليقظة ، ارتمت نظراتي إلى الأفق البعيد لألحظ مدينة طريف ، بأنوارها المتلألئة ، وبمؤشر تستخدمه شركة التابلاين(٤) ، ويشع نوراً أحمرَ ينقطع بين فترة وأخرى لتهتدي السيارات الضَّالة وحمدت الله على الخلاص من عقبة كأداء واجهتني في هذه الطريق الشَّاقة بعد نصب شديد ، سببها الراكب الضخم والسائق ، كلما كان يجري في هذه الرحلة قوامة ست ساعات في السابع من شهر ذي الحجة لعام ألف وثلاثمائة وأربعة وثمانين هجرية . وفي نحو الساعة الثامنة والنصف مساءً وصلنا طريف ، وفكَّرت كيف أقضي هذه الليلة ، دون أن أشغل أفكاري بشيء فإنني ألمُّ إلماماً تاماً بمعرفة هذه المدينة وضواحيها ، فلا يوجد بها سوى فندق صغير واحد ، ولا يمكن أن نطلق عليه اسم فندق ، لأنه مقهى ومطعم قبل أن يكون فندقاً ، استأجرت به غرفة صغيرة تشتمل على ثلاثة أسرَّة وبنحو مريح ، وكثيراً ما يبيت فيه طيَّاران حين تحطُّ طائرتهم بطريف ولقرب المقهى من المطار من جمرك طريف ، الذي لا يبعد عن المقهى إلا في حدود ستين أو سبعين متراً تقريباً .

فموقع المقهى شرقي مبنى الجمرك ، أذكر أنني استرحت قبل ستة أشهر حين مررت ونمت ليلة وادعة في هذا المقهى وطلبت من السائق أن يودعني هذا المكان ، وقضيت ليلتي دون أن ألمس جديداً يمكن أن أضيفه سوى أن صاحب المقهى تربطني به معرفة قديمة(*) .

(*) وهو المدعو (مطخان صفوك الرويلي) . طلب مني استدعاءً لسمو الأمير محمد بن سعود وزير الدفاع والطيران يطلب من سموه تأجيره قطعة موقع الأرض عام ١٣٨٠ هـ ووافق سموه ومنح القطعة وبنى عليها المقهى .

(٤) Trans Arabian pipe line company وترجمتها : شركة خط الأنابيب عبر البلاد العربية ، وهي ←

وقد أكثر صديقي من الأسئلة حول اتجاهاتي ومشاريعي وفي الصباح الباكر كانت تواجهني ضرورة الحصول على تأشيرة للخروج ، وأملي في أن أوفَّق بسيارة للإجفور(٥) والتي تعتبر مثلث طريق الترانزيت العربي إلى المملكة العربية السعودية والعراق ، ولكن رغبتي في التعجيل بالسفر لم تكن كما ينبغي ، فقد اضطررت إلى أن أمكث حتى عصر يوم ثمانية ذي الحجة ، وبعد حصولي على التأشيرة ذهبت أنا وصاحب المقهى الذي قام بعملية الوساطة بيني وبين دلال السيارات(*)، وأوصاه خيراً بي ، ثم تريثنا قليلاً ، ونوَّه الدَّلال على أن سيَّارة مرسيدس من الحجم الكبير ، ستواصل سفرها إلى الإجفور وسأكون فيها ، وطلبت من صاحب المقهى العودة إلى المقهى لنشرب الشاي وأرتاح بعض الوقت .

ولفت انتباهي رجل أُردُني الجنسية(*)، كان يرتدي سروالاً مخروطياً بلون أسود يثير الدَّهشة من بعض الناس لأنه يضيق عند الساقين ، وينفرج ما فوق الفخذ ، وينكمش بشد الحزام حول السرَّة .

هذا النوع من السَّراويل سهل التصميم ، والتحكم بحزامه يتميز بخياطة مجرى ضيِّق ويكون كافياً لإدخال إما خيط عادي طويل بأعلى السروال من ناحية

شركة أمريكية مهمتها ضخ البترول من القيصومة في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية بواسطة الأنابيب لتعبر الأردن ، وجنوب سوريا شمالاً إلى مدينة صيدا على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

(٥) الإجفور أصلها إنكليزية H 4 وهي مدينة نشأت من شركة أجنبية اسمها النقطة الرابعة بدأت من العراق إلى الأردن وفلسطين بحيفا ، ونجد اسم اجترين بالعراق H 3 ويقولون جفايف في الأردن وH5 وبفلسطين H6 بحيفا. وقد استبدل اسم إجفور بالأردن إلى «الرويشد» «وإجفايف باسم الصفاوي» وهذه هي الأسماء القديمة .

(*) دلاَّل السيارات هو «بن رميح» أبو محمد ، وكان معروفاً بمدينة طريف بـ «الدَّلاَّل» .

(*) أخ المذكور يملك الآن محطة محروقات في مثلث الرمثا . المفرق عمان ، وتبعد قرابة ٦ ست كيلو مترات عن مدينة الرمثا باتجاه عمان . وهو المالك الحقيقي للسيارة واسمه : محمود العوض العقيل الشقران أما أخيه للموجود معنا فاسمه محمد العوض العقيل الشقران .

أسفل البطن أو خيط مطاطي مما لا يضطر لابسه إلى حلٍّ وربط هذا الخيط إذا ما كان مطاطاً .

والملفت في هذا السروال أنه لا يضفي بثوب أو ملاءة تستره من وضعه ، بل يبقى على وضعه يعلوه صدريَّة غالباً ما تكون من لونه لمن يلبس هذا النوع من الملابس .

الفصل الثاني :

مسرحيات خط الترانزيت العربي
ذات المصادفة

أخذ صاحب المقهى يضحك من هذا المنظر ، غير أنني توقعت بأن هذا اللباس يتصف بصبغة أزلية ، يعود تاريخها إلى العصر العبَّاسي ، فقد كان السواد شعار بني العبَّاس ، والسواد في الملبس وخاصَّة السروايل منتشرة في الضفة الشمالية الغربية من الأردن ، وفي حوران بسوريا ، وفي جبال العلويين أيضاً بسوريًّا بما في ذلك مدينة حلب وضواحيها ، غير أنه يتلوَّن بلون رمادي أحياناً ، كما يوجد أيضاً في لبنان بسلسلتي مرتفعاتها الشرقية والغربية ، ولا يزال هذا اللباس من التقاليد البارزة في هذه الأماكن عند كبار السن ، وبعد مضي فترة ربع ساعة حملت عفشي أنا وصاحب القهوة ، وأودعناه بصندوق المرسيدس الكبير ، وركبت في مقدمة السيَّارة وإذا بصاحب السروال يأخذ مكانه في المقدمة معي أيضاً .

يبدو لي أنه فظٌّ غليظ القلب ، لا يضحك مطلقاً ، وفي الواقع أنني استأنست به لأن هذه الصفات تروق لي ولكن الحديث أخذ بادىء ذي بدء بينه وبين السائق ، ومن الحديث اتَّضح لي أنه صاحب السيَّارة ، وأنه من مدينة الرَّمثا بالأردن ، وأن السائق أجيرٌ عنده(*)، كل هذا أخيراً كما تبين لي من خلال استيائه للكيفية التي كان يتَّبعها السائق في قيادة السيَّارة ، وعرفت أيضاً أنه حريص على سيَّارته ، وأنه من التُّجَّار الذين يكتوون بنار الحرص على المال .

(*) السائق رمثاوي من مدينة الرمثا واسمه محمد العلعالي .

وبإيجاز أخذت أتساءل معه عن حياته التجارية ، وعن هذه السيارة ، وأجاب أنه قد يعرض للحديث مقدمات وشروح طويلة ، قلت في نفسي ليته استبدل الطُّول بالقصر ، واستطرد يحدِّثني عن تاريخها ، وأنها ليست جديدة ، وأنه وفِّق أيّما توفيق بشرائه لها من رجل من أهالي طريف وذلك في حدود شعبان ١٣٨٤هـ ـــ ١٩٦٤م فقد ثمّنت عليه بمبلغ خمسين ألف ريال من صاحبها(*).

ثم تمت المبايعة على أساس أن السيارة تنقل إلى ملكيته بصورة غير مشروعة حالياً نظراً لكون صاحبها غير سعودي ، ولا يمكن أن تواصل سفرها في الدول العربية إلا بهويَّة ثابتة ، وكان يضطر لهذه الحالة تركها تحت قيادة سائق أخفق في اختياره ليتولى تشغيلها وجلب منفعتها لنفسه ، غير أن صاحبها الأول الذي قبض سبعة عشر ألف ريالاً من ثمنها ، تردَّد أخيراً عن البيع وحاول أن يستغل وجودها في طريف ذريعة لاسترجاعها ، فهو من هذه البلدة وزاد صاحبها الأول بذلك أيضاً بأنه أقنع السائق بالعمل عليها ، على أن يكون ناتجها من العمل يعود إليه ، ثم بعد مضي ثلاثة أشهر عاد صاحبها هذا من الأردن وتقدم بشكوى إلى السلطات المختصة في طريف لإعادة حقِّه بالسَّيارة ، وسوند من قبل السلطات لأنه صاحب الحق ، ونقلت ملكيتها رسمياً له ، واستأجر لها سائقاً وها هو يستمع إلينا في الحديث .

غير أن حديثنا هذا انقلب رأساً على عقب فقد زاد غضب المالك نتيجة لأسلوب السواقة من السائق ، ونزلنا في مركز يبعد عن مدينة طريف حوالي (٤٠) كيلو متراً لنأخذ راحة بعض الوقت ، وشكى لي تصرف هذا السائق الأحمق الذي يستخفُّ به رغم وجوده معه وعرفت من السائق أيضاً أنه من الرجال الذين يتمتعون بخصال سيئة فهو أحمق فعلاً ، وأنه ممن لا يحرصون على مصالحهم ، غير أنني أتوقع فيه خيراً ، فهو من ناحية ليس ممن يتملَّقون أمام

(★)هو المدعو «محمد العدل» من أهالي طريف . وكان موظفاً بشركة التابلاين عبر البلاد العربية .

الناس ، ويعقبون ذلك بسوء لهم ، فطريقته واحدة ، وهو إلى ذلك مرحاً ، يكثر التحدُّث والتعاشر مع من هم في شاكلته ، كالسائقين مثلاً ، فقد أكثر من المزاح في القهوة التي جلسنا فيها لنرتاح قليلاً مع أصدقاء سائقين يعرفهم وهذا لا نستبعده مطلقاً من الناحية الاجتماعية ، فالطبقات الوظيفية تشغل الفئات التي تعمل بها على حسب الدرجات ، فالعامل يتبسَّط مع العمال ، والتَّاجر يهمه التحدُّث عن التجارة ومع المتهنين بها ، والموظف يلذُّ له الاختلاط مع الموظفين الذين هم في درجته ، فيكثر التحدث عن التَّرقيات والعلاوات وما إلى ذلك .

وحاولت أن أوفِّق بين صاحب السيارة والسائق ولكن دون جدوى ، فبمجرد تخلَّينا عن هذه القهوة ، عاد الخلاف من جديد بينهما ، وأخذ يشتم ، ويندب طالعه السيء كما يدعي في اختيار هذا السائق .

المنطقة التي نمر بها حالياً أراضٍ سهلية منبسطة في سيرنا باليوم الثامن من ذي الحجة لعام ١٣٨٤ تنخفض من طريف حتى الإجفور لتشكل بوادي الحماد الصحراوية التي تُنْبتُ أشجار صغيرة تصلح لرعاية الأغنام ، كالشيح ، والقيصوم ، والعجرم ، والرَّوثة ، والقطقاظ ، والنَّيتول ، والسّبط ، والنَّفل ، وبعض النباتات الصغيرة كالكلأ وما شاكله ، وهذه المناطق تتبع النطاق الصحراوي بمياه غير وافرة والنسبة التقريبية أقل من ثمانية بوصات ، ولا تصلح للزراعة لعدم إمكانية الحصول على الماء ولكنها تعتبر منطقة رعوية ، وذلك يعود لوفرة الأعشاب وعدم إجدابها في معظم السنين .

وقبيل وصولنا للإجفور ، كنا نتحرى وبفارغ الصّبر وجود أنوار تدلّ على قربنا للمدينة ، وقد مضى علينا الآن نيفاً على ثلاث ساعات دون أن نهتدي إليها والمسافة بين طريف والإجفور لا تعدو مائة وعشرة كيلو مترات .

غير أن المنطقة التي تقع فيها الإجفور وكما ذكرنا آنفاً سهول منخفضة تنبسط في هذا المكان ، وبينما نحن كذلك ، إذ بالمدينة تبدو وبصورة فجائية من الناحية الغربية ، كان السائق يتحدث عن المسافة بين الإجفور وطريف ، فيذكر أن

الطرق المؤدية لها متشعبة بشكل يضلُّ الإنسان لكون طرق الترانزيت العربي إلى المملكة ودول الخليج عن طريق مدينة طريف ، ويذكر أنه سافر مرة من الإجفور متوجهاً إلى طريف في طريق من هذه الطرق ، وبعد انقضاء ساعة كاملة من السَّير المتواصل اندهش بوجود أنوار تختلف عن أنوار طريف ، ودخل مدينة الإجفور عن طريق جانبي ، كان يظن أنَّ طريقه الأول الذي عاد به إلى هذا المكان هو الصَّواب .

والمتاهات في الطرق الصحراوية شيء متعارف عليه بين الجماعات التي تستخدم السيَّارات لغرض ريِّ الأغنام ممن يمتهنون الرَّعي ، فالمسافرين يهتدون بالنجوم في الليالي الصَّافية ، أو بالأدوات المغناطيسية أثناء الغيوم ، إذ أن البوصلة المغناطيسية تشير إلى جهة معينة ، يستهدون بها إلى الطرق السويَّة فاتِّجاه إبرتها من الشمال إلى الجنوب دائماً .

ودخلنا مدينة الإجفور لنجد أنها مدينة تقع على الطريق ا لمعبَّد الذي يصل الأردن بالعراق ، ووقف السائق قليلاً قبل أن ينزلني في الجمارك رغم أنه لا يحقُّ لي ولا للسائق الوقوف هناك إذ أن خلوِّي من الأثاث كان دافعاً للسائق بإنزالي هناك وتقف السيارة وأنزل منها ، لأجد أن سيارة أخرى من الحجم الصغير تسير رويداً لتجانب سائق السيارة ، وتنبعث أصوات على حد مسمعي تؤنب السائق لوقوفه في هذا المكان وعرفت أن صاحب السيارة هو من المسؤولين في الجمارك الذين يحرصون على تتبع السيارات المخلَّة بالأنظمة ، واستدرت ناحية السيَّارة لجهلي بموقع الجمرك ، وطلبت من موظف الجمارك تفتيش حقيبتي التي تحتضن ملابسي وكتبي .

وأخذت أحاول إقناع الموظف بأنني لا أملك سوى فروتي الصوفية ، وحقيبتي ، ولكني وجدت عنتاً ، وإصراراً شديداً من الموظف الذي طلب مني أن أنطلق إلى مكان الجمرك وركبت السيارة ، وسرنا إلى أن بلغنا عمارة

الجمرك ، ولم أتأخر مطلقاً ، فقد جرى تفتيش حقيبتي وكان عليَّ أن أرجع مسافة كيلو مترين إلى سوق الإجفور ، حيث تكثر المقاهي التي تقدم بعض الخدمات إلى المسافرين ، إذ يقدِّم أصحابها أسرَّة للنوم على نحو من البساطة والتَّقشُّف ، ولما اقتربت من السوق المجانب لطريق الإجفور بغداد استهواني منظر قهوة كانت على جانب كبير من الأناقة في مظهر نظافتها ، فهي بنظرى أجمل قهوة شاهدتها في الإجفور دون أن أعلم أن مسرحية تنتظرني بها ، ودخلت بهو القهوة الذي يكتظُّ بمجموعة عديدة من كراسي الخيزران والطاولات العادية ، والإنارة في هذا المكان تتوقف على مصابيح الأتاريك (اللكسات) كما يفهمها البعض ، وجلست على كرسي وأمامي طاولة مغطَّاة بطبقة شمعية لأرتاح قليلاً ، لعلي أتقبَّل العشاء ، فإن للسفر أثراً كبيراً في إرباك هضم الطعام ، إذا لم تتوفر في الإنسان صفات بعض الناس ممن يحرصون على جعل وجباتهم بفترات منتظمة .

ولكن استرعى انتباهي غلامٌ ، كان يدخل البهو ضاحكاً دون سبب ، ثم يدور بعجلة ، متنقلاً مصفِّراً بين جوانب القهوة ، كان فرحاً وخنوعاً ، فبمجرد نظرته لي خضع وقال : أمرك يا سيدي ، ولم أدهش من المنظر كثيراً لأنني أشك في كونه بحالة غير طبيعية وشكرته .

وانتحى زاوية من البهو ليدخل إلى دكان يقع في زاوية الجانب الشرقي من القهوة ويفتح الباب ليعود حاملاً بين يديه قارورة ويشرب على الطاولة حتى ينهيها .

ومضى برهةً من الوقت ، كنت بفضول أمعن النَّظر فيه وقفز من الكرسي ، ثم أخذ يضرب برجليه على مصطبة الفناء ، تحت تأثير وقع ألحان الموسيقار فريد الأطرش ، وفجأة دخل الفناء شاب ورجل مسن وحيَّاهما ، وعرفت أنه لابد من وجود علاقة صداقة تربط بينهما ، ورحب بهما كثيراً وطلب منهما أن يجلسا

على طاولة قريبة مني جداً ، واستفسر عن رغبتهما في اختيار ما يشربون ، واختار كل منهما نوعية شرابه وصفَّق بيديه ، وذهب إلى (الدكان) ليحقق رغبتهما ، وأحضر الطلب وجلس وهو يبدي حركات عجيبة ، ولإعراضي في عدم الاستجابة لرغبته لم ترضه ، وسأل الشاب الذي يجلس معه عما إذا كان قد أحضر قطعاً موسيقية ليتبسَّطوا[٦] في جو هادىء لطيف كجو الإجفور ، وحاولت أن أتخلص من هذه الجوقة[٧] ، بطلبي من صاحب المقهى طهي وجبة العشاء لأتناولها وبعد تناولي لها آويت إلى فراشي حتى الصَّباح .

واستيقظت من نومي في صباح اليوم التاسع من ذي الحجة لعام ١٣٨٤ وتناولت طعام الإفطار ، وخرجت لأبحث عن سيارة توجز لي الطريق بدلاً عن خط الترانزيت العربي إلى سوريا الإجفور ــ المفرق ــ درعا ــ دمشق ، وأشير إلى أن أقرب طريق لسوريا من مدينة الإجفور هو عن طريق منفذ «أبو الشامات»[٨] . وقررت أن أستجيب لرغبة من أشار إليَّ بذلك ، وعليه فسيكون طريقي «لأبو الشامات» ، وسألت في السوق عن سيارات تذهب على هذا الطريق وأشار إليَّ أحد المارَّة بوجود سيَّارة محمَّلة ، وستسافر عن طريق «أبو الشامات» قريباً جداً ، ولما قابلت السائق أفادني بأن حمولته غجرٌ ، الذين يُدعَوْنَ (النَّورَ) أو الزُّطْ .

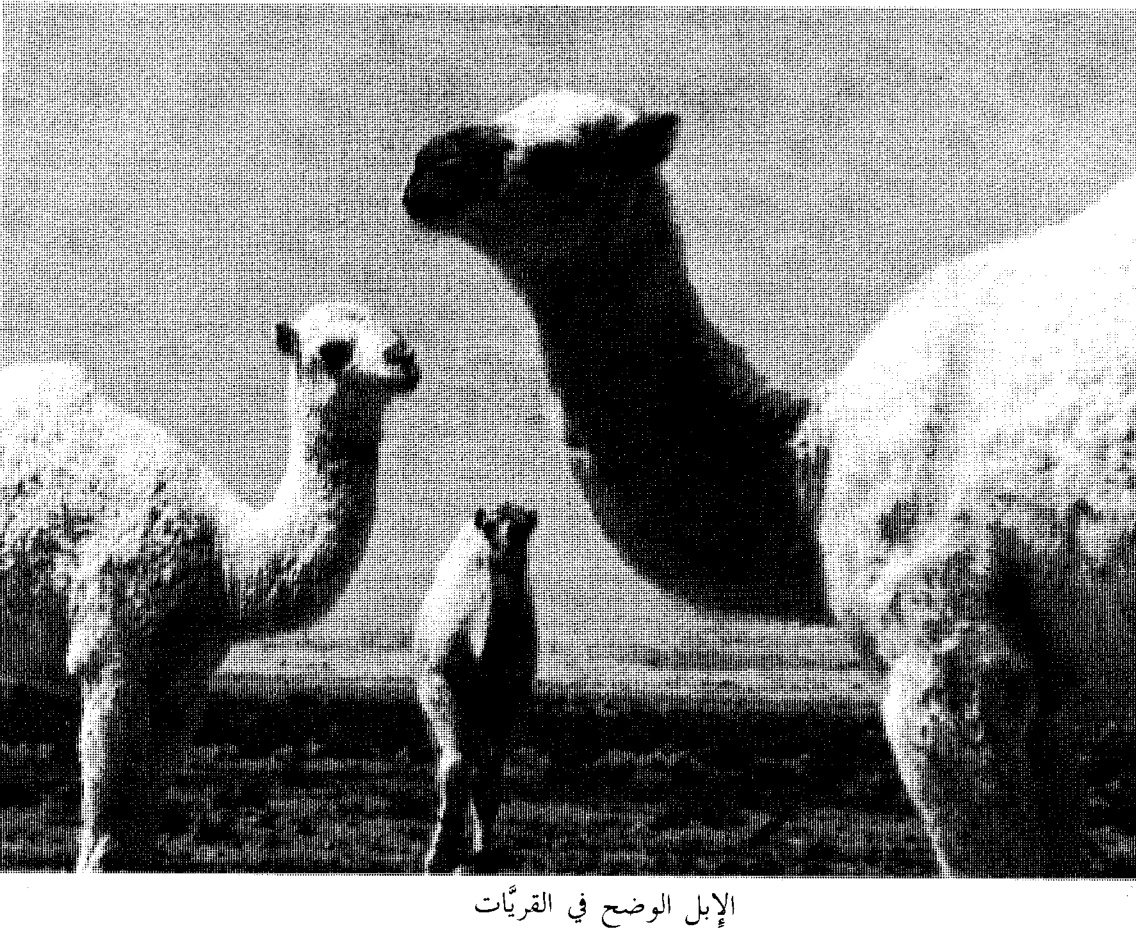
والنور قبيلة آسيوية هاجرت في القرن الثالث الهجري من أواسط آسيا واستطاعت اختراق حدود الدولة العباسية في عهد المأمون .

---

(٦) تبسّط : روي عن عروة أنه قال : مكتوب في الحكمة ليكن وجهك بسطاً تكن أحبّ إلى الناس أي منبسّطاً منطلقاً ، والانبساط ترك الاحتشام .

(٧) الجوق : كل خليط من الرّعاء ، وقيل الجماعة من الناس ، والأجوق : الغليظ العنق ، والميلُ بالوجه والجمع جوقة .

(٨) منفذ أبو الشامات : منفذ بري داخل الجمهورية العربية السورية ، ويبعد عن دمشق قرابة سبعين كيلو متراً فيه جمرك ومنه خط إلى العراق .

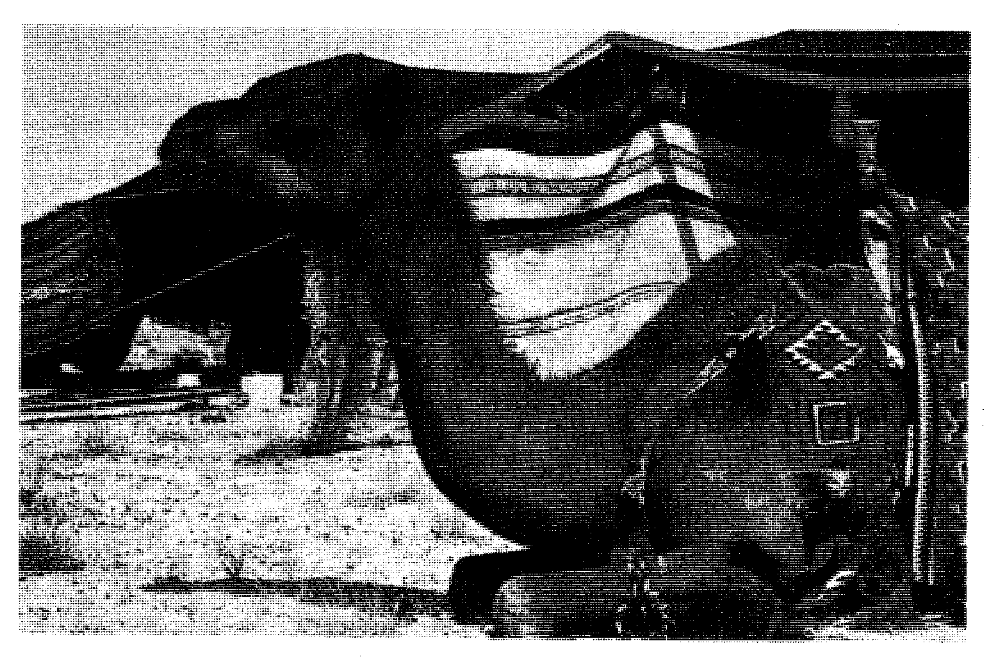


الإبل الوضح في القريّات





يبدو قصر نوّاف الشّعلان ومشاريق كاف من جبل الصعيدي

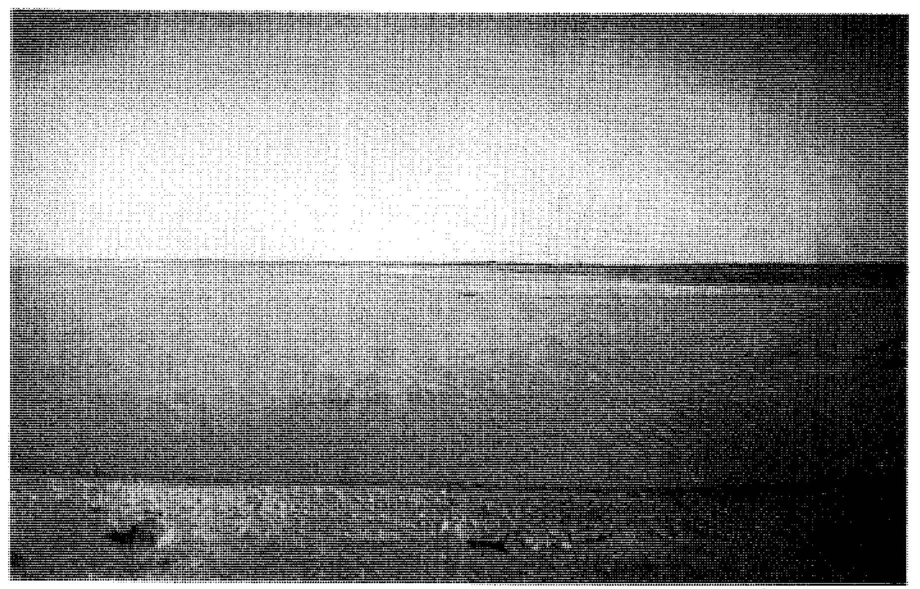


تزيين الإبل بالنسج والحبك التقليدي في الماضي





الكداد نبت بمنطقة القريّات

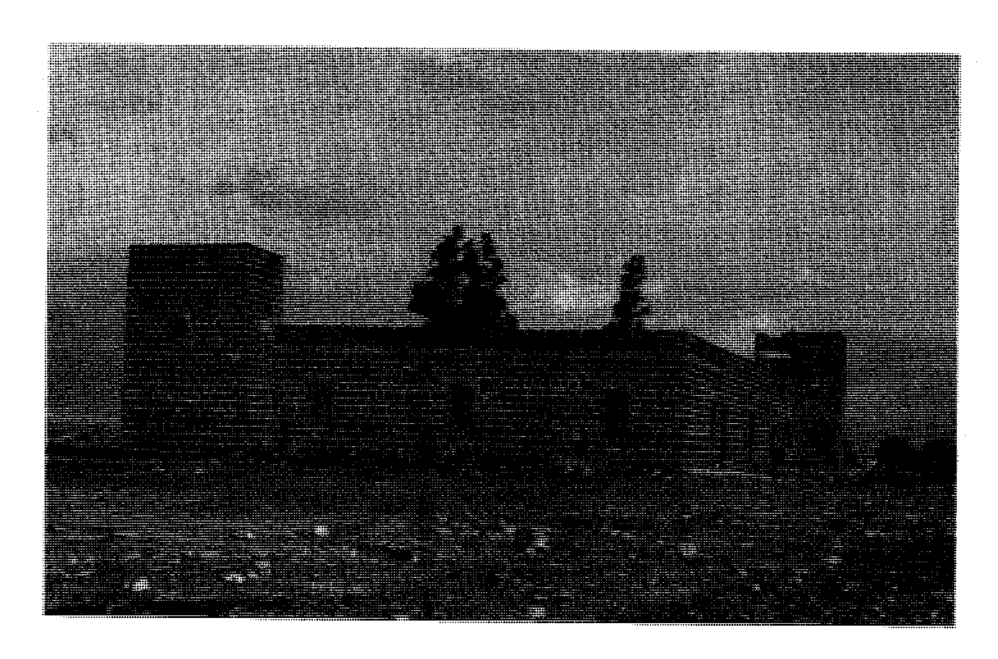


«يلاحظ أن «برقع» تتوفر به المياه لمساحات كبيرة كانت تنمو بها التماسيح»

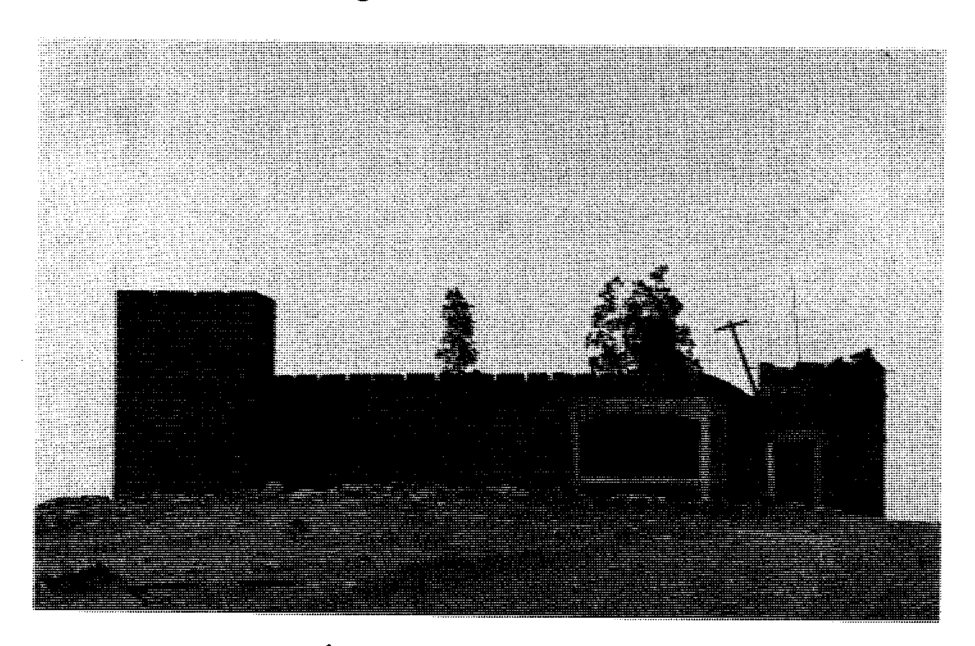


رفيق الرحلة من طريف ، والذي وصف بصاحب السيارة ، في حين أن صاحب السيارة أخيه ، رفيق الرحلة اسمه محمد عوض العقيل الشقران ، وهو صاحب السروال الأسود المخروطي .. وقد أمكن التعرف عليه عن طريق أخيه صاحب السيارة الحقيقي ، وصاحب محطة البنزين بمثلث الرمثا المدعو محمود عوض الشقران .



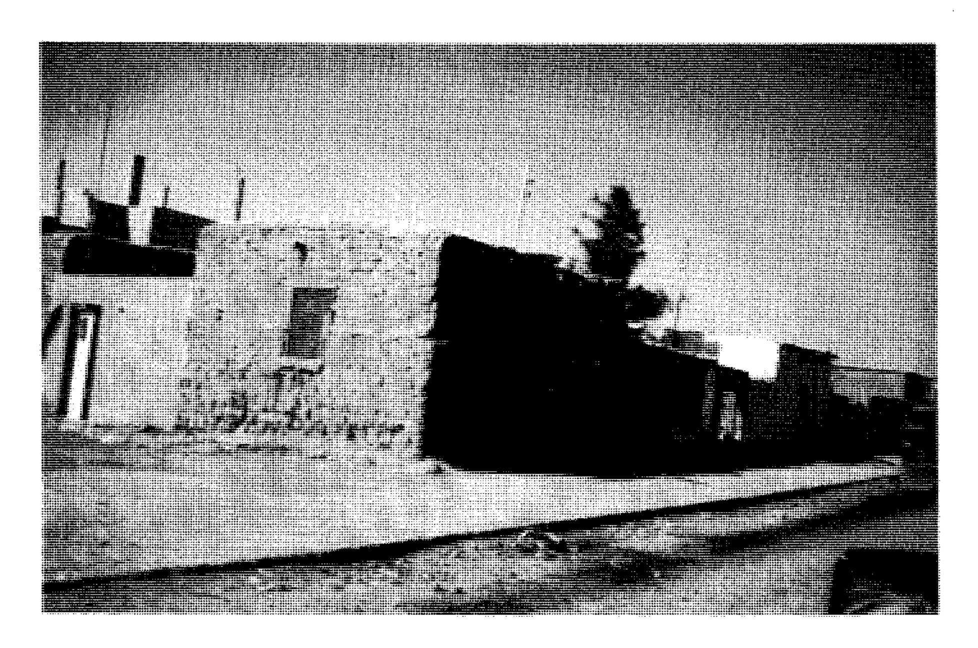


«قصر الحديثة من خلف المبنى»



قصر الحديثة بالقريات «الواجهة الأمامية»



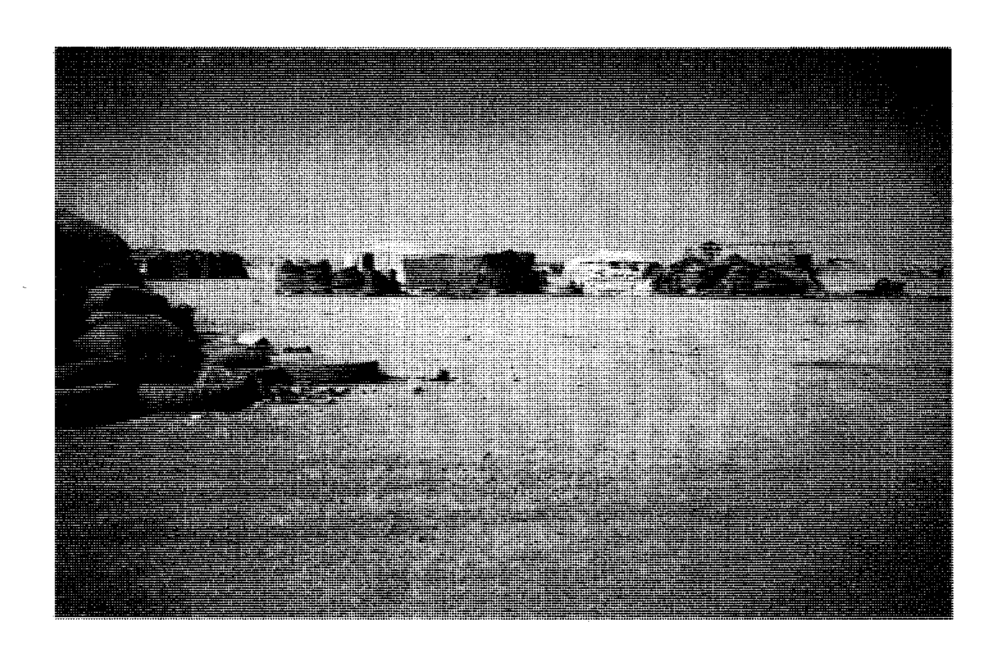


مباني قديمة من الطين من مباني الإجفور «الرويشد حالياً»

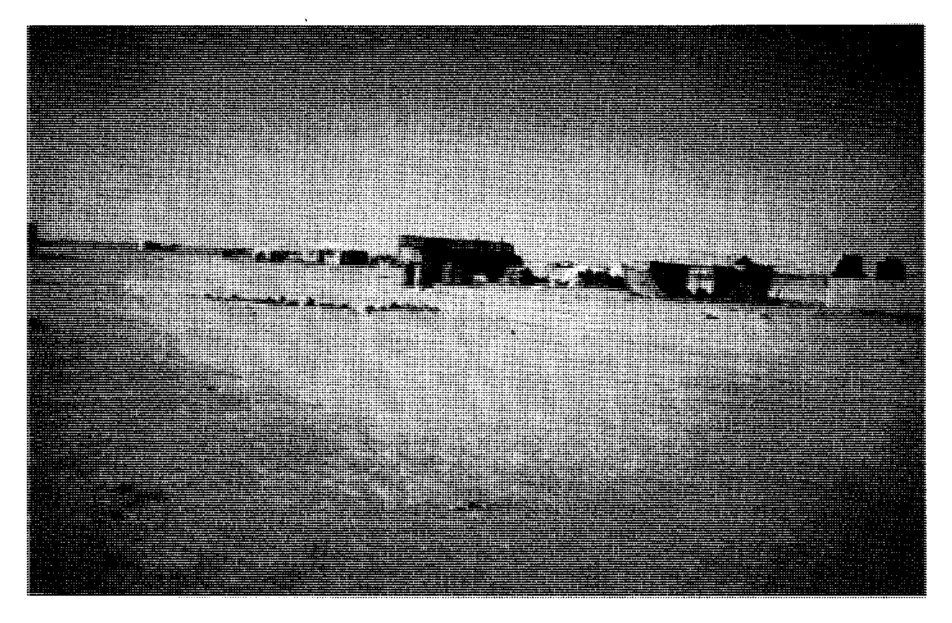


أشجار مثمرة داخل سور قديمة من الطين بمدينة الإجفور





سوق بيع الأغنام بالإجفور



بعض البادية بالإجفور





«بِرقع» والمؤلف يشير إلى الموقع



مجمع مياه برقع والحرَّة غربي مياه البرك



كان تغلغل هذه القبيلة يعتمد على القوة ، فقد استطاع رجالها مقاومة حرس الحدود في الدولة العباسية ، وبسط نفوذهم على رقع صغيرة ، تسلَّلوا من خلالها إلى مرتفعات العراق الشمالية حالياً ، وانسابوا إلى الشمال الغربي والغرب ، إذ بلغ تجاوزهم نهري دجلة والفرات .

كان يتَّصف رجالها بقوتهم وشكيمتهم ، ولما وجد المأمون أن ذلك يشكل خطراً على الدولة ، جهَّز جيشاً لمقاتلتهم ، ولم يفلح ذلك الجيش في تطهير هذه القبيلة على الإطلاق ، إذ توفي المأمون ، الذي أوصى أخاه المعتصم بمقاتلتهم ، وتعقُّبهم حتى تستأصل جذوتهم من الدولة العبَّاسية ، وقد استطاع الخليفة المعتصم أن يهزمهم غربي العراق ويتخلَّص منهم بجيش كان يقوده عجيفة بن عنبسة وما كان من دخوله بالزّط بغداد ، وقهره إيَّاهم ، حين طلبوا منه الأمان فأمَّنهم ، فخرجوا إليه في ذي الحجة سنة ٢١٩/هـ على أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم ، وكانت عدتهم فيما ذكر سبعة وعشرين ألفاً ، المقاتلة منهم اثنا عشر ألفاً ، وأحصاهم عجيف سبعة وعشرين ألف إنسان بين رجل وامرأة وصبي ، ثم جعلهم في السُّفن وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية ، فأعطى أصحابه دينارين جائزة ، وأقام بها يوماً وعبأهم في زواريقهم على هيئتهم في الحرب ، معهم البوقات حتى دخل بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠/هـ . والمعتصم بالشماسيَّة في سفينة يقال لها «الزّوّ» حين مرَّ الزّطّ على تعبئتهم ينفخون بالبوقات فكان أولهم بالقنص وآخرهم بحذاء الشماسية ، وأقاموا في سفنهم ثلاثة أيام ثم عبر بهم إلى الجانب الشرقي فدفعوا إلى بشر بن السميدع فذهب إلى خانقين ، ثم نقلوا إلى الثغر إلى عين الزربة فأغارت عليهم الروم فاجتاحوهم[٩] والنّور أوالزطّ ، اشتهروا بولعهم في التجارة بالخيل ، والبغال والحمير .

---

(٩) تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (المجلد الخامس) صفحة ٣٠٦ الطبعة الأولى .

وحملت نفسي على أن أمكث في الإجفور عن أن أسافر مع الزَّط الذين أخذت تتعالى أصواتهم لتشق عنان السماء ، وذلك ما أكره ، ولكنني بعد العودة وجدت سيَّارة يملكها أحد التجار السوريين يذكر أن مدينته دوما بسوريَّا .

وصادفني رجل كنت أعرفه غير أنَّ معرفتنا سطحيَّة(*)، فالمذكور يعمل بالإجفور كسائق أجرة لسيارة يملكها وهو ممن يحتاج إليه المسافرون لقدم عمله في هذه المهنة ولشهرته بها أيضاً ، وتشبث بي واضطرني إلى أن أزور بيته ، وكانت تواجهني مشكلة إلحاحه ، ومشكلة رغبة التاجر السوري في السفر بصورة مستعجلة ، غير أن المشكلة انتهت بتفاهم صاحبي مع التاجر ، وطلب منه أن يمرَّ بي إلى بيته ، ودخلنا البيت ، وقدَّم لنا الشَّاي وتمنَّى لو أن الوقت طويلاً ليكرمني ، واختتم تشرّفي لبيته بكأس من اللبن الطازج .

ولم يمض وقت طويل حتى انبعث منبه السيارة إيذاناً ، بسيرنا ، فركبت وودَّعت صديقي ، وقد أخذت فكرة تامة عن الإجفور فهي قرية قبل أن تكون مدينة ، الشَّوارع مخطَّطة تخطيطاً لا بأس به ، والبنيان ماعدا مراكز الحكومة مبنى من الطين ، تكثر الأكواخ المصنوعة من اللدائن الحديدية المرنة والصفائح المعدنية ، يعيش أهل الإجفور على التجارة ، وموقعه حسَّاس فهو على ملتقى عدَّة طرق ترد من سوريا ، لبنان ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية .

مدينة الإجفور عروس بوادي الحماد المحيطة فيه ، فهي تستهلك كميَّة تجارية ضخمة من الثروة الحيوانية ، كالأغنام ، والإبل ، وتصدر منتجات مروجي هذه الثروة إلى مدن الأردن الكبيرة ، ويوجد به سوق لبيع الأغنام تقف به المواشي المراد بيعها مرة أو مرتين في الأسبوع بأيام معينة .

الإجفور بكاملها مجرد سوق تجاري ، وركبنا السيَّارة غير أنني فوجئت باستئذان سائق السيارة مني بتغيير جهة مسيرنا ، لأنه يريد الوصول إلى منطقة بسوريا

(*) وهو المدعو «رويشد بن نجيعة» .

تسمَّى (الرَّحبة)[١٠] وهذه المنطقة سيترتب علينا بها تغيير طريق أبو الشامات كلِّيا على أن نعود إليه ، ولا بد لنا أن نصوِّب طريقنا شطر الغرب ، وبعد انقضاء مسافة عشرين كيلو متراً ، صادفتنا رغبة بالإجماع على أن نشاهد عملاً جباراً قامت به (النقطة الرابعة) لصالح دولة أجنبية كانت تعمل في الأردن قبل سنوات ، وسحب إمتياز عملها من لدن الحكومة الأردنية لوجود اشتباه بعلاقاتها التجارية وسياستها في خطط أهدافها ، فهي تهدف إلى ما لم يوافق المصلحة في الأردن ، وهذا العمل يتجسم في تكوين برك مستطيلة الشكل طويلة تحجزها سدود لتجميع مياه الأمطار ، واستخدامها في ري أراضٍ منبسطة يطلق عليها اسم (برقع) وكان محدداً لهذا المشروع النجاح في خططه ، وباعتقادي لو أن الحكومة الأردنية تتولَّى ما خلَّفه هذا المشروع لأروت قسماً كبيراً من أراضيها تساهم مساهمة فعَّالة في تنمية الاقتصاد الوطني بها .

فقد كانت جهات التنفيذ في المشروع في أعمالها لهذه البرك ، تحرص حرصاً تاماً على أن لا تتبدَّد المياه في الغور جوفياً ، ولذلك فقد كانت تحرص تماماً أيضاً على مدِّ قاع البرك بأقمشة كبيرة المساحة ، مدهونة بمواد شمعية لتحول بين المياه والغور في الأعماق .

ويتحدث السائق(*) الذي يجلجل صوته بين وقت وآخر مشيراً إلى الماضي بأن هذه البرك مرَّت بفترة كنت تحسب أنها بحيرات قليلة العمق ، فقد كانت تنمو

---

(١٠) الرُّحبة : هي مواضع متواطئة يستنقع فيها الماء ، وهي أسرع الأرض نباتاً تكون عند منتهى الوادي ، أو في وسطه ، وقد تكون في المكان المشرف ، يستنقع فيها الماء ، وما حولها مشرف عليها .

(*) وهو المدعو «سليمان الأطرم» عبد بن شعلان . وسليمان هذا مشهور كسائق وفيه قصيدة هجينية باسمه :

قم شغِّل الفورت يا سليمان	موديل الواحد وخمسيني
وعن الهواء سكِّر البيبان	خلِّ الإذاعة تسلِّيني

بها الأسماك الكبيرة وبعض التماسيح ، وبعض الحيوانات المائية الأخرى ، ومياه هذه البرك وافر يتلاطم على الجوانب ، كأنما هي مناطق منخفضة تتصل بأحد المحيطات ، لولا أن المياه عكرة صفراء نتيجة لذوبان التربة الطينية بها .

تتجمع هذه المياه نتيجة لورود شعاب عدَّة تصب بهذا المكان ، ومما يظهر أن المنطقة منخفضة لدرجة تكفي لتجميع هذه المياه الوفيرة ، ثم عرجنا باتجاه الشمال الشرقي لنعثر على آثار تأسيس أماكن المشروع للسكن ، فقد كانت تتألف من لدائن وصفائح معدنية على شكل مستطيل ودائري أحياناً ، تسقف من نفس هذه المواد الحديدية ، ولكن بشكل منحني وصادفنا في الطريق آثار منازل البدو الذين كثيراً ما يلجأون لهذا المكان ، يبتغون من ورائه سقي حياتهم المادِّيِّة التي تتمثل في مهنة الرَّعي لماشيتهم وإبلهم .

كثيراً ما تغلُّ وتربع هذه الأماكن ، فتنبت الأعشاب البرِّيَّة على مختلف أنواعها وألوانها ، وتجد أن البدوي في هذا الوقت ينسى نفسه ، فهو على درجة كبيرة من الإنشراح والانبساط في هذا الفصل ، فصل الربيع خاصة إذا ما غلَّت السنة بمثل هذه الأعشاب ، ويكفي لأن يذكر لنا أحد الإخوان بعد ممارسة شاقَّة كان يقوم بها كبدوي وهو السائق ، فيقول تمر علينا سنة خصبة تنسينا عشرة سنوات من الجدب .

ولكم كنت مغتبطاً في هذا اليوم التاسع من شهر ذي الحجة لعام ١٣٨٤/هـ ، حين بدأنا نعبر مضائق من الشعبان تكتض بأنواع عديدة من الرَّياحين والأزهار ، يحملها الهواء النقي ليعبق بها جو الصحراء الوادع ، وطلبت من السائق أن يقف لنجلس على بساط أخضر تبتسم فيه الورود على ألوان مختلفة ، وضمَّختنا[١١] الروائح المعطارة في مسيل هادىء ينساب في البوادي ، وكأنما هو مشغوف بتقبيل ثغور الأزهار ، آه ما أجمل الحماد في سنين الخير والبركة ، فالحماد أجمل

(١١) ضمخ : لطخ الجسد بالطيب وأكثر منه ، حتى كأنما يقطر .

ما يصوِّر ربِّي من حقول.وأفانين المبدع جلَّ وعلا ، إن الصحراء والحماد يزيح الملل عن كاهل المتعب ، فهو غاية الانشراح وسرّ السعادة للبدو في السنة الخصبة .

ثم ركبنا السيارة ووجهنا صوب الغرب ، في سهول منبسطة خصبة مليئة بالأعشاب والورود البرِّيَّة ، بأزاهيرها لنعبر سلسلة صغيرة جداً من التلال المتقطِّعة ، تتصل من الناحية الغربية في الحرَّة التي تشكل جزءاً جغرافياً من جبل الدروز في سوريا ويبدو لي أن هذه السلسلة بركانية حديثة التكوين ، فقد تكونت نتيجة لانفجارات بركانية ضخمة اندلعت من القسم الشمالي الشرقي لجبل الدروز حتى مشارف غوطة دمشق ، والحرَّة كما أخذت من رواية السائق كفكرة عنها ، هي كتل صخرية صمَّاء متماسكة ولمسافات بعيدة ، سطح القشرة فيها أملس ، وبرأيي أنها تحتوي على نسبة عالية من الحديد الصلب ، كما أنها تستخدم أيضاً كعنصر مادِّي فعَّال في إشادة العمران الذي يتلون بهذه الصبغة ، واليد العاملة في الجزء الجنوبي الغربي في سوريا تصنع من هذه الحجارة المساكن الحجرية .



الفصل الثالث :

وصف جغرافي وتاريخي
لتلِّ النَّجَّار

هذا حديث موجز عن علاقة المنطقة جغرافياً من حيث التكوين ، وواصلنا المسير لمسافة خمسة وسبعين كيلو متراً ، ليطلب منَّا السائق النزول لمشاهدة تلٍّ صغير على حافة المناطق السهلية ، ويذكر أنَّه أثريّاً قديماً باسم تل النَّجَّار والدَّليل على ذلك وجود نقوش أثرية ، منقوشة على الحجارة التي تمتلىء في قمة الجبل .

وكان وقع كلامه شجيَّاً على مسامعي ، فإنني ممن يميلون إلى حب مطالعة مثل هذه الأشياء ، والتّمرُّس بمنطوقها ، وبدأنا في سلسلة التلِّ التي تؤدي بنا إلى القمَّة يزخر هذا التلُّ بقطع حجريَّة كرويَّة الشكل وقد تتفاوت بين البيضوية والكرويَّة وقد لفت انتباهي وجود نقوش على صخرة صمَّاء ، وقد تتعدد مثل هذه النقوش إلى أكثر ، غير أن عوامل التعرية قد أثَّرت بها فتشقَّقت ومن ناحية جيولوجية فقد كانت في عصر من العصور كتلة واحدة ، وأخذت أعالج النقوش ... وعلى كل حال ، فإن لي رأيي الخاص ولو أتعارض مع الآخرين لأحكم أن هذه المنطقة ، كانت تسكنها قبائل عربية هاجرت من سد مأرب في اليمن بعد انهدامه بسيل العرم ، ثم احتلَّت هذا المكان على نحو من التقشُّف والبساطة في العيش ، والنقوش التي تكتبها هذه القبائل تأويلي لها آرامية الأساس في خط مسند كان يستعمله العرب الجنوبيون .

غير أنَّني أتوقَّع من مشاهدتي للصور التي كان يرسمها أولئك القوم في ذلك

الوقت ، والتي تشهد بوضوحها حتَّى الآن أنَّهم كانوا يقتنون الإبل والخيل فقط . وصور هذين الفصلين يزخر به هذا المكان ، ومن الناحية الفنَّية فباعتقادي أن فناني القوم كانوا يقتبسون التصوير من الرومان جيرانهم في سوريا ، وربما أنهم العمالقة الذين تروي لنا كتب التاريخ أنهم اجتاحوا شرقي الأردن حالياً ، وقامت حروب ومشاحنات قويَّة بينهم وبين الجراهمة سكان الأردن الأصليين ، وربما أنهم الغساسنة الذين هاجروا من اليمن بعد انهدام سد مأرب ، وقطنوا تهامة بالحجاز واستوطنوا في مكان توجد به عين اسمها (غسَّان) وهذا سبب تسميتهم بالغساسنة ، ومنطقة النجَّار هذه حصينة جداً إذا ما أقارن بينها وبين سهول الحماد التي تنبسط إلى مالا نهاية في شرقي هذه المنطقة ، ويجيد فنَّانو القوم بهذه القبيلة تصوير الإبل الكبيرة ويظهر لي أنهم شديدوا الحرص على تربية صغارها ، فهم يعتنون عناية كبيرة في تهجين هذا الفصيل من الحيوانات .

ولقد وجدنا قطع حجرية كثيرة في هذا المكان منقوشة لصور إبل تمثل كل قطعة منها ناقة مع فصيلها الصغير ، كما يوجد صور ترسم لنا الشمس بشكل أقراص دائرية تنبعث منها خطوط لكافة الجهات تمثل الأشعة ، وأخمِّن بأن معتقداتهم كالمجوس يعبدون الشمس والقوى الطبيعية الأخرى ، فهم يتعلَّقون بالوثنية في التقديس ، والخيل هي منعتهم في القوَّة الحقيقية التي تضمن سلامة القبيلة من الشرور التي تهددها ، كانت غزوات يتزعمها رؤساء القبائل البدوية الأخرى ، أو علاقة دولة بجماعة أشبه بثوار يحتمون بأماكن حصينة ، فيمتطي الشجعان صهوات هذه الخيل ويدافعون بأرواحهم عن سيادة قبيلتهم .

واللغة التي يتكلمونها لغة أهل الجنوب بالنسبة للَّهجات العربية في مخارج الألفاظ ، ولو أن لهجرتهم بهذه الأماكن تأثير في لغتهم الأصلية بحكم الاحتكاك والاختلاط غير أن محافظتهم لقوميتهم وتكتلهم ضد أعدائهم جعل منهم قوة تحرص على تراثها ، تراث أهل الجنوب ، وأضيف أيضاً بوجود أسلحة قويَّة

أقوى من سلاح السيف والرمح ، والنِّبال ، والشَّجاعة بامتطاء صهوات الخيل التي يستخدمها الفرسان ، وهذه الأسلحة تتمثل في آلات أشبه بالمنجنيق ، لأن الحجارة التي تكتظ بها هذه السلسلة على جانب كبير من الأهمية ، فهي بيضوية الشكل أو كروية كما ذكرنا آنفاً تصلح كقذائف تموِّن المنجنيق .

وبمقدوري أن أقول ، بأن هذه القبيلة العربية التي هاجرت لتحلَّ في هذا المكان ، كانت تمتلكُ من السلاح والرِّجال ما يكفيها لحماية نفسها ، ولقد كانت مضطرة للاستيطان في هذه العزلة لضرورة سياسية ، وبصورة مؤقتة ، ولم تكن هذه القبيلة على مستوى ثقافي رفيع يؤهلها لأن تدوّن تاريخها ولكنها تمتلك فنَّانين قلائل يجيدون الكتابة إلى حد ما ، ويميلون إلى التصوير دون أن نعتبرهم من الفنانين المجيدين في ذلك الوقت ، وليس بعيداً أن هذه القبيلة وجدت من الضرورة أخيراً امتلاك الأراضي والاشتغال بالزراعة كما كان شأن القبائل العربية التي هاجرت من الجزيرة العربية تحت تأثير عوامل معينة ، ولا مجال للشكِّ أن هذه القبيلة نزحت واستوطنت مكاناً يصلح للزراعة في الناحية الشمالية الغربية .

هذا المكان يحتوى على البقعة التي استوطنها ملوك التنوخيين واللَّخميين ، فقد بسط هؤلاء نفوذهم على البادية من الشام إلى حدود العراق حالياً ، وتمكنوا من السيطرة على الطريق التجاري الحيوي الذي كان يمتد من الشام إلى العراق .

ومن القبور الموجودة في منطقة النمارة والتي تقع على الحدود الأردنية السورية وقريباً من موقع هذا الجبل ، قبر امرؤ القيس بن عمرو وتؤكد فيه نقوشٌ على القبر أنها كتابة نبطيَّة متطوِّرة وهي مستهلاًّ لأحرف الهجاء للعربية الأولى .

فقد تضمنت العبارات المنقوشة على القبر الآتي :

(تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو اسرابتج وملك الأسديين ونزرو وملوكهم وهرب مذ حجو عكدى وجا يزحى في حج نجرن مدينة شمر وملك معد ونزل بنيه الشعوب وو كلهم فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه عكدى

هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده) .

(وذلك ما يعني)

هذا نصب (أو قبر) امرؤ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي أحرز التاج وحكم الأسديين والنزاريين (؟) وملوكهم ، وشتت مذ حج عنوة . وأحرز نجاحاً في حصار نجران مدينة شمر وملك معدا وولَّى بنيه الشعوب (أي قبائل) ووكلهم الفرس والروم (أو جعلهم فرساناً للروم) فلم يبلغ ملك مبلغه اقتداراً هلك سنة ٢٢٣ اليوم السابع من شهر كسلول بعد أن ترك السعد لأولاده .

وامرؤ القيس هذا ليس بالشاعر المعروف بن ملك كندة حجر . ويحتمل أن هذه الكتابة استفادت من التطورات الأخيرة للخط الآرامي ، كما أنها اشتقت بعض الإلفاظ من اللغة التي سبقت لغة قريش ، ويحتمل أن القبر الموجود هو قبر عمر بن عديّ .

وعدنا من التل لنواصل سفرنا ، وقبل أن أقترب من السيارة لفت انتباهي أفعى كبيرة كانت تزحف في الجهة الشرقيَّة من مسيري إلى سيَّارتنا ، و لم أُعرها غير حذر بالغ ، فإنني لا أطيق منظر الأفاعي ، وغيَّرت اتجاه طريقي بصورة معاكسة ، وطلبت من أحد الإخوان إن كان يعشق ملاحقة مثل هذا المنظر على ألا أكون طرفاً في النزاع وانطلق اثنينهما، واشتركت أخيراً بعد تردد ، وفرضنا حصاراً مشدَّداً عليها ، وأخذنا نوالي قذفها بالحجارة ، حتى انتصرنا عليها .

والسائق على ما يبدو مغرماً في مطاردة الأفاعي حسب ما يذكر لنا ، يقول بأنه كان يطارد الأفاعي بجحورها ، فقد تعرَّض مرَّة للدغ أفعى شلَّت قوى يده اليمنى ، وتعطَّلت مرونة أصابع يده ، كما كان يسرد لنا بأن الفرد يتعرض للسوء إذا ما طالع صورة حيوان أو نعيق بوم أو غربان أو وجد أفعى و لم يقتلها .

وعرفت من صاحبي أنه من أهل الاعتقادات السخيفة ، وتذكرت اعتقادات الرومان الذين كانوا يكثرون من الظنون الضليلة في الحيوانات والطيور ، وأذكر أن الروماني كما تقص بعض الروايات في عهد رومولس وما أعقبه ، يتشاءم من الجلوس ، ويخرج من المجلس إذا سمع صوت الفار ، كما أنَّهم يتعلَّقون في أصوات الطُّيور ، فيتريَّث المسافر عن سفره إذا ما اعترضته لغة حيوان أو طير .



الفصل الرابع :

الحدود السورية
وموقع (رسيس) و(الرحبة)

وسرنا باتجاه الغرب مع السلسلة المتقطعة التي تكثر بها الشعاب ، ودخلنا الحدود السورية ومررنا بمكان تكثر به المستنقعات المائية ، وتجف في بعض المناطق ويبدو للسائر فيها أن السيارة لا تسير مطلقاً لانبساطها ، يطلق عليها اسم (الخباري)[١٢] والخباري هي اسم لمجمع مياه مستوٍ لعدة شعاب .

وأخيراً وصلنا (رسيس)[١٣] وهي منطقة أثرية والآثار الموجودة فيها مطمورة ، ولا يوجد سوى بقايا جدران أزلية متهدِّمة ، غير أن الفريد بهذا المكان طبيعة تربته ، تكثر به الرمال التي تتبلور باورة ظاهرة في انعكاسها على أشعة الشمس ويروي لنا السائق بأن المتعارف عليه ، بأن هذا المكان يختزن ثروات كبيرة في باطنه وقد وجدت في بعض القبور نتيجة الحفريات ، ولكن ذلك نادراً لأن أغلب المحاولات تبوء بالفشل كما يزعم ، لأنه كما يذكر محصَّن بقوة من الجن إلخ ..

ويحتمل أن السكان كانوا يكنزون أموالهم ومتاعهم في قبورهم ، وهذا ما جرت عليه العادة في كثير من الحضارات الساميّة ، وغيرها ، كما كان يفعل

---

(١٢) خبراء : جمعها خبارى ، وهي منقع المياه .

(١٣) (الرَّسيس) بفتح الراء وكسر السين ماءان لبني أسد ، وقيل واديان بنجد ، وقيل هما ماءان في بلاد العرب معروفان .

الفراعنة في مصر ، ويحتمل أن هذا المكان قد تعرض لإنشاء حضارة كانت مركزاً للقوافل التجارية في البادية مثل حضارة تدمر المتأخرة ، إذا ما نقارنها بحضارة هذا المكان ، فحضارته قديمة جداً ، كما يبدو من الحجارة الضخمة التي أتت عليها عوامل التعرية ، والتي جرَّدتها من دقَّة نحتها وهندستها ، أو قد تجد ما هو مطمور في الأرض لقدم تاريخ هذه الحضارة .

وطبيعة المادَّة الحجرية في هذا المكان تنمو على ظهرها بعض الفطريات تشكلاً لظروف طبيعية معيَّنة ، فمن الناحية المواجهة لمناخ البحر الأبيض المتوسط يتلون الحجر بلون أبيض[١٤] ، غير أن الجزء الآخر منه يبقى على حالته الطبيعية ، ومضت برهة ليقع خلاف بين السائق وصاحب السيَّارة الشاب حول موقع (الرُّحبة) ولكني ألاحظ بأن السائق مرجعاً أساسياً في الاستدلال بالبوادي لأنها تعتبر موطناً أصيلاً له .

وافترض السائق النقطة التي يجب علينا أن نسلكها للوصول إلى هذا المكان وتضاربت الآراء حول الطريق الذي يجب علينا أن نتمسك به لنختصر المسافة ، فالطرق كثيرة ومتشعبة وقد اهتدينا إلى طريق يوجز لنا المسافة ونحن على هذا قد قطعنا شوطاً يقرب من تسعين كيلو متراً ضمن الحدود السورية واهتدينا أخيراً إلى الطريق المؤدي إلى هذا المكان ، بعد أن وصلنا إلى مشارف المنطقة التي تسمى (الرُّحبة) يقصد التاجر من مجيئه إلى هذا المكان الذي لا يتعارض مع رأيي التجوال فيه ، فإنني مغرم بحب الاستطلاع ، يقصد التاجر منه شراء كمية من الخراف نظراً لأن الموسم يحين وقته الآن ، ودخلنا منطقة صخريَّة اختطَّ بها طريق يسهل على السيارات المارَّة الوصول إلى منطقة الرَّحبة ، والطريق هو مجرد عزل الحجارة عن أماكنها المعينة ، وهذا المكان غني بهذه المادَّة الحجرية ،

---

(١٤) فطريّات بيضاء وقد تميل إلى الخضرة وحين تبلل وتطحن وتوضع على راحة اليد تغدو كالحنّاء ، إذ تجعل راحة اليد حمراء قانية .

غير أن هناك قطعاً موصولةً في الطريق ترهص قواعدها أساسات حجرية مسنَّنة ، وهذا مدعاة للقلق في سفرنا بذلك الطريق ، فقد كنا نخشى على السيارة وعلى أنفسنا بآن واحد .

ونقطع الكيلو متر الواحد بقرابة ربع ساعة من مغرب يوم ٩ ذي الحجة لعام ١٣٨٤/هـ ، واجتزنا أخيراً مسافة ستة كيلو مترات إلى الجنوب حتى خيِّل لنا أننا نرجع من حيث أتينا ، وأضفنا خمسة كيلو مترات أخرى ، نتحرَّى بها وجود علامات تشير إلى قربنا من الرَّحبة ولكننا لم نعثر على شيء ، وسألت التاجر عما إذا كان له معرفة بهذا المكان فأجابني بعدم معرفته غير أنه كمن طبع على الجشع أمثال غيره من التجار يذكر أنه تلقَّى وصفاً من شخص جاء إلى هذه المنطقة ، وأخذ يمتدح له الخراف فيها ، ويؤكد له بأن قرن الخروف يزيد على سبعة سنتمترات ، وانطبعت بمخيِّلتي فكرة أفهم منها أن تاجري هذا حريص كل الحرص على أن لا يبدد من ثروته شيئاً إلا بمخطَّط ناجح ، فهو يعتقد بأن هذا المكان شبه منعزل عن المناطق الأخرى بوعورته ، ويصعب على التجار الوصول إليه ، لذا فإنه يستطيع الحصول على خراف بأقل ثمن ثم يبيعها بأثمان مربحة ، وسرنا ونحن نتجشم أصعب منطقة تعثرنا بها منذ سفرنا حتى الآن ، وأحكم أيضاً بأن هذه المنطقة أصعب منطقة واجهتها ظروفي السَّفرية في حياتي ، وأخذنا نترقب بشيء من الحذر ، علنا نجد بيوتاً من الشَّعْر أو رعاة للأغنام لنسألهم عن الطريق الحقيقي ، فالسائق رغم أصالته بمعرفة البوادي أجابنا بعدم وصوله إلى هذا المكان ولو مرَّة في عمره ، والسَّبب كما استطرد لنا في حديثه المطوَّل هو شكيمة سكان هذه المنطقة وقوَّة بأسهم ، ففي الحكم العثماني والفرنسي لسوريّا ، كان سكان هذا المكان يتَّبعون أساليب العنف ، والقسوة ، في معاملة القبائل الأخرى ، والتي قد تقترب من أماكنهم ، يغزونها لا كما تجري العادة في القبائل العربية الأخرى بصورة جماعية ، بل إنهم يتسترون تحت ظلام

الليل برجل أو رجلين إلى خمسة أحياناً ويسمون ذلك «الحنشل» يحنشلون أي يغزون ، ولكن بعدد قليل لا يتجاوزون ستة أفراد ، يترصَّدون مضارب بيوت القبيلة المجاورة لهم حين تتهيأ لهم الفرص المناسبة ، ثم ينقضُّون عليهم ليلاً ، فيسرقون الإبل والغنم ثم يفِرُّون بها إلى مناطقهم الوعرة ، فلا يستطيع أحد الاقتراب منهم ، وكانوا كثيراً ما يقتلون صاحب البيت في بيته إذا أبدى مقاومة ليدافع فيها عن نفسه كان ذلك في عهد السلطنة العثمانية ، وما أعقبها في بلاد سوريا ولبنان من حكم الانتداب الفرنسي ، يسكن هذه المناطق عشائر يطلق عليها اسم (الغياث) كما يسكن المنطقة من الناحية الغربية من نفس المنطقة كما يؤكده السائق أيضاً قبيلة الغياث وقبيلة أخرى اسمها (المساعيد) وينحدر الغياث أصلاً من قبائل عربية أخرى مختلفة الأصول ، والرابطة بينهم هي الموطن والعادات ، والتقاليد .

ويعتز الغياثي بابن قومه ضمن إطار قومي ضيِّق ، وأخذنا نترقب موقعنا في هذا المكان ، وأخذ الحيطة من المتاهة به لاسيما ونحن قبيل غروب الشمس ، وتوشك الشمس فيه إلى المغيب ، فنضطر بهذه الحالة أن نقضي ليلتنا في برٍّ موحش وعر ، ولكن السائق شاهد على بعد أشباحاً ، لا نستطيع تمييزها أهي حجارة أم بشراً .

وانطلقت بنا السيارة في مكان أخذ يسهُل قليلاً ، ثم ينقطع لندخل في طريق معوَّج مرصوف بحجارة ، حيث أن هناك مجرى مائياً ينساب في فصل الشتاء تحت هذا الرصيف ونقترب قليلاً من الأشباح ، ونتأكد أنها تمثل ولدان صغيران ونقترب منهما ، ثم نسألهما عن مكان (الرحبة) فنستدل بواسطتهما إلى الطريق المؤدِّي إلى الرحبة ، فهو نفس الطريق الذي نسير عليه الآن . ونجتاز اثنان من الكيلو مترات كنَّا نسرع فيها لنصل إلى نهاية الطريق الوعرة .

ودخلنا في مكان منخفض مؤلف من أراضٍ طينيَّةٍ مشقَّقة يخيل إليك أن

شقّاً واحداً يكفي لأن يعرقل سير عجلة كاملة من سيارتنا فيما لو وقع فيه ، وتمّنينا لو أن هذه الأرض بطريقها بقيت استمراراً طبيعياً للوعورة التي مررنا بها قبل قليل ، وأصبحنا الآن نشاهد بيوت الشعر التي تضرب أطنابها في هذا المكان ، واستاء التاجر كثيراً من سفرنا هذا وأخذ يقسم بأن لا يعود إليه بعد هذه المرّة ، ومدخلنا الأخير هذا ، لهذه الأرض دون طريق واضح ، ويقول السائق بأن منطقة الرحبة هذه يرويها مئة شعيب وشعيب ، وأظن أنها تروى بشعاب كثيرة ، غير أن في كلامه بعض المبالغة أو ما يدرج على ألسنة العامّة حين يبالغون في الكثرة .

وتختلف طبيعية الأرض الطينية لهذا الموقع عن أيِّ مكان آخر إلا قليلاً ، فباعتقادي أنها تحتاج إلى ريٍّ مستمر لتلتئم فيها الشقوق ، وسببها عدم وفرة المياه فهم يعتمدون بالري على الأمطار فقط ونسبة تساقط الأمطار في هذا المكان لا تعدو ثمانية بوصات فقط . إلا أن الشعاب التي تروي هذا السهل أمر آخر .

يزرع أهل هذا المكان قمحاً وشعيراً ، غير أن نجاح الزراعة فيها جزئياً باستمرار لأن عامل التشقُّق نتيجة لقلَّة المياه كما ذكرنا آنفاً ، سبباً رئيسياً في قطع جذور النباتات ويتسبب ذلك في تغلغل أشعَّة الشمس التي تميت هذه الجذور ، وبطبيعة الحال تقضي على النباتات أيّاً كان نوعها .

المهنة السائدة في هذا المكان هي مهنة الرَّعي ، ويشير السائق إلى مبلغ ارتباط الغيات بهذا المكان بحيث يفضّلونه على أيِّ مكان آخر ، رغم أنه قليل الأعشاب و(الرشاد) هو النبات الوحيد الذي يكثر في هذا المكان ، واقتربنا من بيوت الشعر بعد أن أعيتنا الحيلة في السير بطريق منتظمة إذ أننا أخذنا نفضّل سير سيارتنا في شعاب ضيِّقة لأن الرطامات(*) التي تترسب في هذه الشِّعاب تجعل من

(*)رَطَمهُ : أوحله في أمرٍ لا يخرج منه فارتطم ، وارتطم عليه الأمر: لم يقدر على الخروج منه ، والشيء: ازدحم وتراكم .

المجاري أرضاً طريَّةً تخفُّ وطأتها علينا إذا ما انحزنا عنها جانباً آخر ، ولكنها تلزمنا في أن نسير دوماً ضمن نطاقها الضَّيِّق جداً ، ووقفنا عند أول بيت من الشعر ، واستقبلنا صاحب البيت قبل أن نقف ، و لم تمض برهة حتى تجمَّع حولنا الرجال من كل حدبٍ وصوب .

تبدو على ملامحهم صفات الحزم والنشاط ، ولكنني أتوقع بأنهم لا يخلون من سذاجة ، ولا أرجع ذلك لصفات بيولوجية أو جغرافية ، أو تركيب يعود للجنس ، ولكن بعدهم عن حضارة المدن ، وانعزالهم في هذا المكان النائي ، وحرصهم على عدم الارتباط بأيٍّ جديد ، هو من الأسباب التي أساءت فهمي بهم ، وطلب منَّا صاحب البيت أن ننزل ضيوفاً في بيته ، ليقوم بواجب الضيافة ، موقع البيت في أحد الشِّعاب ، وبعد نزولنا وأخذ قسط من الرَّاحة ، تساءلت معه لماذا لا ينقل مكان هذا البيت إلى مكان مرتفع ، لأن وجود احتمال نزول مطر شديد سيجرف البيت بمتاعه ، وقد أجابني بأن الأراضي غير الشِّعاب قاسية ، جافة ولا تصلح للجلوس وتكثر بها الثعابين ، وأدخل في نفسي الريبة وما لم أكن لأتوقعه ، ولكنني التزمت الصمت وتمالكت أعصابي ، ووجدت أنِّي المحقّ بنفسي لارتضائي الركوب مع صاحبي التاجر ، وكان بمقدوري أن أسافر عن طريق الإجفور لأدخل الحدود السورية عن طريق ثغرة درعا ولو أن الطريق يكون طويلاً .

أساليب الضيافة لديهم تبدأ في صنع القهوة العربية ، تحمَّس القهوة بمحماس حديدي خاص وتقلَّب بطريقة تلفت النظر ، بطريقة مغايرة عما لدينا في المملكة ، فالذي يتولَّى حمسها تأخذ منه وقتاً طويلاً حتى تسودّ إلى الدرجة التي تشك بأنها ربما أصبحت فحماً ، وعندما تنضج على هذه الوتيرة توضع بقطعة خشبية محفورة بطريقة مهيأة لمثل هذا الوضع يطلقون عليها اسم (مبرادة) ثم تسحق في أداة مصنوعة من الخشب الجيد تعرف باسم (نجر) مكيِّفة

تكون سهلة الاستعمال وبمنظر رائع تزينه بعض النقوش البديعة في جوانب هذه الأداة وكذلك اليد التي تأتي على شكل إسطواني طويل محدَّد ، فيه مقبض خاص لليد وأخذ صاحبنا يضع القهوة ، وأمسك باليد وأدخلها ليقوم بعملية السَّحق لتنعيم القهوة والتي تتوقف على ضرب يد النجر ، وهم يجيدون الدقَّ عليه ، إذ يتخلَّل عمليتهم هذه صوت رائع يتلاعب مع الذوق الرفيع ، ويخيَّل لك سماع صوت طبل صغير أو دربكة في إيقاع موسيقي متقن وانتهى من عمليته وشربنا القهوة .

غير أن العادة لديهم تختلف عن عاداتنا في الجزيرة بمثل هذا الضَّرب ، بالنسبة لسياق القهوة بفنجان واحد كبير الحجم ، لا يلذ لك مشربه ، على أن يكون نصيب الواحد فنجاناً واحداً يستثنيك فيه للمرة الأولى ، ليسكب به إلى آخر ، والقهوة ثقيلة جداً بحيث لا تستطيع شرب أكثر من ثلاثة فناجين ، ثم يعود مرَّةً أخرى ليتمَّ حاجتك من القهوة ، واقترب موعد العشاء على أن نجد أحداً يصلِّي فلم نجد إطلاقاً ، فقمت وأديت الصلاة قصراً وجمعاً . وبنهاية الصلاة كان كل شيء قد جهِّز ، فقد أحضر صاحب البيت عشاءً عاديَّاً كان مؤلفاً من الخبز المعمول بصفائح كبيرة موضوعة بوعاء قماشي يسمونه (الثفال)(١٥) وصحن من اللبن المخثَّر (خاثر) وزبدة ، ولبن حامض بدون دسم مع دبس عنب سائل وحلو جداً ، وأخذ يرحب بنا كضيوف له ، متوعداً إعطائنا حقنا من الإكرام في صبيحة اليوم التالي .

وعدنا إلى أماكننا بعد الانتهاء من العشاء ، لنواصل السَّمر في ليلة مقمرة ليلة العاشر من شهر ذي الحجة لعام ١٣٨٤ ، وكانت ليلة قصيرة ، وبطل الحديث فيها سائقنا الذي كان يزيد من الثرثرة ويروي أساطير لا يتقبلها العقل ولا المنطق ، وكنا نتعارض معه في أساطيره الخرافية هذه ، غير أننا نجد إجماعاً

---

(١٥) الثفال : الجلد الذي يبسط تحت رحى اليد ليقي الطحين من التراب ، أو ليسقط عليه الدقيق .

تاماً من مجموعة الرجال من هذه القبيلة على تقبُّل مثل هذه الأساطير ، والتي لا تصلح روايتها حتى للأطفال ممَّن هم في سن السابعة ، وتستمع إليه هذه الجماعة مشدودة بصوته الجهوري وكأنما أحداثاً تسرد وقائعها حقَّة ، لأنها لا تدرك معنى الخرافة من الخيال في مثل هذه الروايات المختلقة ، والتي يصنِّفها أحياناً من بنات أفكاره .

ويجيبنا أحد هذه المجموعة بقوله : هذه هي أحاديث الرجال ، فيضحك التاجر الذي يشترك معي في وسادة واحدة ملء شدقيه ، ويهمس بأذني إن هؤلاء الرجال على جانب كبير من البساطة والفطرة ، وقد شاركنا السائق في الحديث وبدأنا في قصة واقعية شارك فيها التاجر تلذّ للذوق السليم ، ولكن إنصاتهم إليها كان من قبيل المجاملة ولما لم أر بُدّاً ، أقنعت التاجر بالتوقف عن نشاطه لأن في تركه مثل حديثه أمراً مستحباً إليهم ، والتزم الصمت دون أن ينبس ببنت شفة لنستمع إلى بطل الروايات الخرافية ، الذي شغفت أساطيره أطراف عقولهم ، وقد أصبح بطل مسرحيِّة هذه الليلة لهم بالإجماع ، واستمر يروي قصصاً مطولة تمتزج بها الخرافة والخيال وهم يتقبلون بأحاسيسهم ومشاعرهم كل ما يقول ، وانتهى سمر هذه الليلة بعد وقت طويل وجاء النوم لصباح عيد الأضحى المبارك .

وصاحب البيت لا يمتلك من الفراش والغطاء سوى ما يكفي حاجة عائلته ، وكان علينا أن نتلمس أنفسنا ، ونعتمد عليها اعتماداً كليَّاً بنوم هذه الليلة ، وعرفت أخيراً أن قيمة هامة يجب أن أضعها نصب عيني لفروتي وتناولتها من السيَّارة ، ثم افترشت بساطاً كان حاجزاً دوني ودون الأرض ، وتغطَّيت بالفروة ، ونمنا ليلة هادئة لا يقلقنا فيها سوى دندنة[١٦] الأجراس التي تقلّها رقاب الكباش في

(١٦) دندنة : إذا اختلف صوت في مكان واحد مجيئاً وذهاباً والدندنة : الصوت الذي لايفهم ، وقال الأصمعي : يحتمل أن يكون من الصوت ومن الدوران .

غنم صاحبنا ، تربط هذه الأجراس بحبل حول عنق الكبش ويتَّخذون أحياناً من كبش معيَّن يربُّونه خروفاً حتى يكبر ومن ضروب الدلال يولى هذا الكبش عناية خاصة ، فيشارك الراعي أحياناً بخبزه وبذلك يصبح أليفاً ، ومن ثم فأينما توجه الراعي أو تخلَّف اقترن مسير هذا الكبش بمسير راعيه ، ولا تسمع غير دندنة جرسه ، ويسمون هذا (المرياع) ومصدر قلقنا لا يرتبط بوقت معين ، فالكباش تقوم من مرابضها لتتمرس بحبال البيت تحكّ قرونها بين وقت وآخر . غير أن التَّعب سبباً رئيسياً مباشراً يحدونا إلى النوم دون شعور بالقلق ، وفي الصَّباح الباكر استيقظنا جميعاً على إيقاع دق القهوة في النجر ، وكنَّا ننتظر من صاحبنا تقديم وجبة الإفطار التي فات وقتها ، وما علينا إلا أن نصطبر ، فإن وعداً قد قطعه ليلة البارحة لإعطائنا حقنا من الإكرام والتي تمثلت في ضحى اليوم التالي بذبيحة متوسطة لتكون وفاءاً لحق يوم العيد وجميلاً بضيوفه ، ولكنه كان يثني على حقنا عليه وإن ذلك قصوراً منه ، وهو الحقيقة ليس قصوراً بل طيب منه .

وتجمَّع نفر غير قليل حول تاجري الذي أخذ يستمع بأذن صاغية عن حديث الخراف ومع إغراءات الآخرين الذين كانوا يدفعونه لشراء هذه السلعة ، غير أنه على جانب كبير من الحذر ، فإن تاجري يحرص تمام الحرص على ألا يغرر به أحد ، ويقتنص تجارته بطريقة إماتة الروح المعنوية للبائع ، بالسّوم على أساس تافه مما يضطر البائع إلى إسقاط أمله في هذا التّاجر ، وينتهي بشرائه لعشرين خروفاً كجزء بسيط من مخطَّط تجارته والسَّبب في ذلك عدم وجود خراف كما امتدح له من قبل بهذه المنطقة .

ولقد بلغ من أنانيَّة تاجري هذا رفض صفقة تجارية من الخراف ، استقدمها مضيفنا من الأغنام التي تسرح في البرِّيَّة ، وتقترن أنانيَّته بأنه لو بدأ في شراء

هذه الخراف لنجحت خطته في الشراء ، ولقد ألحَّ عليه السائق بالشِّراء ، وأدّيت دوري في مساندة السائق دون صدى من هذا التاجر الأنانيّ .

هذا اليوم يوم عيد الأضحى المبارك لعام ١٣٨٤ غير أنتي لا أجد اهتماماً في الاحتفالات بهذه المناسبة ، وطلب تاجري الدوماني من المجموعة أن يهدوه على رجل يمتلك أغناماً تكثر بها الخراف من النوع الكبير ، وأشار أحدهم إلى عمرو من الناس ، وبعد أن أكلنا الذَّبيحة من مضيفنا الأول ، ركبنا السيَّارة مودّعين منه دون أن يبدي أيّ غرابة أو استنكار من التَّاجر ، رغم ما أبداه الأخير من جفوة ، وعدم عرفان بالجميل وأنانيَّة ، فالغياثي مضيفنا كان أطيب خلقاً ، وأصفى نفساً من صاحبي التَّاجر ، وسرنا إلى البيت الذي أشير إلينا بوصوله ، بعد أن لقينا من سفرنا هذا نصباً شديداً ، فالشُّقوق الأرضيَّة التي كُنَّا نجتازها كفيلة بتفكيك أوصالنا ، ووصلنا وفوجئنا بصاحب البيت يسألنا عن شكّه في العيد وهل هذا اليوم عرفة ، فقد كان يحسب التكبير للصلاة في العيد من إذاعة دمشق يوم عرفة ، وتعجَّب أحد المجموعة من أمره والذي كان يميِّز الأنباء أكثر من فهم صاحب هذا البيت لها ، كان يشك في ذلك رغم أنه قد ضحَّى هذا اليوم ولكن هذا الخليط من الشَّكِّ سببُه التَّكبير في الإذاعة السوريَّة .. ويمضي علينا وقت قصير ليقدم لنا طعام الغداء ، والذي كان يتمثَّل في أضحية العيد .

وكان علينا أن نتمسَّك بعاداتهم ، فيجلس المتقدِّم للطعام ، وينتظر ريثما يشبع الآخرون ، إذ أنه لم يمض علينا سوى ساعة ونصف من إفطارنا عند صاحبنا الأول ، والعادة لديهم حين يقوم أحد الجالسين تقوم المجموعة كلّها على أثره ، وهذه عادة سيِّئة من عادات أهل الشمال دون علمهم ، رغم أنهم متَّفقون عليها بالإجماع ، ومن مساوئها احتمال وجود شخص بلغ به الجوع منتهاه ، يضطرُّ مرغماً انقياداً للعادة القيام من الطعام وهو جوعان انسياقاً لفرار المجموعة من

الوليمة ، لغسيل أيديهم على أثر انفضاض أحد الجلوس على الوليمة ، ويحدث كثيراً قيام فسقة من الطعام قبل الموعد الذي يأخذ فيه الإنسان منتهاه من الشبع .

وتكثر الحسان من النور (الغجر) بهذا المكان ، الذين يطلبون قوتهم في هذا الموسم باحتراف حلقات من الفن تقوم على رقص شعبي ، تؤديه الحسان من النور ، فتجلب أنظار الآخرين ممن يغتويهم مثل هذه المشاهد فيتبرعون نقوداً أو خروفاً لمن يمتلك غنماً كما يقول السائق ، ويرون ذلك لاعتبارات تقليدية جرت عليها العادة في هذه الأماكن .

وودَّعنا صاحب البيت الذي نلمح من حياته تحسناً اقتصادياً ملموساً ، فهو يملك ثروة حيوانية لا بأس بها ، كما في أثر ذلك ، ويقف مقابل البيت جرَّار زراعي ، وسرنا في الطريق الذي كنَّا نصفه قبل قليل ، لنصل إلى نهاية الشقاء بتمسكنا به ، وبعد انقضاء ساعتين كاملتين نصل إلى الدرب الوعر ، والذي يهون علينا كثيراً إذا ما نقيسه في الأرض المتشقِّقة .

ومشينا الهوينى لا على أقدامنا فلأقدامنا سرعات تفوق سرعات سيارتنا (أول ، ثاني ، ثالث) وأقصد القير لأن سيرنا في الأول ، قد يضطر السائق أحياناً إلى إيقاف حركة المحرك العادية في الوقوف ، لأنه سريعاً ، فقد نجتاز كتلة صخرية تضطرنا إلى أن نقف ، وقد يتكرر كثيراً مثل هذا المشهد ونحن الآن نحسب لمثل هذه التوقفات حساباً ، ونتمنَّى لو أننا نجتازها في سرعة ولو عشرين كيلو متراً في الساعة أو خمسة عشر ، ونكظم غيظنا من عراقيل هذه الطريق ، ويمضي بنا الإياب لنعود نجتاز مثل ما آتيناه في عصير ومغرب الأمس . ثم نأخذ حوالي ساعتين لتنبسط الأرض في هذا المكان ويزيد السائق من السرعة قاصدين الطريق الموصل بنا إلى طريق أبو الشامات والذي تفرَّع بنا في الأمس إلى هذا المكان ، ونتجه الآن نحو الشمال الشرقي .



الفصل الخامس :

(ما كتب عن سكان الرَّحبة)

موقع هذه القبيلة الجغرافي هو السبب المباشر في سلوكهم هذا ، إذ لا شك أن لجغرافية أي منطقة على سلوك سكانها ، ما يميِّز منطقة عن أخرى في تصرف أو سلوك معين كما نراه في هذه القبيلة بهذه المنطقة والتي تقع في أقصى الجنوب الشرقي من قضاء دوما على بعد ٧٠ كيلو متراً عن دمشق .

هذه القبيلة وجدت من جنوب حرَّة بركانية تدعى (الصَّفا) شديدة الوحشة والجدب سهلاً باسم (الرحبة) وافر الخصب والعشب ، يسكنه (عرب الصَّفا) وهم الأعراب الذين يدعون الغياث ، ويقال أن أصولهم تنحدر من أكثر من قبيلة ، فمنهم من يرى أنهم انفصلوا قبل قرنين من قبيلة شمّر ، وآخرون يرون أنهم من عشيرة اسمها (العمور) وإقامتهم بهذا السهل كونهم قليلوا الضَّعن ، تحتجزهم الحرّة ، وأقصى ارتحالهم ، يقيِّظون في المنحدرات الشَّرقية من جبل الدروز الشمالي ، ويشتُّون في سهل الرحبة ، لغرض زراعة هذا السهل الخصب والذي يخصب لانصباب عدة أودية تسقيه ، وهو سهل منقطع النَّظير في زكاء تربته .

الأودية التي تروي هذا السهل أودية جبل الدروز ، والغياث على ما وصفهم أوبنهايم يختلفون عن بقية البدو بجهومة وجوههم ، وبصيص عيونهم ، ونحولة أبدانهم ، ورفع أعناقهم ، ورثاثة ملابسهم ، وعرى رؤوسهم، وتشعُّث

شعورهم ، وهم فتَّاكون سلاَّبون من الطِّراز الأول .

وعشيرة الغيَّاث كغيرها لا يعرف من تاريخها سوى ما تلوكه ألسنه البدو ويقصِّونه ، وخلاصته أن هؤلاء منذ قدومهم اعتصموا بحرَّة الصفا وبحرة الراجل التي في جنوبها ، وهم أمنع ملجأ وأعسر ملاذاً ، إذا ما تغلغلوا فيها فتعجز كل قوة عن اللحاق بهم والعثور عليهم . وتاريخ هذه العشيرة سلسلة متصلة الحلقات من الفتكات والغارات التي كانت تبقى دون عقاب وكانت شرورهم وفظائعهم في الماضي تصل إلى قرى الغوطة وجبل قلمون وجبل الدروز ، وإلى القوافل السائرة بين دمشق وتدمر والعراق وحتى إلى العشائر المجاورة دون أن يستثنوا عنزة ذات الطُّول والحول .

وقد كانوا في الماضي يعيشون في الصفا مستقلين كل الاستقلال ، ولم يحاول التّرك في عهودهم الأولى اقتحام الصفا والضرب على أيديهم ، ولا فكروا في بناء مخفر وإقامة درك بين ظهرانيهم كما عمله الرومان في القصر الأبيض المبني وسط سهل الرَّحبة .

فالترك لم يبعدوا في حراسة البادية عن الضمير ، إلى أن انتبهوا لهذا الأمر في القرن الماضي فجاءوا في حدود سنة ١٢٧٧/هـ ١٨٦٠/م إلى الشيخ عياش النعير رئيس فرقة النجاد من العمور (عمور الديرة) وقد كان له في هذه الأنحاء النائية حرمة واسعة ــ وكلفوه أن يجهِّز سريَّة متطوعة من الفرسان ويتعهد بحفظ الأمن وبرد عبث الغياث عن حدود الصفا ، فأقام هذا الشيخ في الخان المسمى باسمه (خان عياش) وهو شمالي قرية عذرة على يمين طريق السيَّارات إلى حمص ، ووطَّد الأمن بنفوذه الشخصي لا بقوته القبلية ، وظل على ذلك إلى أن مات في سنة ١٣٠٨/هـ ١٨٩٠/م ولم تكلف الدولة أحداً غيره بتلك المهمة وأهملتها ، فاهتبل الغياث هذه الفترة وظلوا بعده سنيناً عديدة ينعمون بأبعد حدود السلب والنهب إلى أن جهزت الدولة في سنة ١٣٢٧/هـ ١٩٠٧/م حملة كبيرة بقيادة

اللواء التركي خسرو باشا الشركسي المشهور بمساعيه في توطيد أمن البادية ، وكان دليل الحملة أحد أبناء النعير ، فبلغت سهل الرحبة وفتكت بالغياث في حاوي الصفا فتكة قويَّة ، وصادرت ماشيتهم كلها ، وأخضعهم إخضاعاً تاماً .

وخلال الحرب العامة الماضية بدا للدولة أن توطد الأمن على النحو الذي سبق فكلفت الشيخ خلف بن عياش النعير الذي ورث في هذه الأنحاء ما كان لأبيه من النفوذ ، فجهَّز هذا الشَّيخ سريَّة على غرار أبيه ، ووطَّد الأمن توطيداً كاملاً ، وكان الأمن يستتب بنسبة نمو الأعطيات المخصصة للشيخ خلف ويقل كلماضئلت .

ولمَّا دخل الفرنسيون في سنة ١٣٤٠/هـ ١٩٢٠/م لم يكلفوا الشَّيخ خلف بتلك المهمَّة ففضَّ سريَّته وعاد الغياث لديدنهم ، فساق الفرنسيون عليهم قوة من الهجَّانة في سنة ١٣٤٢/هـ آذار سنة ١٩٢٤/م يعضدها مدفع جبلي وسيَّارات رشاشة ، وضربتهم على مقربة من جبل سيس وكبدتهم ، عشرين قتيلاً ، لكن هذه الضربة والضربتين اللتين أعقبتهما خلال ثورة سنة ١٣٤٣/هـ ١٩٢٥/م لم تؤثر ، وظلَّ الغياث يقطعون الطريق على السيارات العاملة بين دمشق وبغداد ، ونهبوا مرة بريد بغداد وفازوا بثلاثين ألف دينار ، وانضمَّ إليهم زرافات من النجاد ، والربيدات ، والبديرات ، الذين هم من فرق العمور ، وعقدوا اللواء للشيخ خلف العياش النعير ، ثم اشتركوا بالثورة السورية وصاروا يؤون العصابات الدرزية والدمشقية وفلول الثّوار الزاحفة من الجنوب أي من شرقي الأردن والأزرق إلى غوطة دمشق ، واستطالوا في هذه البرهة كثيراً ، وبلغت شرورهم جبل قلمون ونهبوا نحو ٥٠٠٠ رأس من ماشية النبك وجيرود وغيرهما ، كما نهبوا بيادر بعض قرى مرج شرقي دمشق ، وحاول الفرنسيون وقتئذٍ رد بائقهم ، فقام الرئيس كاربنتيه قائد سرية الهجَّانة يحرس قافلة سيارات بغداد ، لكنه أصيب في ١٢ أيلول ١٩٢٥/م في قلعة الساعي من يد أحد المساعيد

المنضمين إلى الغياث ، فشاد الفرنسيون له وسط شارع بغداد في دمشق قبة تحتها سبيل ماء وسجلوا عليها اسمه وتاريخ وفاته[١٧] ومن ثم صارت الطائرات تراوح الغياث القصف وقوى الهجَّانة تحاصرهم ، إلى أن عجزوا واستأمنوا ، وسلَّم الشَّيخ خلف العيَّاش نفسه علامة لهذا الاستئمان وانفصل عنهم الربيدات والبديرات ولجأوا إلى عشيرة ولد علي ، فظلَّ الغياث وحدهم مع النجاد والنعير وتعهَّد الشَّيخ خلف بتسليم عدد من البنادق والغنم ، وبالسَّماح لجند الفرنسي باحتلال الصفا لقاء العفو العام عنه وعن الغيَّاث وأعوانهم جميعاً ، وبعد أن وطَّد الجند الفرنسي أقدامه بين ظهرانيهم وأقام مخفراً في موقع (الزلف) أخلدوا إلى السكينة وثابوا ولم يعد يسمع عنهم حادثة ما .

أما فرق الغياث فهي الكلابنة لعائد الطالب الثويني والعتقة لعلي العشبان والروس والهديرة لحميدان الأقرع والحواشي لعطيوات الحواش ، ويذكر أن أول فرقة منهم احتلت وألفت العشيرة وقبضت على الرئاسة هي الكلابنة ، ثم انتقلت الرئاسة إلى بيت الحواش ، وكان أشهر شيوخهم محمد الأقرع من صناديد البادية وفرسانها المغاوير وكان مرهوب الجانب مسموع الكلمة في المؤتمرات والمجالس ، وقد أدَّى قتله في سنة ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م إلى ضعف الغيَّاث وتشتتهم ، وانفراد كل فرقة لنفسها بدون رئيس عام ، ويقال إن عطيوات الحواش أذكى الجميع وأقدرهم على الرئاسة لو وسَّد الأمر إليه كما يقال .

أمَّا منازل الغيَّاث في حرَّة الصفا الممتدة من صبب جبل الدروز الشمالي ، إلى الجويف من جهة ، وإلى دكوة في حدود شرقي الأردن من جهة أخرى ، وإذا جاءتهم أعوام ماطرة ينقلبون فَّلاحين يزرعون سهل الرحبة الأبطح

(١٧) محيت هذه الكتابة عقيب حوادث عدوان الفرنسيين في ٢٩ و٣٠ و٣١ أيار سنة ١٩٤٥م التي انتهت بإجلائهم وقطع دابرهم من بلاد الشام .

الخصب ، وهم في الصيف يصعدون إلى جبل الدروز ويقيّظون حول قرية طربة ، وفي الربيع يتّجهون شمالاً نحو ديرة التلول ويبلغون تل دكوة وجبل سيس ، ويستعجلون في التهام مراعي هذه الأنحاء قبل وصول عنزة ، من نجد وشرقي الأردن ، وفي آخر الربيع إذا كانت السَّنة ممطرة وبرك حرة الصفا مترعة بالماء ، يهبطون الرحبة ويقيظون فيها وهم وقتئذٍ يتقاسمون الماء قسمة صارمة ، ويعني أن رؤساءهم لا يستعملون ماء البرك إلا حينما تجف الغدران والخبرات بتاتاً ، فإذا جفّت هذه يتّجهون للبرك ويؤخرون منها بركة العلجا إلى آخر الموسم لأنها أحسنها ، وإذا كانت السنة ماحلة جافة يضطرون إلى التَّقَيُّظ في أعالي جبل الدروز في اتجاه قرية طربة ، حيث يجدون مراعٍ طيِّبة بين أوعارها وأحجارها ، وهم يبلغون جبل الدروز من ثلاثة أودية هابطة من الجبل هي وادي بركات وهو في الشمال على طرف القرائم ووادي غرار ثم وادي الشام ، والغِياث يسيرون زرافات متفرقة غير آبهين بأي عشيرة ، خاصة وهم أصدقاء الدروز لا يخشون بأس أحد .

أما في الشتاء والربيع والخريف فإقامتهم في الصفا دائماً ، إلا أنَّ مقامهم فيها مرتبط بوجود الماء والمرعى ، والقاعدة هي أنهم في آخر الصيف يهبطون من أعالي جبل الدروز وريثما تهطل الأمطار ينهلون من آبار منطقة النمارا والزلف ، وتسرح ماشيتهم في الحرَّة وقد تبلغ آنئذٍ شرقي الصفا (تل وتيد) ومتى هطل المطر الموسمي تتفرَّق العشيرة وتنتشر زرافات من بيتين إلى ثلاثة بيوت ويملأون أصباب الضرس والغراب في الصفا التي فيها مراعٍ طيِّبة للإبل .

والمناهل التي يردونها خلال نجعتهم هي في الخريف وادي الشام ووادي غرز ، وبير زلف ، وبير قصب ، وفي الشتاء مياه خبرات الضرس ، وفي الربيع والصيف خبرات الغدير (غدير حاوي عواد) غدير حاوي الصفا ، غدير نمارا ، غدير محمود شرقي تل وتيد غدير براغة في وادي الشّام ، غدير العجل في وادي الشّام ،

وهم بعد أن يقضوا على مياه الخبرات والغدران ينهلون من برك الرحبة التي تأخذ مياهها من وادي الشام[18] .

(١٨) عشائر الشام : للمهندس أحمد وصفي زكريا جزء ٢ طبعة ١٣٦٦/هـ ـ ١٩٤٧/م الصفحات مابعد ٤٢ .

الفصل السادس :

(الطريق إلى أبو الشامات[١٩] دمشق)

على وجه العموم جغرافية هذه المنطقة تسودها الصخور الغرانيتية ، وهي امتداد طبيعي للحرَّة التي تتصل بجبل الدروز ، والتي تكونت كما أسلفنا نتيجة لثورات بركانية واسعة حديثة السَّيلان البركاني ، وصل إلى هذه المنطقة ، ولكن كثافته كانت بسيطة وهذا مدعاة لحساسيته تحت تأثير عوامل الطبيعة التي جزأته إلى قطع صغيرة من الحجارة يظهر عليها تشقُّق الانفصال جليّاً .

وسرنا نتعثَّر بسيرنا في الطريق الذي سلكناه بالأمس حتى بلغنا منتهاه .

وتنبسط الأرض في هذا المكان ويزيد السائق في السرعة قاصدين الاتِّصال بطريق (أبو الشامات) وجهتنا الآن نحو الشمال الشرقي ، ويعترضنا بعد وقت طريق أبو الشامات وعلينا أن نجتاز مسافة خمسة وأربعين كيلو متراً لنصل إلى مركز (أبو الشامات) ونصل مقتربين للمركز بعلامة محاذاتنا لطريق معبَّد يصل دمشق ببغداد عن طريق الصحراء ، تنوي كل من الحكومتين السورية والعراقية تعبيده بالإسفلت لأنه غير صالح للمرور حالياً ، وندخل المركز والساعة تشير إلى الثالثة وخمسة وأربعين دقيقة من يوم عيد الأضحى لعام ١٣٨٤/هـ .

وهنا علينا أن نعرض جوازات سفرنا إلى الموظفين المناوبين للسلطات السورية

---

(١٩) أبو الشامات : موقع يعرف بهذا الاسم ، وأقيم عليه مركزاً للجمارك السوريّة . أبو : بقيت مرفوعة بالواو على الحكاية وإن سبقت بحرف الجر .

في هذا المكان للحصول على تأشيرة دخول أمنح فيها إقامة مؤقتة لخمسة عشر يوماً وذلك بمناسبة حلول العيد وتعطيل الدوائرر الرسمية ، ولقد قدر لي السفر أكثر من مرة إلى سوريا أنال بموجبها عند دخولي الحدود تأشيرة لمدة ثمان وأربعين ساعة فقط ، على أن أراجع دوائر الأمن العام للحصول على إقامة ، وانتهت إجراءات التأشيرة بعيد جلوسنا في قهوة (أبو الشامات) ، وألاحظ أن الأسعار في هذه القهوة باهظة جداً ، فكأس الشاي الكبير يتقاضى عنه صاحب القهوة مبلغ ليرة سورية .

ودهشت من الغلاء وبدأت أفكر عما إذا كانت الأسعار على هذا النحو في سوريا لما لم أكن أعهده في آخر سفرة لي قبل سنتين .

ولكن التجربة تبدي لي برهاناً أنَّ صاحب القهوة من القلائل الذين يستغلُّون وجودهم على الحدود مما يهيِّىء له استغلال الناس ، فهو ممن يرغمون المسافر في هذه الحالة أو المحتاج إلى الانقياد ، ويجبرونه على شرب الشَّاهي بليرة واحدة للكأس إذ قد لا يتوفر له ما هو أقل أو أنسب ، مع بقية الزيادة التي تتبع باقي الأسعار للسلع الاستهلاكية الأخرى والتي يضمُّها دكان المقهى ما عدا الدخان السوري الذي لا يمكن التلاعب بأسعاره .

وتأهبنا لمواصلة سيرنا من (أبو الشامات) إلى دمشق ، وخرجنا من القهوة لنبحث عن السيارة فلم نجدها ، وذكر لنا السائق بأنَّـه سلَّمهـا لموظـف في الجوازات يعزُّ عليه بعد أن ألححنا عليه في المسير ، وفوجئنا بموظف الجوازات ينطلق إلينا بسرعة جنونية فالرجل حديث العهد في السواقة .

واختلف عليه التَّحكُّم في أجهزة ضبطها ، وحاول بيأس كبح جماحها عند آخر نقطة في المركز ، وانتحت طريقاً لتتوجَّه تدفعها السرعة إلى أحد جدران المركز وتحتك فيه بحادثة كانت أقرب للسلامة منها للخطر ، وبعد تريُّث لم يدم طويلاً ، استأنفنا سفرنا إلى دمشق والتي سنصلها بعد اجتياز مدينة الضمير

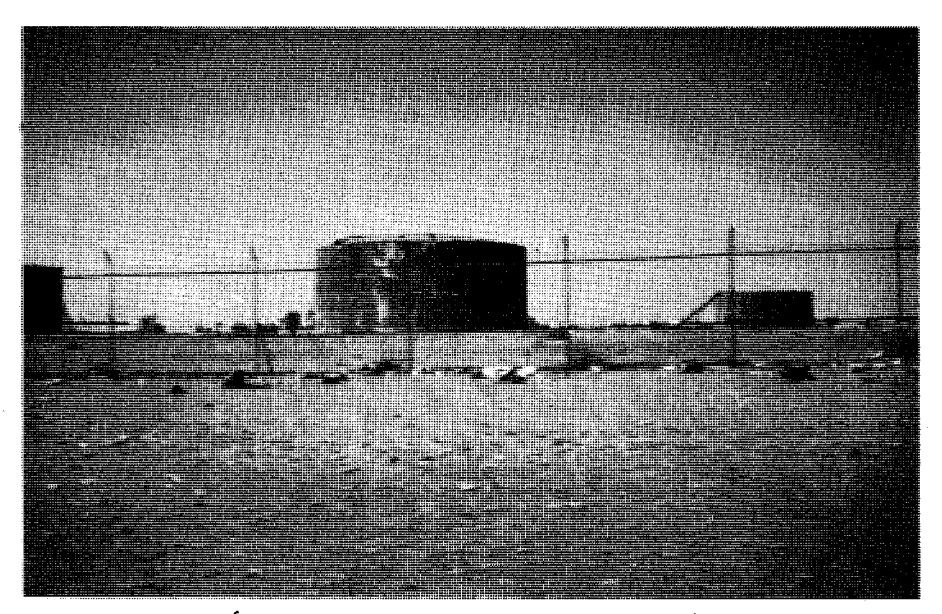


«المياه الوافرة في برقع تتلاطم على ضفة اليابسة

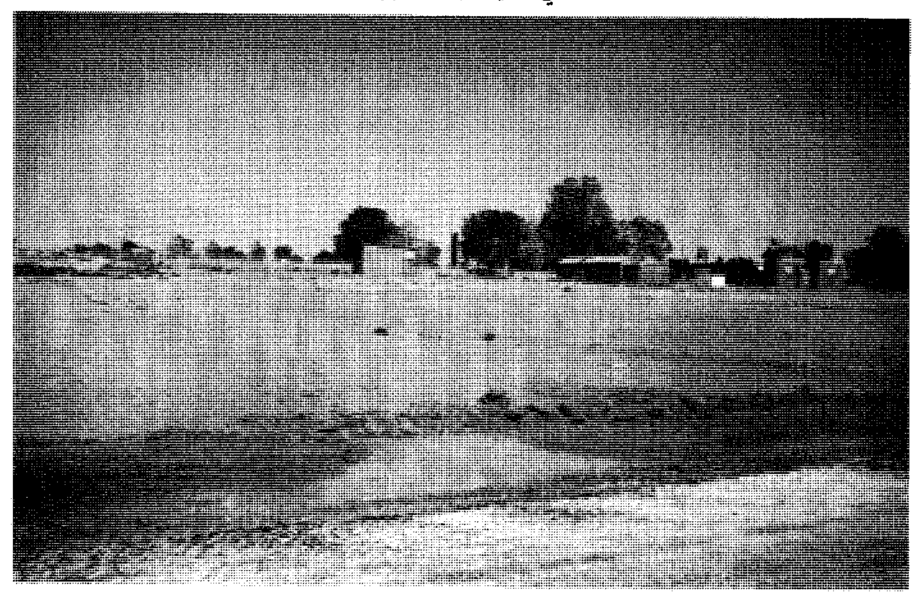


«يلاحظ أن برقع مصدر لري الأغنام للبادية هناك في الصيف»



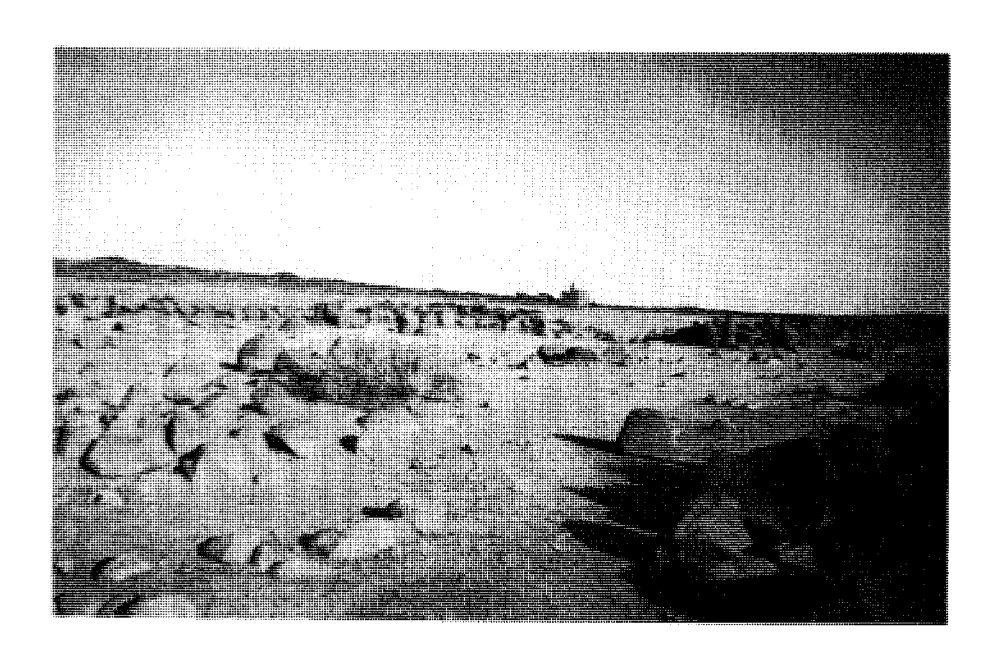


مستودعات للنفط من أثر شركة النقطة الرابعة بالإجفور والتي تبدأ بـ H 1 في بغداد وH 6 في حيفا بفلسطين .

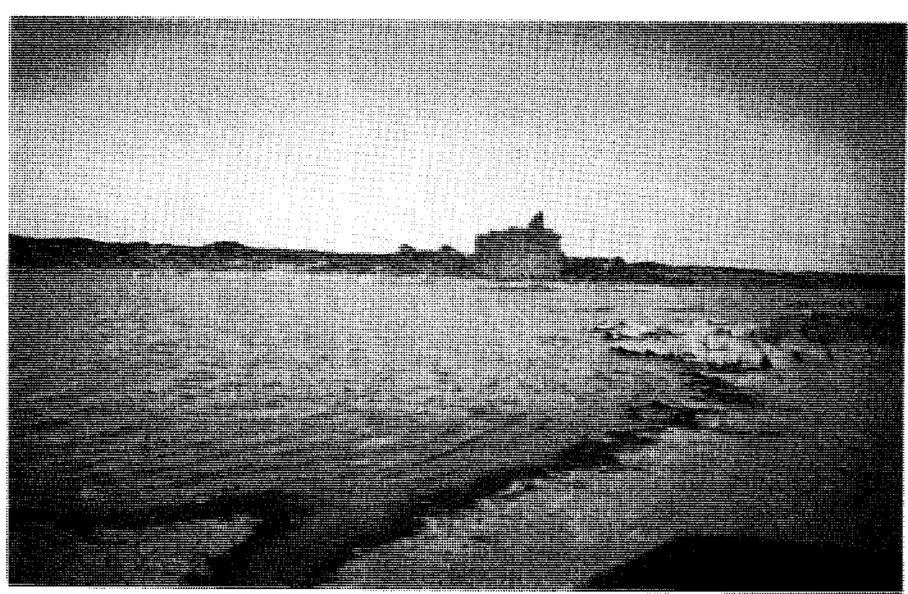


بعض مباني الحكومة في الإجفور





«حرات بازلتية في المنطقة غنية بالغرانيت»

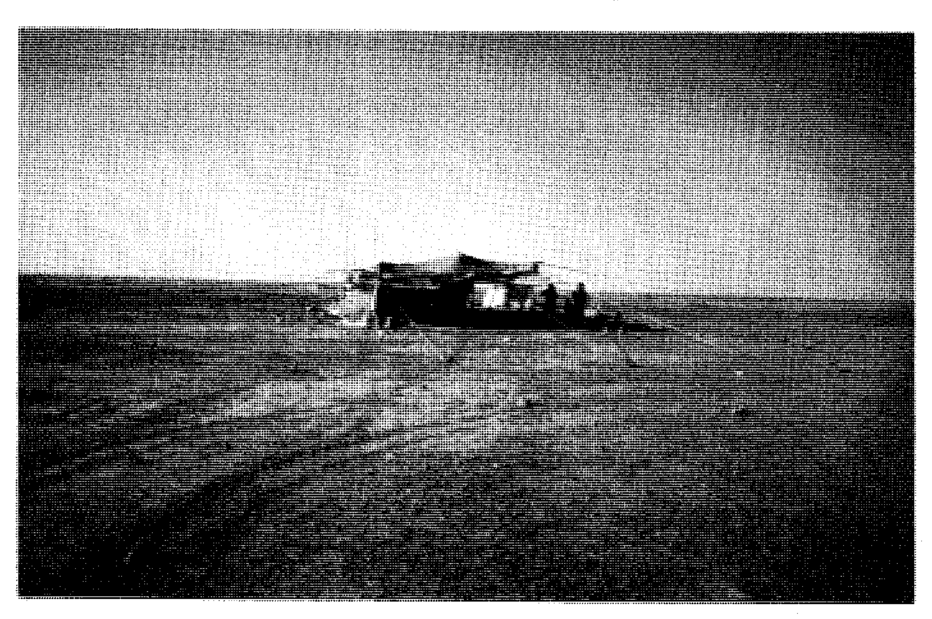


يلاحظ آثار قصر يطلقون عليه اسم «قصر الطنيانة» والطنيانة كما يتناقل عنها الرواة ، فتاة ، أعلمها واشي مغرض أن الغزاة عادوا وفقيدتهم عشيقها ، ولما علمت ذلك أشهدت على الواشي ، وألقت بنفسها من أعلى القصر وقبرها لا يزال موجوداً هناك ، وعندما علم عشيقها بالواشي قتله ولحق بها وسمي القصر «قصر الطنيانة» .

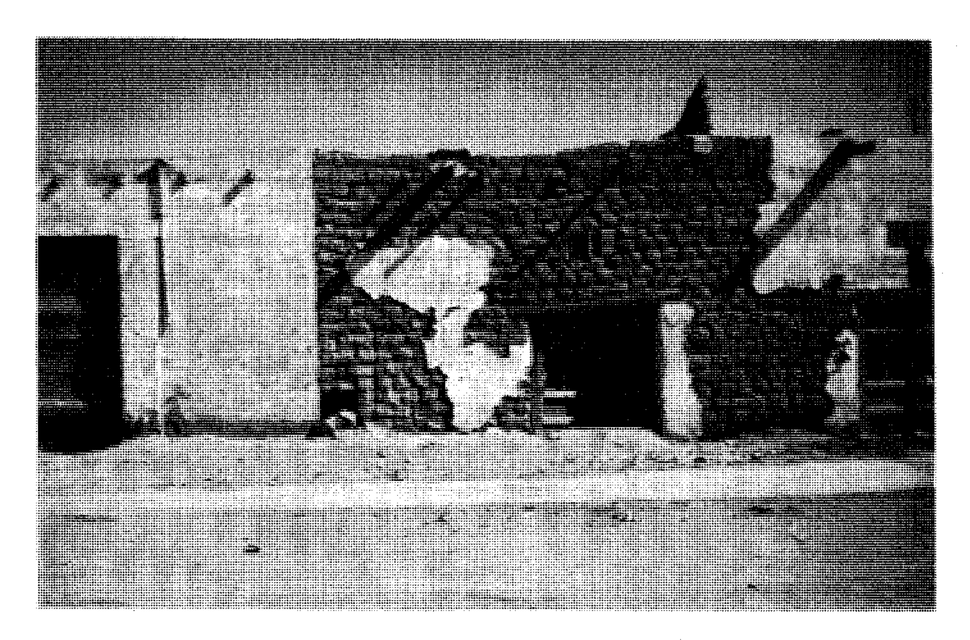




«بعض بيوت الشعر التي تضرب أطنابها حول برقع لري أغنامها وأُسرها»





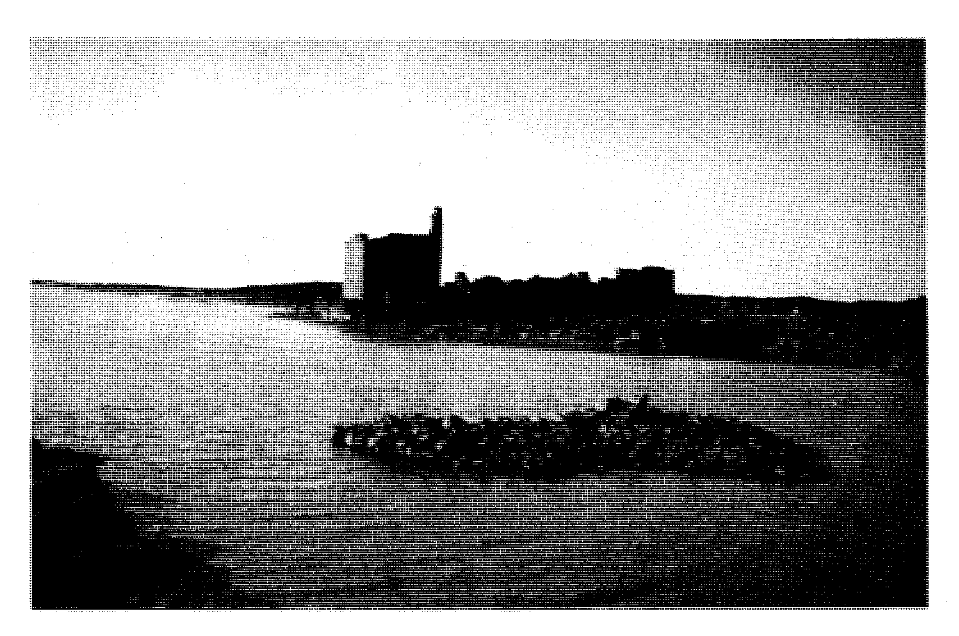


«بعض آثار متاجر مبنية من الطين وقد أتى عليها الزمن في H 4»

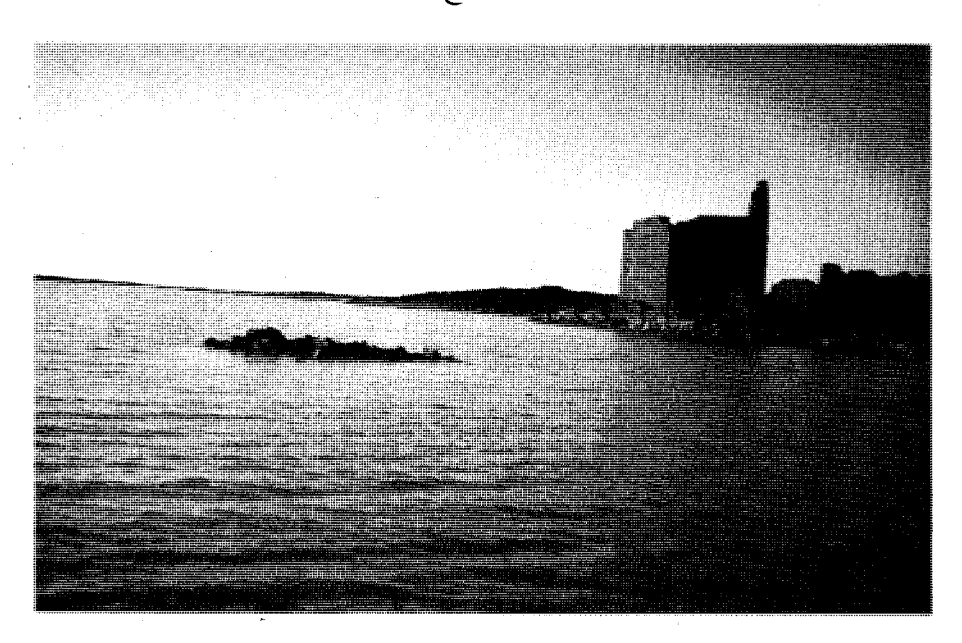


البادية ... ينقلون المياه وتسكب داخل براميل لري الأغنام

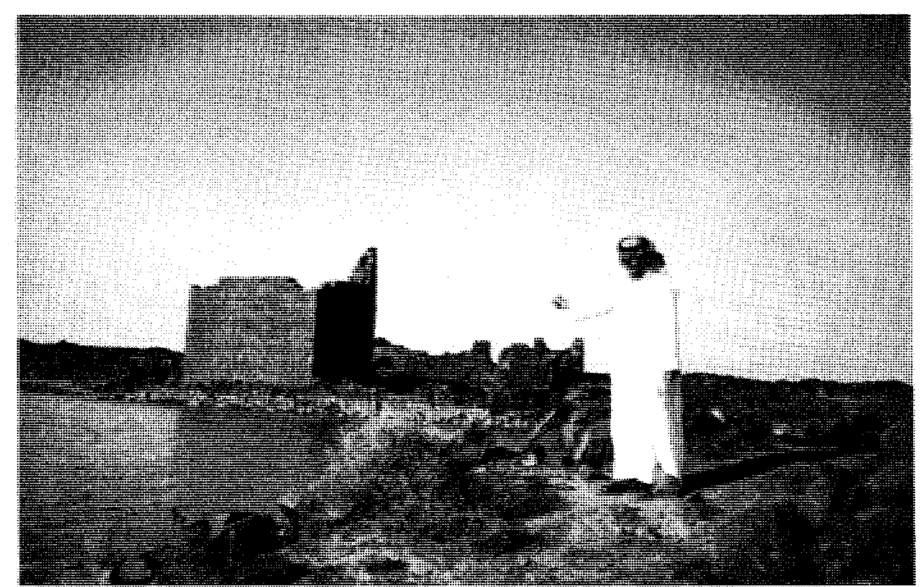




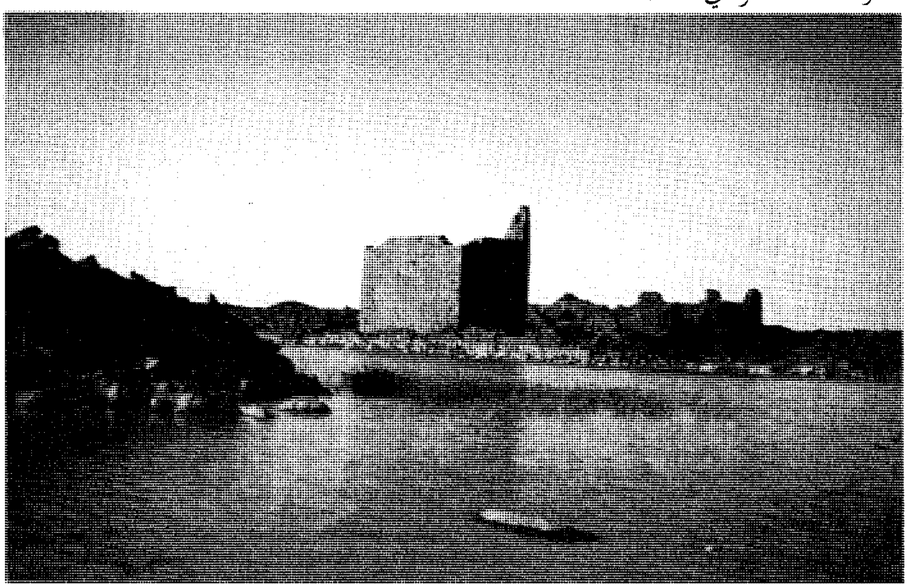
«قصر برقع»



«القصر من موقع قريب»

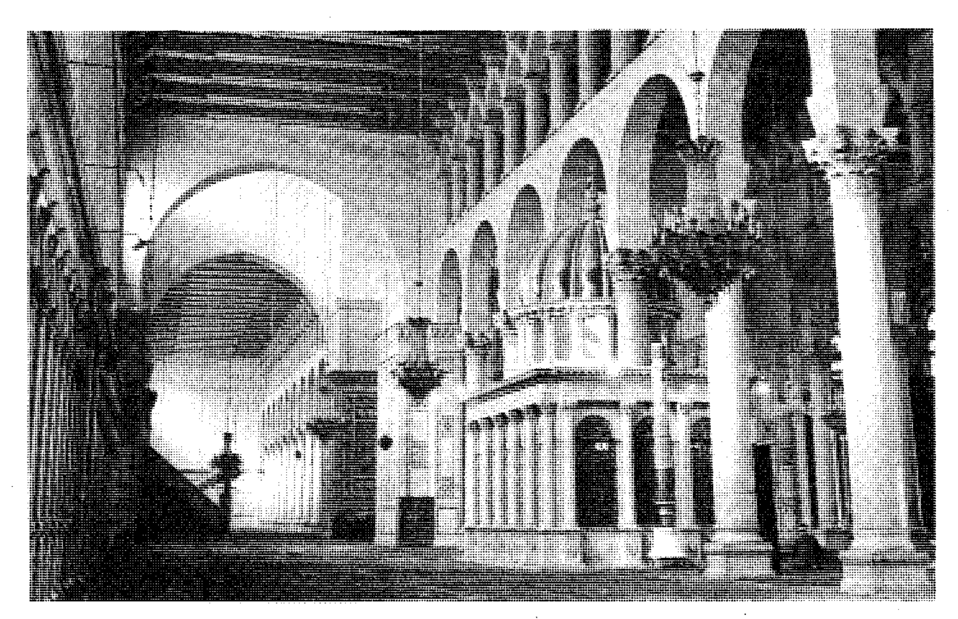


يحتمل أن قصر برقع ليس قديماً . ويحتمل أنه على عهد آل الدين زنكي .. ووضع بقصد الهيمنة على البادية كون برقع قديمة قبل نشاط شركة النقطة الرابعة التي ذكرناها في عرضنا عن برك برقع .. والنقطة الرابعة حين بدأت بالسد وجدت أن طبيعة الأرض ملائمة ، وكذلك وجود الآثار لهذا القصر في المنطقة .

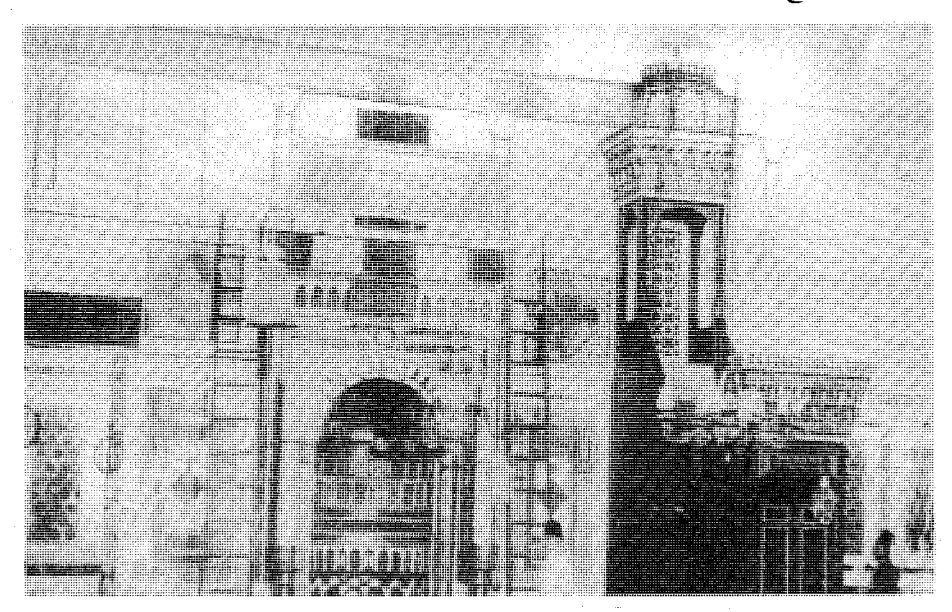


يلاحظ أن الزمن أتى على بعض المباني من الجهة الشرقية للقصر حيث يوجد بعض القناطر التي تستعمل في ذلك العصر





الجامع الأموي الكبير ـــ بدمشق بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان



حرم الجامع الأموي الكبير قبل حريق ١٨٩٣ والمنبر والمحراب



وقرية عذراء ، ومدينة دوما العامرة بالنشاط التجاري ، واستوقفتنا قوة سورية قبيل وصول مدينة الضمير من الجيش كانت تضع حاجزاً يحول دون مرور السَّيَّارات إلا بعد التَّثبُّت من شخصيَّات المسافرين ، وذلك بطلب جوازات سفرهم أو هوياتهم الشَّخصية بالنسبة للسوريين ، وطلب منَّا ذلك وامتثلنا للعريف الذي كان يبدو بشوش الوجه منطلق الأسارير ، بعكس ما كان يفعله آخر انطلق يتحدَّث مع زميل له .

في الواقع أن ضمير يمكننا أن نطلق عليها اسم قرية لا مدينة فهي من كبريات القرى السُّوريَّة ، التي شاهدتها على هذا الطريق وفي جزء من البلاد السُّوريَّة ، ويذكر لي السائق عبد بن شعلان أنَّها تحظى بعناية من الحكومة السورية ، ولوجود مراكز عدَّة تمثل وزارات الدولة ، يعيش أهل الضمير على الزراعة وذلك باستغلال مساحة من الأراضي يستخدمونها في زراعة الحبوب ، والمادة الغذائية الأساسية في سوريا تعتمد على القمح ، ومن ناحية الأزياء التقليدية ، فتغزو هذه البلدة تيَّارات التَّقليد التي تنجرف معها المدن ، إذ إنَّ ظاهرة الأزياء تنطلي بصبغة غربية (إفرنجية) والسفور بالنسبة للنساء سائد في هذه القرية ، التي يوجد في منطقتها إحاطة لآثار قديمة يرجع عهدها إلى القرن الثاني قبل الميلاد تقريباً ، فمن ظاهر الأنقاض ، تظهر لنا صورة قصر قديم يحتوي على غرف وبهو كبير قوامها حجارة صمَّاء ، لونها أبيض تزن الواحدة منها ما يقرب من الطن الكامل ، آتت على النقوش عوامل الطبيعة فبددتها ، ولا يمكن لباحث الآثار الحصول على معلومات يستدل بها عن تاريخ قيام هذه الحضارة ، مع اعتقاد في أنها آثار آرامية ، جاءت بعد حضارة الآشوريين في بابل ، ويمكن لنا أن نربط بينها وبين حضارة ما بين النهرين لوجود علاقات تجارية تعتمد على القوافل التي تنقل البضائع من صناعات قاشانية وخزف ، يجيد صنعه أولئك القوم في ذلك الوقت ، ويوجد أيضاً في هذه القرية مياه كبريتية ، يؤمها المرضى للاستشفاء ، غير أن

الوفادة عليها ضيِّقة لعدم تكييفها كما ينبغي وكما يروي السائق .

وانتهينا إلى آخر نقطة من القرية في الجهة الغربية ، لنصوِّر حياة أهل القرية قبل سنين وحياتها في الوقت الحاضر ، يتهافت النَّاس في كل مكان وبأي زمان على التَّجمُّع لتحسين أوضاعهم المادية اعتماداً منهم على ما تنتجه الأرض ، أو ما تجود به بيئتهم الطبيعية ، من ثروات أخرى ، ولتجدنّ الحفاظ على الانتاج مرهون بالصيانة للغلَّة ، وكيفية الحفاظ عليها من أن تتبدد ، يقوم المزارعون في هذه البلدة كما شهدنا ببناء جدر تختلف مسافات محيطاتها قياساً ، وبما يقتدر عليه المالك ، فصاحب المساحة الكبيرة يوسِّع من رقعة الأرض التي يسوِّرها ، ثم يغطِّي هذه الأسورة بمعجون من الطين ، فبناء الأسورة يعتمد على طوب الطين ، ويستغل هذه المساحة لضمان عدم تبدُّد حبوب سنابل القمح أو سائر الحبوب من الضياع ، فتحجزها هذه الأسورة ويسمُّونها الحواكير ويدرسونها فيما مضى بواسطة ألواح خشبية يجيد سكان سوريا صنعها (المهنيون في هذه الصناعة منهم) ينقشون حفراً صغيرة تربو على مئات في أسفل اللوح ثم يحشرون بها قطعاً صغيرة من الحجارة إذ لكل حفرة حجر صغير يحكمون تثبيتها وتكون نافرة بحيث تساعد على تفريط أغلفة الحبوب ، فتتناثر منها ويبقى القش (التبن) الذي يكتنزونه مؤنة للحيوانات في الشتاء ، درس هذه الحبوب يتم بواسطة جرّ تقوم به الخيول الهرمة (الكدش) والبغال ، ويركب الدارس الذي يتولى توجيه هذا الحيوان ضربة بالسوط ، مَقُوداً بحبل يثني منه بيده اليسرى أو اليمنى فيبقى الحيوان ملتزماً بجهة واحدة وهي الدوران حول البيدر ، حتى يتم درس الحبوب ، ثم يتولَّونها بمشاعيب خاصة تربو أصابعها على خمسة لتذريتها ، وبعد أن تذرَّى يبقى الحب منفرداً عن القش ، ثم يقومون أيضاً بالغربلة التي تصفِّي الحبوب من الأتربة ، وبعض بذور النباتات العالقة بها ، ثم توضع بأكياس خاصة بعد أن تكال على أساس أنها موازين معروفة وتعرف بـ (الصواع) يرجع إلى مقدراها

عند الحاجة .

هذا فيما مضى أمّا اليوم ، فيستعيضون عن الخيول بالجرارات الزراعية التي تسير بقوَّة المحركات الميكانيكية ، وقودها الديزل فتقوم مقام الخيول ، وأسرع منها بأضعاف لأن الجرار أثقل بأضعاف أيضاً من وزن لوح خشبي طوله متران بعرض متر واحد حتى ولو أن مادة الخشب المصنوع منها ، من الصفائح الخشبية الثقيلة يزكبه شخص لا يزيد وزنه على ٨٠ ثمانين كيلو غراماً فيصبح المجموع في حدود مائة وثلاثين كيلو غراماً يضاف إلى ذلك أن الناس أخذوا أيضاً في استعمال الطرق الحديثة بالحصَّادات التي تتولى فرط وتوزيع الغلة عن التبن أتوماتيكياً ، وتقوم أيضاً بتعبئتها بالنسبة للقمح المنفصل والتبن ، أما ما أخذه الناس في تحسين تقويم الأرض وتهيئتها استعداداً لمضاعفة المحصول الزراعي ما يتمثل في استعمال محراث حديث يجره جرار زراعي ، يوغل السكك في الأرض ، بما لا يتسنَّى للمحراث القديم الذي كان كثيراً ما يعتمد على البقر والخيل والإبل ، وأما عن تزويد الأرض بكميات كبيرة من الأسمدة يتمكن فيها الفلاح من استغلال الأرض أكثر من غلَّة في السنة ، أو هو يوالي استغلالها سنوياً بما لا يتعارض وجودة إنتاجها في كل سنة فهي قائمة الآن ، أما في الماضي فكانوا يتركون قسماً من الأرض ويزرعون القسم الآخر حتى إذا ما دار حولها أو حولين قام الفلاح بحراثتها وزراعتها .

ويمكننا اعتبار أن هذه المنطقة تتبع منطقة السهول شبه الصحراوية وتتأثر إلى حد كبير جداً بمناخ سلاسل جبال لبنان الشرقية وبقمة جبل الشيخ بسوريا ، ولكن تربتها غير خصبة جداً ، وتتميز بوجود سهول منبسطة ما عدا الجهة الشمالية وذلك يكسب المدينة منظراً جميلاً .



الفصل السابع :

وصف لبلدة عذراء سكن السائق ونبذة تاريخية عن قبيلته

ونمضي مع طريق دمشق المعبد ، لنصل بعد مسافة سبعة وعشرين كيلو متراً إلى قرية بعذراء والتي لا يبدو عليها بهجة عيد الأضحى لهذا العام ١٣٨٤ ، هذه القرية يستوطنها سائقنا ، الذي طلب من التاجر الدوماني[٢٠] قيادة السيارة ليرتاح عند أهله ، يوم أو يومين في بيت بسيط بأحد أحياء القرية التي يبدو عليها الركود والسكينة ، وذلك لعدم وجود نشاطات حيَّة من السكان تعمل في حقول اقتصادية معينة ، كما في ضمير ، والغبار فيها يعلو سماء القرية لنعومة الجزيئات التي تشكل أرض هذا المكان ، والتي تتطاير بحساسية متناهية عند ثوران أي رياح ، يسكن هذه القرية كثير من البدو ، وتعتبر مقراً للشعلان رؤساء قبيلة الرولة ، القبيلة التي يقول فيها الشاعر :

روﻻ عرب قصورهم الخيام ومنـــــزلهم حماة والشآم

ولقد كان للشعلان مكاناً فريداً في العهد التركي ، والفرنسي بين قبيلتهم ، فهم أصحاب القيادة ، وبيدهم المركب ، يركبون الخيل عند الأزمات في الماضي ، وينتجعون بعيداً إلى منطقة الجوف ، يحيط بمَقدمهم العبيد ، فالرِّق سائداً عندهم ، وتحكم على أن معظم سكان قرية (عذراء) يقطنها عبيد الشعلان ، وقبيلة الرولة هي قبيلة عنزية تكونت من عدة أفخاذ ، وأصبحت أحلاف ،

(٢٠) دوماني : نسبة إلى بلدته دوما .

ومن هنا جاءت تسميتهم بالرولة مثل (المحلف) من عنزة أيضاً ، والرولة من القبائل التي كان لها دور في فتن شمّر التي قامت في العراق في حدود سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م والتي استفحلت وأقلقت الحكومة أي إقلاق، ورأت عجزها عن دفعهم ، فأقرَّ والي بغداد (علي باشا) على أن يستدعي عنزة لتقوم بإعانته ضد شمّر وتردّهم ، فهرعت عنزة (قبيلة الرولة منهم) فقط بعدد كبير جعل الوالي يستوحش هذا العدد الكبير ، ويخشى شرَّه ، وندم على ما أقرَّه باستدعائهم ، وحاك كيداً مع شمر لتعينه على إخراج الرولة ، بحجة عدم لزوم وجود هذه القبيلة ، فأعانته شمر بعد أن طلبت الرولة منه أجراً كبيراً ، لقاء ما تكبَّدته من مشاقّ في قدومها من مكان سحيق ، وضربت خيامهم في مدينة بغداد ، مما أهاج الوالي شمراً على عنزة فقامت بينهما معركتان كبيرتان في سنتي ١٢٣٨/هـ و١٢٣٩ كان النَّصر في الأولى لشمَّر وفي الثانية لعنزة .

وذكر السائح السويسري بركهارت الرولة في سنة ١٢٢٤/هـ فقال : عشيرة قويَّة كبيرة ، خيلها أكثر من كل العشائر ، وهي في سنة ١٢٢٤ حاربت جيشاً مؤلفاً من ستة آلاف جندي أرسله باشا بغداد وغلبته ، وهي تنزل البادية من جبل شمَّر جنوب شرق الجوف (قرب حائل) إلى جنوب حوران ، إن دفاعها القويّ ضد باشا بغداد ، أدَّى للتصافي بينها وبين بن سعود ، ففي سنة ١٢٢٥/هـ ، رافقت الرولة بن سعود في غارته على حوران ، ونقرة الشام ، لتأديب بني صخر وأهل الشمال حين اجتمعوا على دوخيّ بن سمير ، والرولة من القبائل التي لا يسمح لها في التوسط من قبل رؤسائها كما في مكانة ابن سمير الذي يتوسَّط ليحصل على إجازة من والي دمشق بأن يمتار الرولة حاجتهم من الغلَّة ، وليس للرولة أي حق في قبض الصرّة ، ولا شيء من قوافل العراق[٢١] .

---

(٢١) كتاب عشائر الشام للمهندس أحمد وصفي زكريا . ج ٢ .

وفي كتاب (الدرر المفاخر) للشيخ محمَّد البسَّام أن شيخ الرولة في زمنه (١٢٤٦/هـ ١٨٣٠/م) كان الدريعي المشهور ، والسائح الانكليزي (دوتي) الذي جاء في سنة ١٢٧٥/هـ ١٨٥٨/م ذكر الرولة وقال :

إنها أكثر العشائر عدداً ، وأشدّها قوّة ، وأن شيخها وقتئذٍ هو فيصل الشعلان ، وأما عن بحث لولد علي كان العداء بينها وبين الرولة على أشدّه في وقت هذا الشيخ على أنهما من ضنا مسلم ومن عنزة ، وذلك بسبب وقوف عشيرة ولد علي في وجه الرولة ومنعها من النفوذ إلى براري حوران التي صارت منازل ولد علي ، منذ أن وفدوا من نجد إلى بلاد الشام ، وحصلوا عليها بالجهد والدّم .

فقدْ كان خصم فيصل الشّعلان المذكور هو محمد بن دوخي بن سمير شيخ ولد علي وأدَّى الخصام بينهما إلى معركة بالزّويّة الشّرقية ، وبموقع (كوم الزيتونة) لسنة ١٢٧٧/هـ ١٨٦٠/م ، استعان به محمد الدّوخي بالقائد العثماني (مصطفى باشا) المرابط في اللجاة ، وانجلت المعركة عن قتل فيصل الشعلان مع ولده(*)، فعظمت صولة محمد الدّوخي وقتئذٍ ، إلا أن الرولة ذات العدد الوفير استظهرت بعد وطغت ونفذت إلى أنحاء حوران والجولان ، وفي سالنامة ولاية حلب لسنة ١٢٨٧/هـ ١٨٧٠/م أن شيخ الرولة عامئذٍ كان هزاع بن نايف الشّعلان ، وهو أبو النّوري .

وجاءت السائحة الانكليزية الليدي آن بلنت في سنة ١٢٩٥/هـ ١٨٧٨/م

(*)وقد عاد الصفا والوئام بين الرولة وولد علي ..على أثر مقتل راجح بن محمد الدوخي .. من قبل أهل الشمال .. وحين علم الرولة بمقتله طلبوا الثأر له من أهل الشمال وهم ينتخون باسمه بجملة (وين راجح يا أهل الخيل) .

ورددت ذكر الرولة بالكثرة والقوَّة ، وأن شيخها آنئذٍ هو سطام بن حمد بن منيف الشعلان(*)

(*) وقد استنجد سطام بالشيخ ساجر الرفدي شيخ قبيلة الشملان من السلقا من عنزة ، فأعانه الشيخ ساجر حين وجد أن المستجير صغيراً بالسن فأعانه على آل مشهور من الشعلان واستلم القيادة والمركب منهم .

الفصل الثامن :

النشاط السكاني والعادات والتقاليد لأهالي المنطقة

وعلى أي حال فالقبيلة أينما كانت في الجزيرة العربية ، أو في العراق ، أو في الشام ، لا تخلو من دوافع تميت الروح المعنوية ، وتعثّر من سير ركب الحضارة ، أو الحركات العلمية ، لعدم الاستقرار ، ولضيق أفق الفكر ، ويلزم على الدول العربية في هذه الحالة أن تشن حرباً لا هوادة فيها ، هدفها الأساسي القضاء على الأمية في العالم العربي ، كما تفعله بعض الدول الأوربية المتقدمة كالنروج ، والدنمارك ، وبلد الجمال والسّحر السويد ، وما يطلق عليها تحت اسم الدول الأسكندنافية ، فالدولة لديهم تؤدي الخدمات العلمية والطبية على عربات متنقلة من مكان إلى آخر ، تخدم المواطن المتنقل تبعاً لمهنته وفي مكانه حيث ما يحل ويرحل ، ونأتي الآن لننساب ضمن طريق ضيق تحف به الأشجار التي تتشابك فوق جانبي الطريق ، إنها غوطة دمشق الفيحاء التي أكثر الشعراء من وصفها .

ولقد كنّا نوجس خيفة من مغرب ذلك اليوم فالشمس بعينيّ السائق الدوماني الذي بدأ يخفف السُّرعة متردِّداً في الانطلاق كما ينبغي أحياناً ، وكنت أخشى مجادلته في التريث قليلاً ، لأن شمسنا أشرفت على المغيب حين كان يشيحُ بنظره محدقاً تلافياً منه لأشعة الشمس ، وبدأنا نشعر بنشاط ملموس ، فالنسمات العليلة التي بدت وكأنها تشقّ الطريق ، تطوقنا بروائح الأشجار العطرة ، ولربما إن

للمادة الأوكسجينية التي تفرزها المواد العضوية أكبر الأثر أيضاً في تنشيط حركة التنفّس الطّبيعي بالإنسان لقد أكثر الشّعراء والواصفون والكتّاب في جنّة الفيحاء التي وهبها الله نهر بردى ، لتخضلّ وتروق لوناً للمشاهد من بعيد ، فهي ديمة مخضرَّة تميل إلى الزرقة إذا ما ارتمت نظراتك إليها من بعيد فترسم لك أجمل ما تصوره الطبيعة من إبداع ، ونصل إلى مدينة دوما في وقت مبكر من المساء ، وقبيل العشاء تدب دوما في حركة تجارية ضخمة نظراً للأعمال التي يزاولها أهل دوما في شتّى مرافق الحياة الاقتصادية فهي تجمع بين التجارة والزراعة والصناعة والمهن المختلفة الأخرى ، غير أنني ألاحظ فيها ظاهرة اجتماعية تختلف عمّا رأيته في الضمير ، فالنِّساء محجَّبات بخمر تغطِّي وجه الأنثى ، كما تجري عليه العادة في الجزيرة العربية ولدينا خاصة في المملكة العربية السعودية ، غير أن تكييف الملابس من حيث القالب يميل إلى الإفرنجي يميِّزه النقاب فقط .

وأعتقد أن المذهب الحنبلي هو المذهب الوحيد الذي يعتنقه الدومانيّون والذين يعتزُّون بأصالتهم كعرب خلص إذ أنهم ينتمون أصلاً إلى قبائل عربية ، ويحتمل أنهم هاجروا من نجد في زمن الخلافة العباسية على إثر ثورات البربر في شمال أفريقيا فقد واجه خلفاء بني العبّاس عنتاً شديداً ومقاومة صلبة في إخضاع ثورات زعماء البربر كلّف الدولة تضحيات كبيرة في المال والرجال ، فقد كانت الدولة لا تفرق بين ولاية وأخرى ، والهجرة من بلد إلى آخر لا يترتب عليها أيّ استنكار ، ومن المحتمل أنهم جاؤوا أيضاً لوجود علاقات تجارية بين شمال الجزيرة العربية والشام ، تقوم على القوافل التي تنتقل بين المحطات التجارية ، التي تزوّد هذه القوافل بما يحتاجه الركب من الزاد والماء ، لوجود الواحات بكثير من المحطات التجارية .

ونخلص بالقول في الحكم بأن عادات قاسية تنطبع بها أخلاق الدوامنة ، فهم شجعان عاملون لا يتهاونون في الاشتغال بكل ما من شأنه أن يساهم في رفع

مستوى حياتهم المادية وذلك كوصف السائق الدوماني صاحب السيارة ، الذي أفاض إلينا بالحديث عن هذه المدينة والتي تجاور قرية عذرة ، والتي كان يذكر أنها سوق تجاري ، لمهارة سكانها في التجارة ، والصناعة ، والزراعة ، كما يذكر ، إلا أن نزعتهم في المحافظة على العادات والتقاليد الإسلامية أمراً كان يعجب منه السائق . فقد ذكر أنه لا يماثلهم في المحافظة على هذه العادات والتقاليد بمنطقة دمشق ، إلا حي من أحيائها أي «دمشق» اسمه الميدان والذي يذكر أنه لا يقل محافظة عن مدينة دوما ، من حيث تنقُّب المرأة ، والمحافظة على كمالها في السّتر بلباس ضاف ، كما يحرص عليه مواطنو الجزيرة العربية .

وقد نجد ذلك في أكثر من بلد من بلاد الشمال للحرص على مثل هذه العادات كما يقول . إلا أنه لا يستطيع تحديدها .

وأودع مدينة دوما ، وأودع رفيقي التّاجر الذي أمضيت معه يومين وليلة في الرحبة وأواصل مسيرتي إلى دمشق ، أنقل معي مهمة إقناع صرّاف التذاكر في العربة الكبيرة الخاصة بالركّاب والذي يكتضُّ بعدد كبير من الركاب يتراصّون فيه ، فهو سيطلب مني عملة سورية في وقت أفتقد هذه العملة تماماً من جيبي ، ويدنو مني صرّاف التذاكر ، فأشعره بأنّي غريب ولا أملك عملة سورية ثم أناوله ريالاً فيقتنع بقلّة ما في يدي من العملة السورية ، ثم نصل دمشق بعد فترة وجيزة لا يشغلني بها ، غير تصريف مبلغ من الريالات بعملة سورية كي أتناول العشاء ثم آوي إلى فندق أنال به نصيبي من الرّاحة ، ولقد انطلقت بعد أن أودعت ما معي بفندق متوسط الحال ، إلى السوق حيث يكثر الصّرّافون ، يقفون على أرجلهم يتلقَّفون المارة بلفظ (فيه صرف ، تصرف عملة) وقبيل وصولي السوق كانت تنتزعني لحظات من اليأس في أن أجد ما أطلبه ، واليوم يوم عيد ، وها هي تزدان المدينة ، باحتفالاتها في هذا اليوم وكذلك فالوقت أيضاً ليلاً ، ولكنّي وجدت من يصرف لي ، وأناوله مبلغاً فيبدّله وأرجع أدراجي

إلى مطعم شعبي صغير في الدور الأرضي من الفندق الذي أنزل فيه ، وأتناول وجبة ثقيلة تتألف من الشّواء الدّسم ، والسّلطة ، واللبن مع مغراف ماء اجترعته بعد هذه الوجبة ، لم يكن وزن اللحمة عادياً فقد ضاعفته لشعوري الشَّديد بالجوع ، وتثاقلت في المسير إلى فندقي الذي يقع في الدور الثاني من العمارة ، وألهث قليلاً بعد وصولي نهاية مطافي غرفة متوسطة تحتضن سريرين على نحو متوسط الأثاث ، اختياري لهذا الفندق جاء نتيجة إرشاد من أحد أصحاب الدكاكين المغلقة بكاملها إلا ما ندر ، قبيل وصولي غرفتي كان يجلس على منصة مكتب الفندق شاب ظريف يحسن التّخاطب مع الناس بلطف فبادرني بتحية لطيفة ، وطلبت منه عما إذا كان يستطيع تغيير غرفتي بأخرى تضم إليها شرفة تطلُّ على الشارع العام ، وليتيح لي مجالاً في أن أتمكن من التفرُّج على حركة المرور في المدينة ، وقد استجاب فوراً تلبية رغبتي ، وأدخلني بعد هنيهة إلى غرفة بسريرين أيضاً على نسق مرتب بطاولة صغيرة ، وكرسي من الخيزران ، وتضم أيضاً خزانة من الخشب يعلو سطحها المواجه مرآة كبيرة غير أنك تشك في أصل هذه المرآة ، فتاريخاً جديراً بالإشادة والتدوين يجب أن يكتب لها ، ولشد ما يؤلمك إذا ما احتجت النظر فيها ، فهي من النوع الذي يغيِّر صورتك الحقيقية إلى شيءٍ آخر ، تمدد صورة وجهك حينا وتكمش عليه أحياناً أخرى ، فيتبادر إلى ذهنك أن أداة كابسة تضغط على وجهك بين كفتين قويتين فتقلب منظره إلى شكل آخر ، وارتدَّ عن مرآتي متشائماً من ليلتي هذه ويمضي عليَّ ساعات قليلة كنت فيها والنّوم على طرفيّ نقيض ، وبدأت أحسُّ بتثاقل أخذ يطبق على عيوني وأخذت جفوني تقترب من لحظة التلاصق الشَّديد فلم أقوَ على المقاومة سوى الاستسلام للنوم وغططت في نوم عميق لم أصحُ منه إلا في صبيحة اليوم التالي ، وفي الصباح طلبت طعام الإفطار من المشرف على إدارة الفندق ثم لبست ثيابي ، وخرجت من الغرفة بعد إحكام إغلاقها ونزلت من

السلا لم قصدي التّجوال في شوارع مدينة دمشق ، وعلى وجه العموم ، فدمشق كعاصمة دولة عربية لا تزال من المدن القديمة في تخطيطها ، سوى وجود بعض أحياء اختطت على نسق متسع ، فالشوارع بدمشق ضيقة ، والمدينة آهلة بالسكان ، والحركة العمرانية تسير سيراً وئيداً تبعاً لمصلحة الاقتصاد السوري ، وموارد التنمية في هذا البلد الشقيق تعتمد على الزراعة ، والتجارة ، والصناعة ، ويدوم تجوالي في الأسواق قرب ساعة ونصف ، ثم أجلس في أحد المقاهي لأرتاح قليلاً ، لأنني أنوي مشاهدة الجامع الأموي ، الذي يرجع تاريخه إلى خلافة بني أمية .

قام ببناء المسجد الوليد بن عبد الملك ، وقد أتم إنجازه في عهده إذ كلف الدولة الأموية مبلغاً ضخماً من المال كان يصرف في تزيين جدران المسجد بنقوش الفسيفساء ويذكر في تاريخ هذا المسجد بأساساته ، أنه كان يمثل كنيسة مسيحية عليها أربعة تماثيل في زوايا أربعة تمثل صور القداسة المسيحية للمسيح عليه السلام وأمه ، وكان القساوسة والرهبان يعتقدون بأن هذا المأثر ذو تأثير قدسي ينبغي الحفاظ عليه ، وأخذ الحيطة من أن يتعرض إليه أحد بأذى وكانوا ينصحون الوليد بن عبد الملك بعدم هدم هذه الكنيسة لوجود دلائل تشير إلى أن من سيهدم هذه الكنيسة يتعرض للأذى ، غير أن الوليد لم يبالِ بقولهم ، وأبى أن يردّ على تكهناتهم ، واعتلى أحد زوايا الكنيسة وابتدأ في كسر تمثالها قائلاً بسم الله ثم باسم الدين أبدأ مشروعي هذا ، وقد عمر هذا المسجد طويلاً ، وتأثر في الهزة الأرضية التي حدثت عام ١١١٦/م وقد أصلح سلاطين بني عثمان لاحقاً في إشادة طلاء المسجد من الداخل واستبدلوه بالقاشاني الذي تبدو مظاهره واضحة حتى الآن ، وكانت حدائق المياه تطلى بالذهب ، ويقال إن الوليد حين بناه أصرَّ على أن يضع في سطح المأذنة أربعين لبنة من الذهب ، غيرأن الخليفة الأموي استشار في هذا الأمر فعورض من قبل مستشاريه من العلماء ، وقد

جاء هذا المسجد صورة رائعة للعمارة الإسلامية مندمجاً مع الفن الهيلنستي ، أو الإغريقي ، والطريقة التي كان يتبعها المهندسون في بناء مأذنة هذا المسجد ، هي ما كانت تجري عليه هذه العادة في كثير من البلدان العربية ، وذلك بجعل المأذنة مربعة الشكل ، كمسجد القرويين في تونس ومسجد القيروان .

وهذا النمط من البناء أخذ من المسجد النبوي الشريف في المدينة ، وعند حلول صلاة الظهر اتجهت إلى حيث يرتكز بناء المسجد الأموي ، وسط مدينة دمشق وقد وجدت كلما ذكر وما حفظته عن طريق المطالعة عن هذا المسجد ، كحقيقة ماثلة لما مرَّ آنفاً ، وصلَّيتُ فيه صلاة الظهر .

لقد قال الوليد بن عبد الملك حين سئل عن دمشق ، وما تحتويه من تقدُّم قلَّ أن تجد نظيره في البلدان العربية الأخرى في ذلك الوقت ، وبزمن الأمويين وعن شهرة المدينة ، بمائها وهوائها ، وفاكهتها ، وحماماتها ، قال الوليد : وأنا أريد أن أضيف لها ظاهرة خامسة ، وهي هذا المسجد (مسجد دمشق) ولقد أعجبت أيضاً بمكتبة دمشق الأثرية (المكتبة الظاهرية) التي تكتضُّ بها مئات الألوف من الكتب القيِّمة والدواوين والمؤلفات القديمة ، التي تعتبر مراجع رئيسية في التاريخ ، ثم فوجئت بعد خروجي من المكتبة بصديق يعزُّ عليَّ ، وقد سرت معه في شوارع فسيحة نسّقت بأشجار على الجانبين ، مناظر كانت تبعث الحبور إلى النفس ، وكنت أقصُّ عليه ما حدث معي في الأمس ، وما أعجبت فيه بطريقي إلى دمشق من مدينة دوما ، وكيف أن منظر تشابك الأشجار فوق رؤوسنا كان يسلبنا أحياناً أذهاننا بالتفكّر ، نتأمَّل ونتبصَّر جنَّة الله في الأرض ، وقد أضفت إلى زميلي الرغبة في أن أشاهد الغوطة هبة بردى حين يقول الشاعر أحمد شوقي إن لما تخنِّي الذاكرة :

سلام من صبا بردى أرقُّ　　　ودمع لا يكفكف يا دمشق

وطلبت منه إن كان يلمُّ بخطٍّ سير مجرى هذا النهر ، ومن أين ينبع ، وأين يصب فقال بأن النهر ينتهي ببحيرة اسمها بحيرة (العتيبة) تقع في الجانب الشرقي من دمشق ، وأشار إليَّ إن كنت أرغب مشاهدة موقع هذه البحيرة على أن نقوم برحلة إلى ذلك المكان ، وانطلقنا بسيَّارة بعد أن رغَّبني في أن الطَّريق مخضَّراً ، وتتناثر على جانبي الطريق عدة قرى زراعية تلفت النظر ، ودفعنا لصاحب السيارة مبلغ ٢٥ خمسة وعشرين ليرة سورية ، وذلك الاتفاق القائم بيننا وبينه ليوصلنا إلى العتيبة ، وقد مررنا بقرى عدة كما وصف صاحبي بغوطة دمشق ، غير أننا حين اقتربنا من القرية تعثَّرنا لخلل عصيب ألمَّ بسيارتنا ، كما يذكر السائق اضطرنا بعد مفاهمة معه إلى مواصلة سفرنا ، في حافلة ركاب تتجه من دمشق إلى العتيبة ، ولقد دخلنا القرية لنفاجأ بعادة لم نلحظها في المدن الكبيرة أنها (دعوة تفضَّلوا) ومن هنا بدأت أفكر ، باسم قرية (عتيبة) وهل أنَّ هذا الاسم جاء مشتقَّاً من قبيلة عتيبة ، القبيلة المشهورة ، في كرم الوفادة للضيف ، وللشجاعة أيضاً بهذه المملكة ، فلربما أن شخصاً أو أكثر جاؤوا إلى هذه البلاد من هذه القبيلة واستوطنوها وغدت باسمهم ، في وقت كان الناس فيها أقلِّيَّة ، وتكاثروا حتَّى انتشرت توزيعاتهم لتعمر بلدة (العتيبة) وطلبنا سيَّارة من البلدة لنتجوَّل حولها ، ولتقدير مسافة قد تتجاوز عشرة كيلو مترات أو أقل من ذلك ، ونعثر أخيراً على سائق فيها (ألثغ اللسان)[٢٩] ، ركبنا السيارة وسارت بنا إلى حيث موقع البحيرة الجاف ، للرَّي المستمر لقرى ومدن غوطة دمشق ، وأخذ السائق يوجه الحديث ممتدحاً نفسه بالميكانيكا ، وهندسة السيارات ، قائلاً :

---

(٢٩) لثغ ، اللثغة : أن تعدل الحرف إلى حرف غيره ، والألثغ : الذي لا يستطيع أن يتكلّم بالرّاء ، وقيل هو الذي يجعل الراء غيناً أو لاماً ، أو يجعل الراء في طرف لسانه ، أو يجعل الصاد فاءً ، وقيل هو الذي يتحول لسانه عن السين إلى الثاء ، وقيل : هو الذي لا يتم رفع لسانه في الكلام وفيه ثقل .

(معغفتي بالسيَّاغات من مدة أغبعين سنة ، ونتيجة التجاغب في السَّيَّاغات خلتني أعغف أي خلل يحدث في السَّيَّاغة ، وهذه السَّيَّاغة عندي تسوى أحسن سيَّاغة من الموديلات الجديدة) . إذ أن السَّيارة كانت موديل ١٩٤٤ قل أن تعثر على نظير لها في المملكة إطلاقاً ، يحدِّثنا بهذه اللهجة ، وكأنما هو مدفوع لترويج سلعته لدينا ويمضي قائلاً بالعاميَّة (ما هو كل واحد سائق يقول يعرف بالسيارات سائق ، ولا أحمد نفسي قدَّامكم ، فالسَّيَّارة هذه لها عندي خمسة عشر عاماً أعرف فيها كل شيء) ولم يمض علينا وقت طويل وقبل أن ينهي حديثه ، وقبيل اجتياز كيلو متر من المسافة حتى وقفت السيارة نتيجة لخلل فيها . ونزلنا منها ، وأخذ يحلّ ويركب ، وأصلح الخلل فعلاً بدقائق معدودة ، غير أن عدم وجود بطارية بالسيارة تكفي لتقويمها ، كان سبباً في تأخيرنا أكثر ، ومدعاة لحملة أيضاً (هندل)[٣٠] مقبض لرأس عمود أجزاء ماتور لسيارة ويسمونه (مانويل)[٣١] لا تسير السيارة بدونه ، ومن حرصه عليه يحتفظ به في مكان بمتناول اليد ، تحركت السيارة ، وسرنا بعيد كيلو متر واحد لتقف مرة أخرى ، ويضطرنا ذلك إلى أن نتساءل جميعاً عن تاريخ سيارتنا ، وقد أدلى صديق للسائق رافقنا مع زميله خبراً يفيد أن هذه السيارة هي الوحيدة التي يعتمد عليها المسافرين من القرية لأنه لا يوجد غيرها في الثبات ، ولاستقرارها دوماً إلا اليسير النادر ويقاطع السائق رفيقه بقوله (أخونا هذا يعرف كل شيء عن تاريخ السيارة ، وأقدر أسافر عليها لأي مكان ، لأنني أعرف كل خراب يحصل فيها واعتبرها شريكة حياتي من خمس عشرة سنة) . وكان يشير إلى زميله ، وانحنى يتفقد أسباب وقوف السيارة ويستدل أخيراً إلى انقطاع سلك كهربائي يصل إلى (الديلكو أو الموزع) للكهرباء ثم يأخذ (الهندل) المقبض لرأس الماكينة ، ويعمل

(٣٠) هذه الأداة تستعمل اليوم لبعض مكائن الماء .

(٣١) مانويل ، وهاندل اسماء أجنبية ، هاندل انكليزية ، ومانويل أظنُّها فرنسية

المحرك حالاً بعد إدارته ، ثم تسير بنا إلى نهاية مطافنا بالبحيرة الجافة والبحيرة عبارة عن ركامات في مكان منخفض مقفل تتجمع به المياه في الشتاء والناتجة أحياناً عن زيادة احتياجات بلدان الغوطة ومزارعها من نهر بردى ، ويتحدثون عن تاريخ هذه البحيرة في الماضي فقد كان أثر النشاط الزراعي الهائل في الغوطة عاملاً فعَّالاً في استنفاذ كمية المياه التي ترد من نهر بردى إذ ما يقارن ذلك بما مضى قبل عشرين سنة على حد قول السائق .

واتفقنا أخيراً على أن نرجع إلى العتيبة ، وتم الشرط بيننا وبين السائق على أن يوصلنا أقرب مكان تتوفر به أداة للنقل ، وركبنا السيارة على أمل أن العودة ستتم دون انقطاع ، ويحاول السائق تشغيل السيارة ولكن دون جدوى ، وأخرج عدَّة تصليح يحتفظ بها بصندوق حديدي صغير تستخدم للحلّ والرّبط ، والتركيب ، ويبدأ بالفك ، وبعد انقضاء ساعة تامة ، تشتغل السيارة ، وسرنا ونحن نرسل الضحكات ، والنكات التي خلفها لنا السائق الألثغ ، وسيارته التعبة ، وينتهي دورنا كألعوبة في أحضان هذه السيارة ، وتسير حتى العتيبة ونواصل سيرنا إلى أن نبلغ أقرب مكان تتوفر به وسائل النقل كالمتفق ، وينصرف السائق بعد تسلمه الأجرة بعد وقوفنا على قارعة الطريق ولمدة عشرة دقائق ، استوقفنا سيارة كبيرة للركاب ، وركبنا نقصد دمشق ، وندخل دمشق ونحن نحس بالجوع وتقف السيارة وننزل منها لنسير في شارع ضيق تحدونا الرغبة إلى الطعام ، فالوقت متأخر والشمس تميل إلى الغروب ونختار مطعماً جيداً نتناول به وجبة الغداء المتأخرة في حوالي الخامسة والنصف مساءاً ، الحادية عشر والنصف بالتوقيت العربي ، إذ ستواجهني الآن لحظات غير سارة تلك التي سأودع بها رفيقي وبعد ساعة بالضبط ، والذي أمضيت معه مدَّة من الوقت كان خلالها مثالاً للأخلاق والمزايا الرفيعة ، واللحظات القصيرة الباقية سيحسمها أداء صلاة المغرب في المسجد القريب من الفندق ، ونصلّي فيه لأودع رفيقي ،

لا تزال دمشق تعجُّ بحركة تجارية تسويقية ضخمة بمناسبة عيد الأضحى المبارك ، وتكتظُّ الأسواق بألوف الزوار والوافدين من قرى ومدن الدولة والسيَّاح الذين يدخلون إليها من أكثر من طريق رئيسي يصل رقعة الدولة بما جاورها من الدول العربية كلبنان والأردن والعراق وتركيا ناهيك عن المطار ، ولما وجدت أن جلوسي وحيداً دون أنيس يشاركني هذه العزلة فضَّلتُ أن أدخل أحد مسارح السينما لأرقب فلماً أذهب مع فصوله وبذلك أقضي على سآمة الوحدة ، وانطلقت أدقق في عروض الصور واللوائح ، ليقع اختياري على فيلم قضيت فيه ساعتان ونصف من الوقت ، وعدت إلى فندقي وأنا أحسُّ برغبة إلى النوم ، ولم أمكث طويلاً حتى غططت في نوم عميق هادىء ، لا يقلقني فيه أجراس غنم صاحب الرحبة قبل ليلتين .

وفي صبيحة اليوم الثالث لعيد الأضحى عام ١٣٨٤/هـ وبعد أن دفعت لصاحب الفندق حسابه قررت بأن أصل مدينة تدمر الأثرية عن طريق مدينة حمص ، وفي اللحظة التي أجاور فيها صاحب الفندق طلبت من صبي يعمل لديه إحضار كأس من الشاي ، وفي اللحظات التي ذهب الصبي فيها ليلبي طلبي طبقت حاجاتي المبعثرة في حقيبتي الصغيرة ، وأحكمت إغلاقها وحملت فروتي ، وودعت صاحب الفندق الذي ضمّن حسابي عن الليلتين فاتورة سلمني إياها بعد أن شربت الشاي الذي أحضره الصبي مع كأس ماء ، وسرنا إلى حيث الشارع الذي استوقفت به سيارة تاكسي(*) لتوصلني إلى تكاسي حمص ، وركبت الساعة العاشرة في الوقت الذي تحرك به التاكسي الذي لا يلذ لي تباطؤه في السير ، فالوقت قصير وعليَّ ضمن الأيَّام الثلاثة أن أعود إلى بلد عملي القريات عن طريق عمان والتباطؤ قد لا يهيء لي الاستعجال في أن أستغل وقتي ، إذ تتراءى بمخيلتي آثار مدينة تدمر التاريخية ونُيمِّم الشرق ، أخذنا في طريقنا درباً

(*) تاكسي : أجنبية ومعناها : سيارة أجرة ، والجمع تكاسي .

فسيحاً تراصت حوله البنايات الشاهقة ، ونتخلّى رويداً رويداً عن مدينة دمشق العريقة والتي تعتبر من أقدم مدن العالم التي اتسعت بينبوعها الثّر بردى الذي يوصف بقول الشاعر أحمد شوقي :

وصفَّــق يلقانــا بها بــردى كما يتلقّى دون الخلد رضوان(*)

إلى ينبوع الفيجة ، الذي لا تزال آثار فروعه تتمدّد في دمشق ، عن طريق صنابير يستقي منها الناس ، ونقطع ستة عشر كيلو متراً لنمرَّ بحي حرستا ، ذو الأشجار الكثيفة والكثيرة نتجاوزه بطريقنا إلى مدينة دوما ، ونعجب من أشجار الزيتون القديمة التي تتعامد غصونها في جذوع الزيتون ، الذي يتراص بنسق جميل ، والخضرة تتخلل هذا الشجر المبارك كالبرسيم ، ونشاهد بعض الخراف أو البقر يربط في هذه الأحواض يحشُّها بفمه دون أن يلجأ صاحب الأرض إلى قصِّها وكذلك الخراف فتربط بأعناقها ، ونأخذ طريقاً يأخذ بالارتفاع حتى لتبدو لك الغوطة من هذا الارتفاع روضة غنَّاء من رياض جنان الأرض وتميل إلى الزرقة بحيث تستلب من مشاهدها عمقاً فكريّاً يوحي إليك في شاعرية دافقة ولمسافة ثلاثين كيلو متراً نمر بقرية اسمها القطيفة ، وهي مدينة عسكرية على ما يبدو موقعها يلازم الجهة اليمنى من الطريق باتجاهنا نحو الشمال ، وتأخذ السيارة هذا النمط من الزيادة في الارتفاع تدريجياً حتى لنظنُّ أننا لبرودة الطقس سنصل إلى قمة من سفوح جبال عالية ، ولو أن هذه المناطق يبدو عليها المناخ الصحراوي فهي مجردة إلا من قليل شجر وأثر للنبات البري ، فالكلأ يتوفر بهذا المكان ، ونصل إلى مدينة النبك البلدة الباردة في سوريا ، والتي تشتهر بعليل هوائها ، وبرودة مائها ونصل مدينة حمص الساعة الواحدة بعد الظهر بعد استراحة تقرب من نصف ساعة أو تقل ، وهممت أنقل أمتعتي إلى حيث حافلة تنقل المسافرين إلى مدينة تدمر ، وبعد سؤال عن وقت تحرك الحافلة ،

(*)يلاحظ أن الأصل في الشطر الثاني : كما تلقَّاك دون الخلد رضوان .

فوجئت بما يعصف في أن أحقق أمنية كنت أعلق عليها في أول النهار أو آخره ، إذ أن وقت وصولي سينسف هذا الأمل في أن أتملَّى من المشاهدة هذا اليوم ومن كون أن عودتي إلى حمص بنفس الليلة مكلفة ، إلا أن ذلك لن يتحقق ، إذ أفادني سائق الحافلة أن وصولنا إلى تدمر ، سوف يكون الساعة السادسة مساءً ، بما سيحتم عليَّ أن أنام ليلة في (تدمر) ونصل تدمر بالذكر الذي أسلفه السائق ونزلت من الحافلة لأتلمس أقرب مكان إليه ، ففي فندق صغير قضيت ليلتي التي لم أستأنس فيها غير أمل يحدوني في أن أشاهد هذا الأثر فالطريق الذي قطعناه لم أجد جديداً أضيفه غير أبنية من الطين لقرية اسمها (الفرقلس) تخيم عليها أشكال بناء قلَّ أن نجد نظيراً لها إلا في أدغال أفريقيا، فالغرف في هذه القرية دائرية من حيث قاعدتها أما القمَّة فكأنَّما هي صورة (بلبل بناء) مخروطية الشكل ولاشكَّ أن مثل هذا النمط يساعد الفلاح ساكن هذه القرية على أن يأمن نفسه غائلة الخطر من المطر والثلوج، إذ لا يوجد مجمع للماء في هذا البناء .

ونمت تلك الليلة لأصبح برابع يوم عيد الأضحى المبارك لعام ١٣٨٤/هـ وقد لا أجد بهجة العيد على الناس كما كنت أرى في المدن التي مررت بها غير تبادل التبريكات في العيد .

وحرصت على أن أطلب جواز سفري المحفوظ البارحة لدى عامل الفندق بعد دفع أجرة تلك الليلة في الساعة الثامنة وطلبت منه أن يتدبر لي سيارة لتنقلني إلى آثار المدينة التاريخية، وضجرت من طول الانتظار، إذ أن مدينة (تدمر) ليست كشهرة تاريخها ، ففيها البناء على النمط التقليدي القديم ، ولا تتوفر فيها وسائل ما يحتاجه السائح كبقيَّة المدن الكبرى في سوريا بدليل عدم توفر سيارة عند الطلب ، وقد أقبل علينا صاحب سيارة قديمة بعد نصف ساعة من الانتظار باشّاً في وجهه المعرورق بدليل التقدُّم في السِّن ، والذي يبدو عليه أثر كبير من الجهد والعمل ، غير أنه لطيفٌ بمعشره وركبت السيارة القديمة بعد طلب

عشرين ليرة سورية ، أجرة لها دفعتها له ، وسرنا بضحى ذلك اليوم إلى حيث تنتصب أعمدة هذه المدينة الأثرية وجدرها الضخمة المتهدمة ، ونسقها الفنِّي الرائع وصور ملاحم تاريخها الشهير ، ووجدت سوقاً كان يتخذ شرقي المدينة للقوافل التي ترد إليها ، غير أن المسرح الروماني في المدينة ، يختلف عن المسارح القديمة في بلاد الشام ، من حيث حجمه فهو أصغر بكثير من مسرح بصرى في سوريا ، وكذلك مسرح جرش الشهير بالأردن ، ومسرح فيلادلفيا بعمّان فقد لا يتجاوز عدد المتفرجين بهذا المسرح عشرة آلاف ، في حين أنه في المدارج للمسارح الأخرى قد يتجاوز ثلاثين ألفاً ، ومن هنا يتبين لنا أن حضارة تدمر كانت أقلّ كثافة سكانية عن غيرها من المدن الأخرى ، فهي على علاقة بالبادية ، وبعيدة عن صخب الحياة المكتظة بالناس لفقرها الاقتصادي ، فقد لا تعتمد على الزراعة ، كما هو الحال في المدن الآهلة بالسكان والتي تحتضن مثل هذا الأثر الخالد من مدارج المسارح الرومانية ، إذ تقل نسبة تساقط الأمطار المدارية على هذا المكان ، وقد لا يكفي للزراعة مما يعتبر فقط مراعياً للإبل ، والماشية ، فالمنطقة رعوية وليست زراعية ، حتى ولو أنها تعتمد هذا اليوم على استئصال الينابيع العميقة بواسطة المحركات الميكانيكية والتي تعمل بالديزل ، واستوقفني قصرٌ قديمٌ من أبنيتها توجد فيه صور كثيرة لشخصيات تاريخية بالألوان ، وكنت أنبهر من جودة الفنِّ للتصوير النافر لملاحم قتالية يتمثل بها الجند بملابسهم التقليدية ، وللأسف إن هذه الملاحم لم تكن محفوظة بصورة احترازية من الدولة ، لأنني أعتبرها قيمة فنِّيَّة رائعة يجب على الدولة حراستها حتى ولو أن اقتلاعها أمراً عسيراً ، على من يحاول ذلك ، فقد كان فنَّانوا الرومان يبدعون بهذا النحت الذي قد لا نجد نظيره إلا في قلاع رومانية شهيرة في غير بلاد العرب .

الفصل التاسع :

موجز عن تاريخ تدمر

وعدت بالذاكرة إلى الشك في أن القبر في تل النجار هو قبر عمر بن عدي ، الذي دام ملكه قرابة المائة عام في العراق ، ولو أنني لست على يقين في أن القبر قبره ، فكثير من الروايات تشير إلى أن قبر عمر بن عدي في النمارة والقريبة من الزلف في سوريا ولو أنني أيضاً أستبعد ذلك والنمارة حين استأثرت اهتماماتي آثار حضارة تدمر المتأخرة ، وجدت أن لها علاقة في ملكة هذه المملكة التي استطاع عمر بن عدي القضاء عليها ، فقد كان في النمارة أخت للزباء زنوبيا ملكة تدمر كانت على جانب كبير من الدهاء والذكاء ، فكانت تشتّي في النمّارة وتقيِّظ في تدمر ، وبما أنه كان لزوال هذه الدولة أسباب ، منها أن العراق كانت بيد اللخميين «قبيلة لخم» فقد استطاع جذيمة الأبرص أو الوضاح أو الأبرش[٣٢] إذ كانت العرب تعظم من شأنه في هذه التسمية ، استطاع القضاء على والد زنوبيا عمرو ، ولما وجدت هذه الملكة نفسها على عرش تدمر أخذت تدبِّر الحيلة في الثأر لأبيها من حاكم العراق «جذيمة»[٣٢] .

(٣٢) جذيمة : ذكره أكثر من مؤرخ ، وبأنه أول ملك من قضاعة .. وهو جذيمة بن مالك بن فهم التنوخي ، وأنه قال يوماً لندمائه : لقد ذكر لي عن غلام من إياد ، له ظرف وأدب ، فلو بعثت إليه فوليته كأسي ، والقيام على رأسي لكان الرأي ، قالوا : الرأي ما رأى الملك ، فليبعث إليه ، ففعل ، فلما قدم عليه ، قال : من أنت ؟ قال أنا عدي بن نصر بن ربيعة ، فولاه مجلسه .

فقد كان لجذيمة أخوال ، وكان على خلاف معهم على صنمين طالبه منهم ، وهددهم في حالة ما إذا قدموا إليه بالصنمين مع غلام اسمه (عدي)[٣٣] سينتقم منهم ، وحين وجدوا إصراراً منه أحضروا له الصنمين والغلام الذي طلب ، وقد اتخذ من عدي والياً لمجلسه في القصر ، ووثق بعد مدة منه ، فجعله ساقياً له وكان جميلاً .

أما أخته «رقاش» التي كانت لا تبالي في وجوده في القصر ، كانت تود لو تحظى بالزواج من عديّ ، وكانت تسرّ إليه بمودتها ، ففي يوم من الأيام حاكت خطة مع عدي وقالت : إذا شرب الملك هذه الليلة فحاول أن تغدّق له[٣٤] ، وإذا ما أخذته الخمر فاطلبني منه وأشهد عليه ، وأخذ بوصيَّة أو بنصيحة رقّاش أخت الملك ، وحين استبدت بالملك الخمرة طلب منه رقاش ، ووافق على ذلك وأشهد عليه ، ودخل عليها في وقت متأخر من الليل ، وأبلغها موافقة الملك ، فقامت من حينها تطلب من خادماتها أن يقمن بتزيينها ، ودخل عليها ، من ليلته ، فلما أصبح الصباح قام عديّ على غير عادته ومن داخل القصر ، واستأثر ذلك من اهتمام الملك ، الذي طلب منه الإجابة مستفسراً عن سلوكه الغريب ؟. فأجابه أنه خطب منه رقاش البارحة فوافق على ذلك ، وأنه دخل عليها[٣٥] فاستشاط الملك غضباً وجرَّد سيفه ، وهرب عدي من وجهه فلحق به وقتله ، وقيل غير ذلك .

(٣٣) هو عدي بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن عمرو بن نمارة من لخم ، وابنه عمر بن عدي هو أول من اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب ، وأول من مجَّده أهل الحيرة وكتبهم من ملوك العرب بالعراق ، وهم ملوك آل نصر فلم يزل عمرو بن عدي ملكاً حتى مات وهو بن مائة وعشرين سنة ، منفرداً بملكه ، مستبداً بأمره ، لغزو المغازي ، ويصيب الغنائم ، وتفد عليه الوفود ، لا يدين لملوك الطوائف في العراق ولا يدينون له حتى قدم أردشير بن بابك إلى فارس .

(٣٤) التَّغديق بالشراب : هو عدم مزجه بالماء .

(٣٥) قيل أنه حين أصبح غدا متضرِّجاً بالخلوق ، فقال له جذيمة ما هذه الآثار يا عدي ؟ فقال : آثار العرس .

أما ما كان من رقاش ، فقد عاد الملك ووبّخها على فعلتها وسخر من موقفها ، واعتبر أن عملها من قبيل الزنا ، كون من اتّخذته زوجاً لليلة البارحة عبداً من عبيد القصر ، وقامت عليه بعد أن بدأ بتقليل شأنها ، وأنها (دون) ، بأبيات شعرية ، جاء بها قوله :

حدِّثيني رقاش لا تكذبيني أبحُرٍّ زنيت أم بهجين ؟
أم بعبد فأنت أهل لعبدٍ أم بدون فأنت أهل لدون ؟

ثم قامت ودافعت عن نفسها دفاعاً سخرت من موقف أخيها الملك ، الذي استبدت به الخمر ووافق على زواجها بشهادة من شهد ، وارتجلت بيتين من الشعر جاء فيهما :

أنت زوجتني وما كنت أدري وأتاني النساء للتزيين
ذاك من شربك المدامة صرفاً وتماديك في الصبا والمجون

وغضّ الطرف حين وقفت منه هذا الموقف ، وأما ما كان من رقاش فقد حملت بغلام وكان الملك يشيح بوجهه عنها في القصر ، وحين أتمّت تسعة أشهر ولدت غلام سمّته (عمر) دون أن يستأثر ذلك من اهتمام الملك ، ولما بلغ الرضيع عدّة أشهر زيّنته وعطّرته ، وجاءت به تحمله إلى خاله ، وأجلسته بحضنه ، فعطف على الطفل وأمر بأن يبنى له قصر قريب من قصره[٣٦] ، وشبّ الطفل برعاية خاله الملك ، الذي عاد يعطف عليه ويكرمه ، وكان يتفرّس بملامحه فيجد أنه ذكيٌّ وحريصٌ ، فقد كان له موقف من المواقف الذي زادت محبة الملك له ، حين ذهب يجني الكمأة مع أقرانه ممن هم في سن متقارب ، وكان يجمع ما يجنيه ولا يفرط به ، حتى يأتي به إلى خاله ، وقيل في بعض الروايات حين بلغ تسع إلى عشر سنين استطارته الجن ، ولبث سنين يعيش مع الصيد ، فقد

(٣٦) قيل أنه حصّنها في قصره ، فولدت غلاماً ، فسمته عمر ، ووشّحته حتى إذا ترعرع حلّته ، وعطّرته ، وألبسته كسوة فاخرة ، ثم أزارته خاله .

تألم الملك كثيراً من فقده ، وبحث كثيراً فلم يجد له على أثر ، وحين قارب من سن العشرين أو يزيد ، قيل أن نفراً من التجار كانوا مع «قينة» (مطربة أو مغنية) لهم تطبخ غداءهم في البر ، وكانوا في جولة قد يجوز أنهم بالصيد ، وكانوا بعيدين عن أنظار القيِّنة التي كانت في شغل من طهو طبختهم ، ودهشت القينة حين وجدت من رجل عاري ، يقبل عليها وهو في نهم شديد إلى الطعام ، ولما أحست حاجته الشديدة إلى الطعام قدمت إليه كراعاً من لحم في القدر ، فجرد الكراع وطلب إليها لحم آخر ، فقالت كلمة مشهورة بين العرب (إن تعطي العبد كراعاً ، طلب ذراعاً) وذهبت مثلاً .

أما ما كان لرفاق القينة فقد عادوا ووجدوا الرجل العاري ، وسألوه من أنت ؟ فقال : أنا عمر بن عدي ، وفرحوا كثيراً حين علموا أنه عمر بن عدي ، لا سيما أنهم يعرفون سيرته حين استطارت به الجن من سنين ، وقالوا : هذه أجمل هدية نهديها إلى الملك جذيمة ، ومن فورهم قاموا بتقليم أظافره ، وشعره ، وكسوه بكسوة تليق بمقام الملوك ، وعطروه وذهبوا به إلى الملك جذيمة ، ففرح به الملك كثيراً وطلب منهم أن يطلبوا جائزتهم بألسنتهم ، فقالوا : لا نريد إلا أن نكون من المقربين ، وضمهم إلى حاشيته ، ثم أخذ يرفع من شأن عمر بن عدي حين وجد منه ذكاءً بعد أن تعرض لهذا الحادث وأصبح يسرّ إليه بالنصيحة ، ويبادله الرأي ، واستوثق منه ، وجعله ولياً للعهد .

وأما ما كان من أخبار (زنوبيا)[٣٧] على أخذ الثأر من جذيمة لقتل والدها ، فقد جهّزت جيشاً كبيراً لأخذ الثأر ، وما كان من زيارة أختها زبيبة التي كانت تسكن بالنمارة قريبة من تل النجار والذي تحدَّثت عنه في فصل سابق ، فقد وجدت من أختها ما يريبها ، وجادلتها ، وقالت : يا أختاه أرى أن اهتمامك كبير في أخذ الثأر من ملك العراق ، يا أختي أنت على خطأ في مسلكك هذا ،

(٣٧) زنوبيا هي (الزبَّاء) واسمها نائلة بنت عمرو بن ضرب بن حسان من العماليق وقيل رومية .

فأنت إن قتلت ذهبتي وذهب ملكك ، ولكن أشير عليك بدهاء النساء ، الجأي إلى الحيلة والمكر واطلبي إليه بكتاب منك أن يضم ملكه إلى ملكك ، وأنك بحثت عمن يكون كفئاً بالزواج منك فلم تجدي سواه[٣٨] . ولما ورد كتاب زنوبيا إليه ، أشار إلى المقربين في أن يشيروا عليه بهذا الكتاب ، فوافق الأكثرية في أن يقوم بزيارة إليها ، غير أن (قصير) أحد المقربين من الملك عارض هذا الرأي ، وقال للملك : لقد وترت أباها وتريد منها الصداقة وأقسم بأن هذا ليس بالرَّأي ، وكانوا بمكان يدعى (بقَّة) بالعراق ، واختتم رأي مستشاريه برأي عمر بن عدي الذي كان يرى ما تراه المجموعة ، وتجهَّز بجيش لزيارة ملكة تدمر ، ولما قارب الجيش من شط الفرات طلب الأمر من قصير فقال : (ببقة تركت الأمر) ،وذهبت مثلاً عند العرب ، وقال للملك : حين تستقبلك الملكة بجيشها فلاحظ حركة جيشها ، فإن أحاطت بجيشك من الخلف فقد غدرتك ، وعليك (بالعصا)[٣٩] ، وإن سارت أمامك بجيشها فهي سليمة النيَّة ، ولما أبلغها رسل جذيمة بقدومه ، أقبلت إليه ، ولما قربت بجيشها وكان كثيفاً ، أحاطت بمؤخرة الجيش ، فعلم الملك بغدرها ، حسب ما أوصى به قصيّر ، ولم يأخذ بنصيحة قصيّر في أن يعتلي ظهر العصا ، ولما وجد قصيّر أن العصا تسير بدون راكب اعتلى ظهرها وذهب يسابق الريح فألقى الملك بنظره إليه ، وقال كلمته المشهورة : (حزم على ظهر العصا) ، وأما ما كان منها حين دخلت بالجيش استأثرت بالملك في خلوة وقالت لخدمها : ائتوني بطست من الذهب ، وألقت بثيابها وأرته ما خلق الله لها ، فإذا بشعر عانتها مجدولاً بضفائر خلفها وقالت للملك : (أدأب عروس ترى) ؟ وقال كلمة مفادها (أمر مريب وشر

(٣٨) وقيل أنها كانت تغزو بالجنود فخطبها جذيمة الأبرش ، فكتبت إليه إني فاعلة ، ومثلك من يرغب فيه ، فإذا شئت فأشخص إليَّ وكانت بكراً .

(٣٩) العصا من الخيل سريعة الجري ويقال لها (سابق) .

قريب)[٤٠] قالت : بلغني أيها الملك أن دم الملوك فيه شفاء للكلب ، وطلبت من الخدم فتح ألباب وقالت : احفظوا دم الملك ألا يتناثر خارج الطست لأن في تناثره طلب ثأره ، وقال كلمته المشهورة : (دعوا دماً ضيَّعه أهله) ، فأمرت بقطع راهشيه ، وتناثر جزء من دمه خارج الطست ، ثم جاءت بقطن وبللته من دمه ، وكانت تتشفَّى بشمِّ رائحة دمه بين حين وآخر .

أما ما كان من قصيرٍ فقد سلم بنفسه ، وظلَّ يسرع بالخطى حتى بلغ حدود العراق حين ماتت العصا ، ويقال أن هناك أثر يدل على مقتل العصا ومعروف قبل قرون طويلة (ببرج العصا) ، وسار إلى عمر بن عدي وطلب إليه أن يأخذ بثأر خاله وقال له كلمة مشهورة (أنت عاثر أم ثائر)[٤١] وطلب من عمر بن عدي أن يقطع له أنفه ويلهبه بالسياط على ظهره حتى يشتوي ، وقال عمر[٤٢]: لم تقترف ذنباً حتى تستحق هذا الجزاء .. وعرَّض قصيّر بعمر إن لم يفعل ذلك حتى ولو كان هذا التعريض بين قبائل العرب[٤٣]،ولما لم يجد وفاقاً بين عمر بن عدي وقائد الجيش اللذان تفاقم الخلاف بينهما .. اضطرَّ إلى أن يسعى لقطع أنفه ويقطعه ، ويجد من يلهب ظهره بالسياط ، وحين أقام أياماً وأثر فعلته على وجهه ، وفي ظهره حثَّ الخطى وسار ميمِّماً صوب ملكة تدمر (زنوبيا) ، ولما وصل تدمر ، استأذن بالدخول إلى الملكة ، وبعد التعرف على شخصيَّة الطارق أجاب (قصيّر) ، وبادلته الملكة مستفسرة : ما جاء بك يا قصيّر ؟ قال : يا مولاتي : زعم عمر بن عدي أنني قدمت بخاله إلى تدمر للقضاء عليه وها هو

(٤٠) قيل أنه قال بلغ المدى ، وجفَّ الثَّرى ، وأمر غدرٍ أرى ، فقالت : أما وإلهي ما بنا من علام مواس ، ولا قلّة أواس ولكنه بعض شيمة من أناس فذهبت مثلاً .

(٤١) قال عمر لا ثائر سائر فذهبت مثلاً .

(٤٢) قال لا ثائر سائر وذهبت مثلاً .

(٤٣) فحين رفض عمر بن عدي قطع أنفه ، وضربه بالسياط قال قصير (خلِّ عنِّي إذاً وخلاك ذم) فذهبت مثلاً .

فعله ظاهر أمامك قطع أنفي وألهب ظهري بالسياط ، وذهب فعل عمر مثل بين الناس (لأمر ما جدع قصير أنفه) ، وكان استقبال الملكة له حاراً وقالت : أنت مواطن فخري (كما يقال هذه الأيام) وقد أقطعته جزءاً كبيراً من الأراضي التي تتبع عادة ما تحتفل فيه الملكة من ضيوف لهم مكانتهم ، وذلك لغرض الوافدين لزيارة هذا الضيف المعزز المكرم ، وغالباً ما تكون قطع الأراضي مبنية على نسق جيد وتصلح إيواءً للقوافل من الإبل .

وظلَّ قصيّر فترة من الزمن يقيم فيها بكرامة في مدينة تدمر ، إلا أنه ضاق ذرعاً بالإقامة الطويلة في المدينة دون أن يحقق مأرباً ، وعليه أن يستأذن الملكة بالعودة إلى العراق وطلب منها أن تأذن له بعد ستة أشهر من إقامته ، ولم توافق له على السفر ، وأقام ستة أشهر أخرى وطلب منها أن تأذن له فرفضت أيضاً .

وجاء بعد ستة أشهر ثالثة مشيراً إلى الملكة بأن العراق فيها من الطرائف ما لم تجد له مثيلاً في تدمر ، فوافقت ، وقيل بأنها أرسلت معه أربعمائة بعير بعد أن أقنعها بأن لديه أموالاً كثيرة في العراق ويريد أن يجلبها تجارة لتدمر ، ولما وصل العراق ذهب سراً إلى عمر بن عدي وقال اليوم يومك ، لا تترك طريفة من طرائف العراق إلا أن تأتيني بها ، مع ما يلزم من (الميرة)[٤٤] وما يحتاجه أهالي تدمر ، مضافاً إليها أنواع فاخرة من الحرير والعطور والحلي والديباج والذهب الخالص والفضّة ، ولما وصل تدمر ، سُرَّت الملكة من هذه البضاعة وسرَّ أيضاً أهالي تدمر للكثير من الخيرات التي بدأت تتوفر من العراق ، بضاعة (قصير) وأقام ستة أشهر في تدمر ليطلب من الملكة مرة أخرى أن تأذن له بالخروج إلى العراق ، فوافقت على طلبه وزودته بقرابة ألف بعير ، وجاء إلى الملك عمر ابن عدي وطلب إليه أن يوفر له من الغذاء وما تجود به أرض العراق وكذلك

---

(٤٤) الميرة الاستزادة من الغذاء والمؤن .

طرائف الزينة ، وأشار إليه بأن يوم الثأر قد قرب ، أما ما كان من زنوبيا ، فقد توقعت أن يثور عمر بن عدي ليأخذ بثأر خاله ، وكان عليها أن تتعرَّف على ملامح عمر بن عدي لذا انتدبت لهذه المهمة من خيرة الرَّسّامين في مدينة تدمر ليذهب إلى العراق ويأخذ لها صورة لعمر بن عدي ، على أن تكون الصورة قائماً ، وقاعداً ، وراكباً ، ومكث المصوِّر مدَّة من الزَّمن ، وأخذ لها الصور بالأوضاع المطلوبة لعمر بن عدي ، وحين أتم المهمة عاد إلى تدمر وتعرَّفت إلى صورته ، ولما عاد قصيّر بحملته الثانية التي وفَّر فيها ما تحتاجه تدمر من غذاء وكساء وحلي ، أقام أيضاً ستة أشهر لتكون إقامته قرابة ثلاثة سنوات ، وعاد إلى الملكة يطلب أن تأذن له في السفر إلى العراق ، فرحَّبت بطلبه وأمدَّته بقوافل من الإبل يربو عددها على ألفي بعير كما يروى عن بعض المؤرخين ، وحين قدم إلى الحيرة طلب إلى الملك أن يستعدَّ للثأر ، وطلب قرابة أربعة آلاف جندي ، يحملون على هذه الإبل ويقال أن قصيّر أول من قام بعمل (الغرائر)[٤٥] ليقل البعير غريرتان لكل غريرة جندي بكامل عدته وسلاحه وغذائه ، كما يقال أيضاً أنه كان يصنع الغرائر بغرز يده ، ويعلم بها مجموعة كبيرة ممن سخرهم لهذه الغاية ، والغرائر من جلود الإبل ، وحين استعد لهذه المهمة قفل عائداً إلى تدمر بهذا الجيش وعلى رأسه عمر بن عدي ، وكان يكمن في النهار ويسير ليلاً ، ولما أقبل على مدينة تدمر قدم على الملكة ، وكان قدومه مبكراً صباح يوم من الأيام ، ولما خرجت لرؤية القوافل وجدت العجب ، فالإبل تتهصَّر[٤٦] بسيرها قالت :

(٤٥) الغريرة هي ما تثنّى من الشيء .. والغرائر تصنع من جلود الإبل .. وقد استعملها وحَذَق فيها قصير لتكون مأوى جندي للغريرة الواحدة على أن تكون كافية لمؤنة الجندي مع سلاحه أيضاً وحمل البعير غريرتان .

(٤٦) في الحديث : أنه كان مع أبي طالب (المقصود الرسول ﷺ) فنزل تحت شجرة فتهصَّرت أغصان الشجرة ، أي تهدَّلت عليه .

مالي أرى الجمال مشيها وئيداً أجندلاً يحملن أم حديدا

ودخلت القوافل مدينة تدمر ، وكان على أحد البوابات حارس حبشي أو (نبطي) تعجب من أن هذه الأحمال من نوع واحد فوكز برمحه حين دخل آخر بعير من هذه القوافل خاصرة أحد الغرائر ، وكانت بخاصرة أحد الجنود (فضرط) فقال الحبشي كلمة مشهورة معناها أن هذه الجوالق تحمل الشر ، ولما دخلت إلى حيث مكان إقامة قصير نزل الجند يترأسهم عمر بن عدي ، وخرج الجيش من مكامنه ، ولما أشار قصير إلى الملكة لعمر بن عدي تعرّفت إليه سابقاً وهرولت إلى القصر وكانت تحمل سمّاً تحت خاتم سريع التأثير في القتل ، وقالت كلمتها المشهورة (من يدي لا من يدك يا عمر) ، وتداركها عمر بن عدي قبل أن تهمّ بدخول القصر وقتلها وعاث جيش عمر بن عدي فساداً في المدينة وقضي على مملكة تدمر ، وكانت فعلة قصير أسطورة من أساطير التاريخ السياسي في العهد القديم من عهود العرب .

وقال ربيعة بن عوف السعدي في مقتلها :

يا عمرو إني قد هويت جماعكم ولكل من يهوى الجماع فراق

بل كم رأيت الدهر زايل بينه من لا يزايل بينه الأخلاق

طابت به الزَّبَّاء وقد جعلت لها دوراً ومشربة لها أنفاق

حملت لها عمراً ولا بخشونة من آل دومة رسله معناق

حتى تفرعها بأبيض صارم عضب يلوح كأنه مخراق

واهتصرت النخلة إذا ذلّلت عذوقها وسوّيت ، وهَصَر والشيء يهصره هصراً ، جذبه وأماله ، أو عطف الشيء الرَّطب .

وفي الحديث : كان إذا ركع هَصَر ظهره ، أي ثناه إلى الأرض ، وأصل الهصر : أن تأخذ برأس عود فتثنيه إليك .

وقال أبو حنيفة : الانهصار والاهتصار : سقوط الغصن على الأرض وأصله في الشجرة .

وأبو حذيفة يوم ضاف بجمعه   شعث النبيط فحومة فأفاق
وله معدّ والعباد وطيء   ومن الجنود كتائب ورفاق
يهب النجائف والبرائع حوله   جرداً كأن متونها الإطلاق
فاتت عليه ساعة ما إن له   فما أفاء ولا أفاد عتاق
فكأن ذلك يوم صم قضاؤه   رفد أميل إناؤه مهراق

وقال بعض الشعراء :

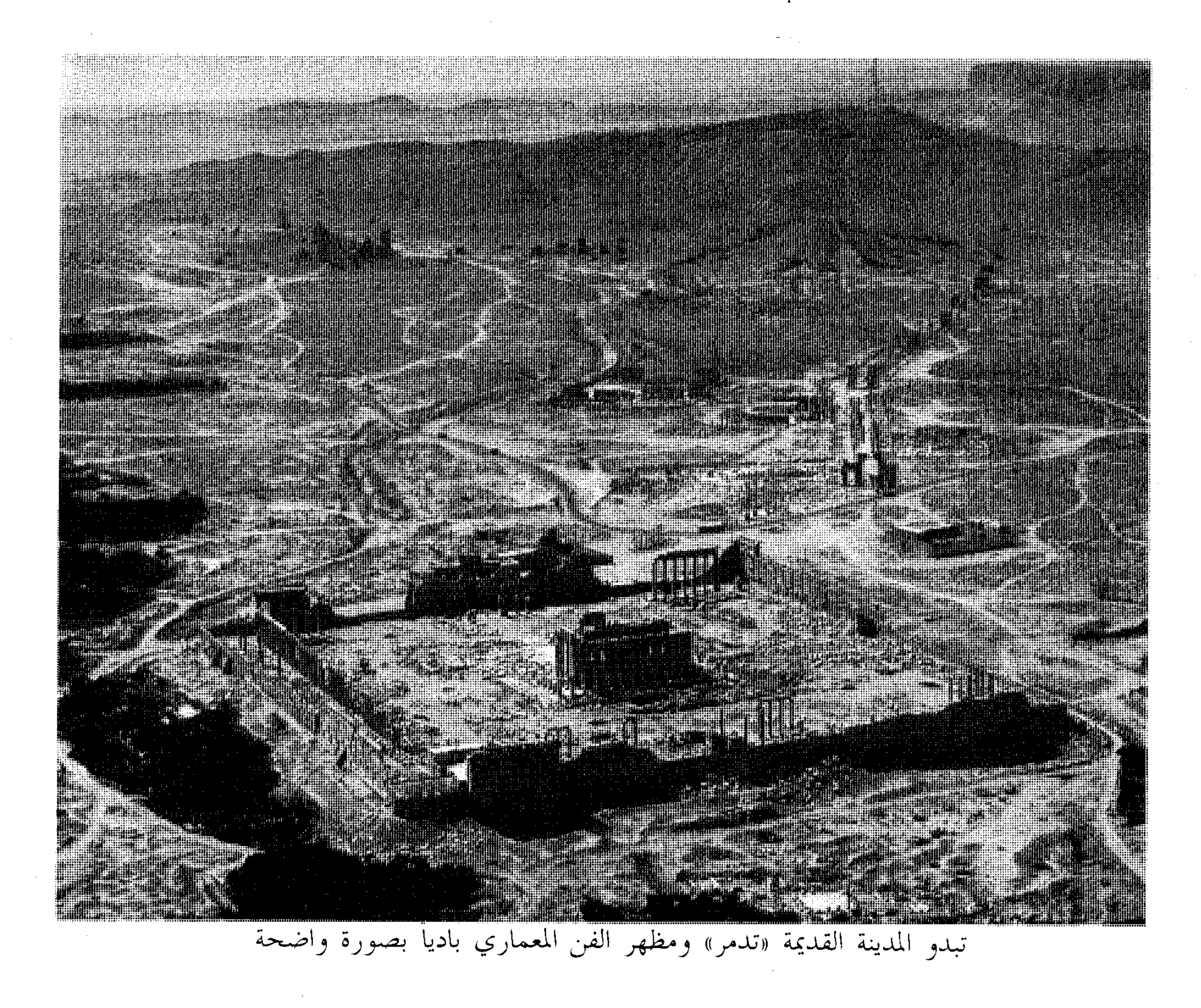
نحن قتلنا فقحلاً وابن راعن   ونحن حنينا نبت زبّاء بمنجل
فلما أتتها العير قالت أبارد   من التمر هذا أم حديد وجندل

وقال عبد باجر واسمه بهرا من العرب العاربة وهم عشرة أحياء ، عاد ، وثمود ، والعماليق ، وطسم ، وجديس ، وأميم ، والمود ، وجرهم ، ويقطن ، والسلف ، قال والسلف دخل في حمير :

لا ركبت رجلك من بين الدّلى   لقد ركبت مركباً غير الوطى
على العراقي بصفا من الطّوى   إن كنت غضبى فاغضبي على الركّي
وعاتبني القيّم عمرو بن عدي

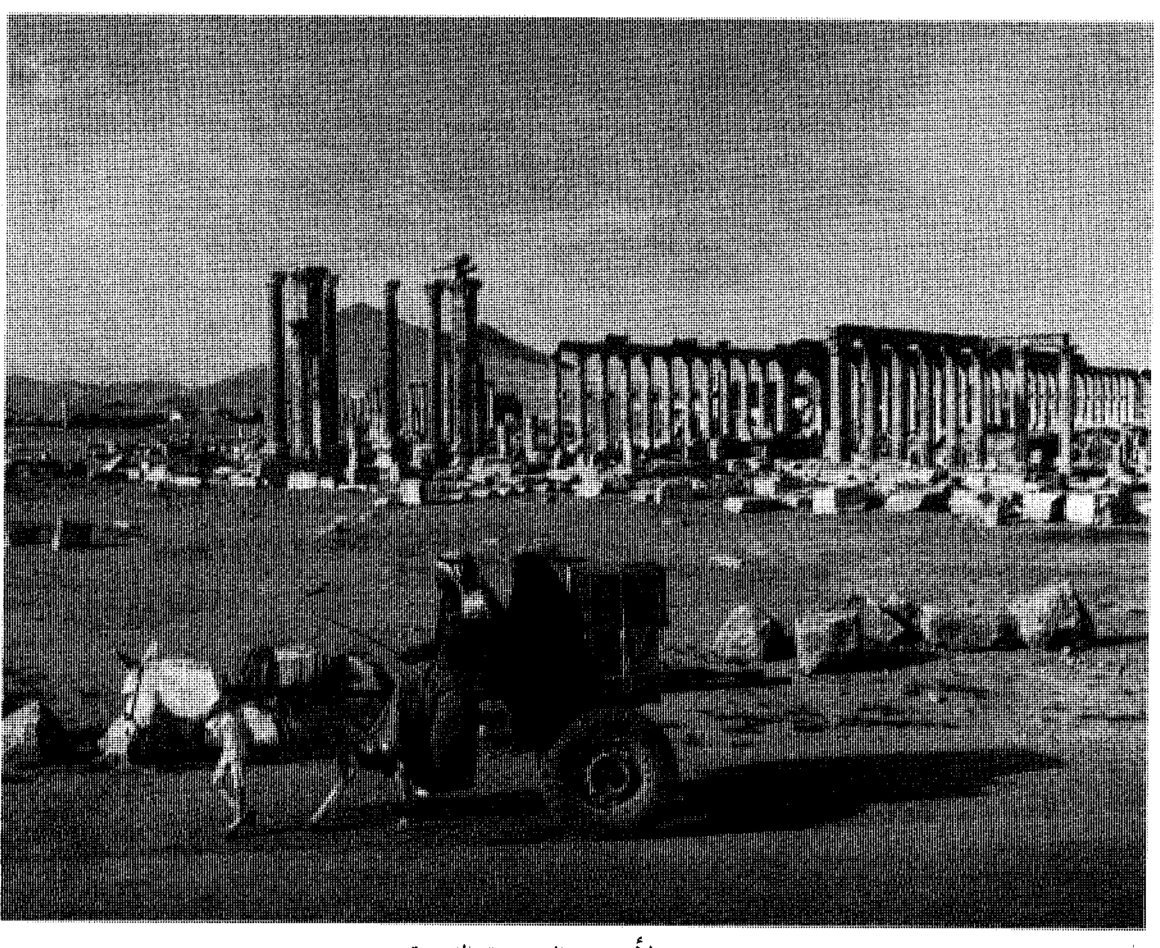
فصار الملك بعد جذيمة لابن أخته عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك .

وبذلك فمن المستبعد أن يكون صاحب القبر هو عمر بن عدي ، وقد يجوز أنه توفي في أحد مغازيه مما جعل تخليد ذكراه ، على ما خطّ فيه من كتابة ومكثت ساعتان أسيرها على قدماي يرافقني سائق السيّارة التدمري الذي كان يدفع الإثارة في نفسي من الدهشة التي تبدو على وجهه ، فهو خبير بالآثار القديمة لهذه المدينة كونه من أهلها وشعرت ببعض الإعياء ، فهناك أكثر من أثر تاريخي لم نستطع الوصول إليه خاصة المباني العالية على جنبات الشارع المؤدي إلى المدينة والتي تبعد قليلاً عن الطريق الرئيسي للمدينة ، وفي الساعة الحادية عشر بعد عودتي

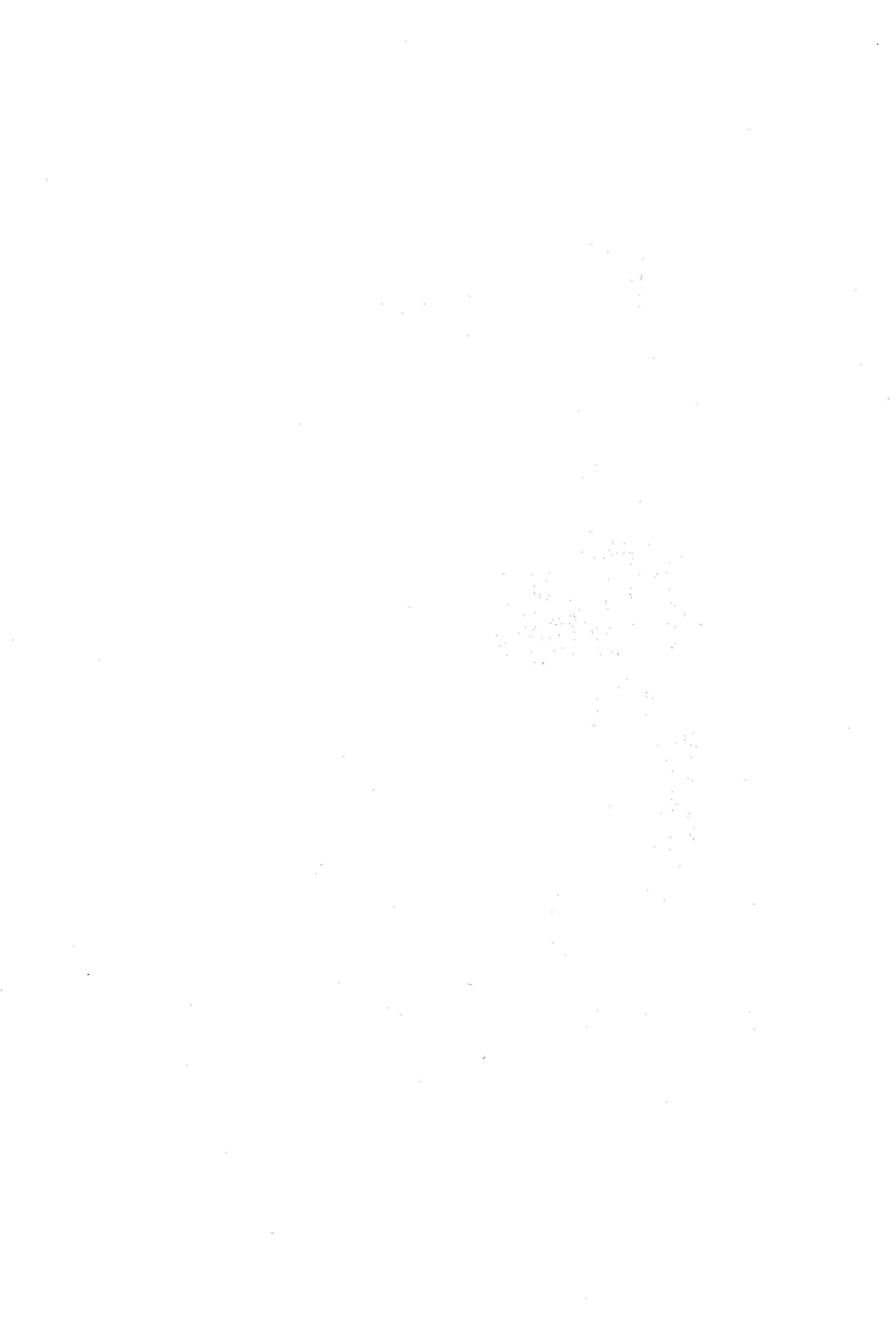


تبدو المدينة القديمة «تدمر» ومظهر الفن المعماري باديا بصورة واضحة





من بقايا الأعمدة التدمرية القديمة



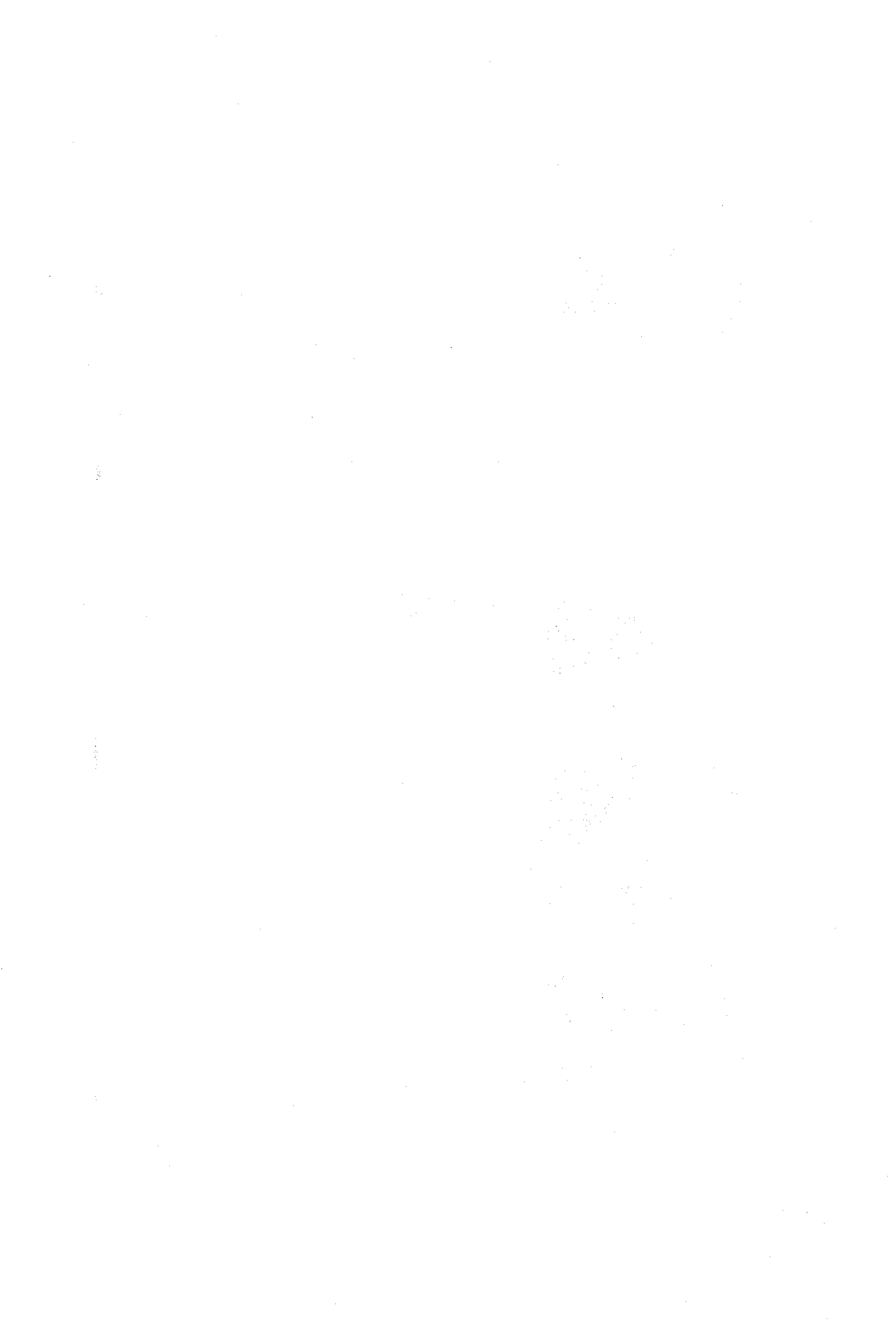


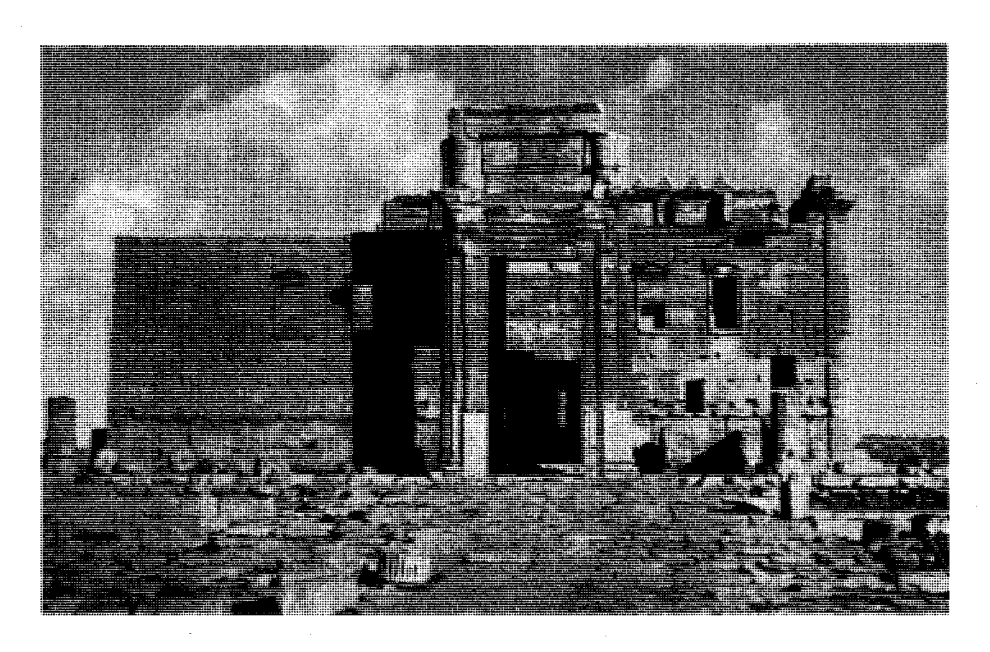
من آثار مدينة تدمر





«من آثار تدمر السياحية ويرى عدد كبير من السواح»





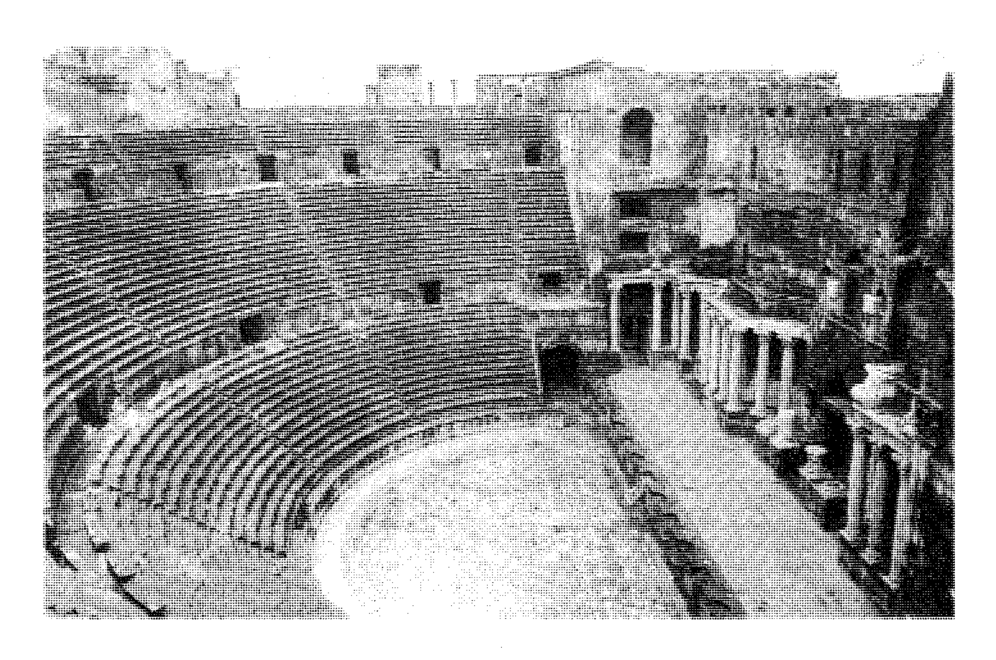
أحد المعابد في تدمر القديمة



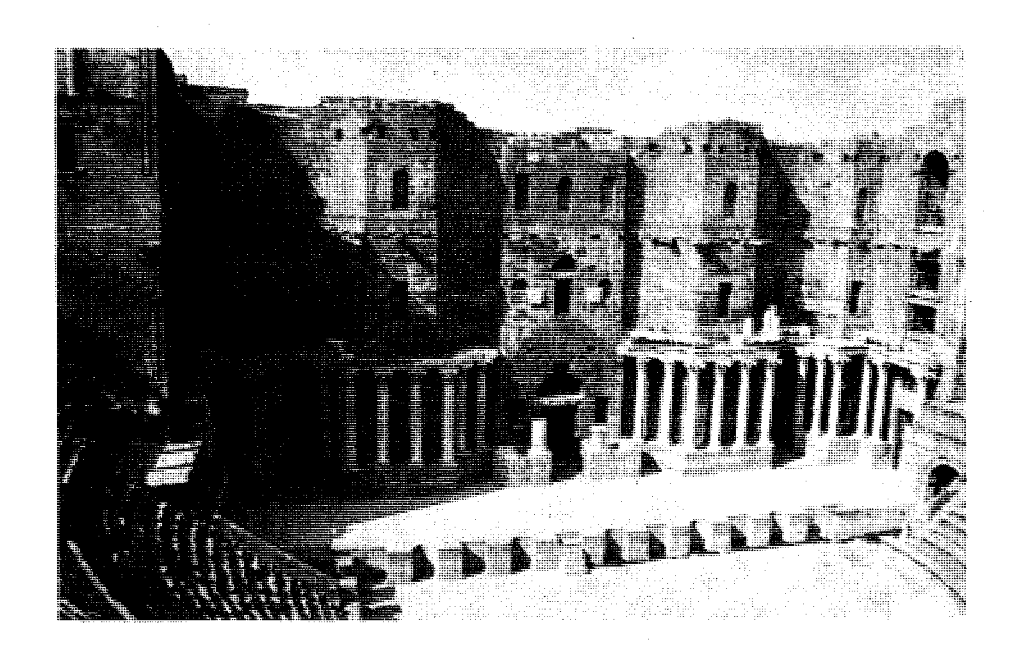
تدمر ــ مدخل رئيسي من مداخل المدينة الأثرية



قلعة بصرى «من الخارج»

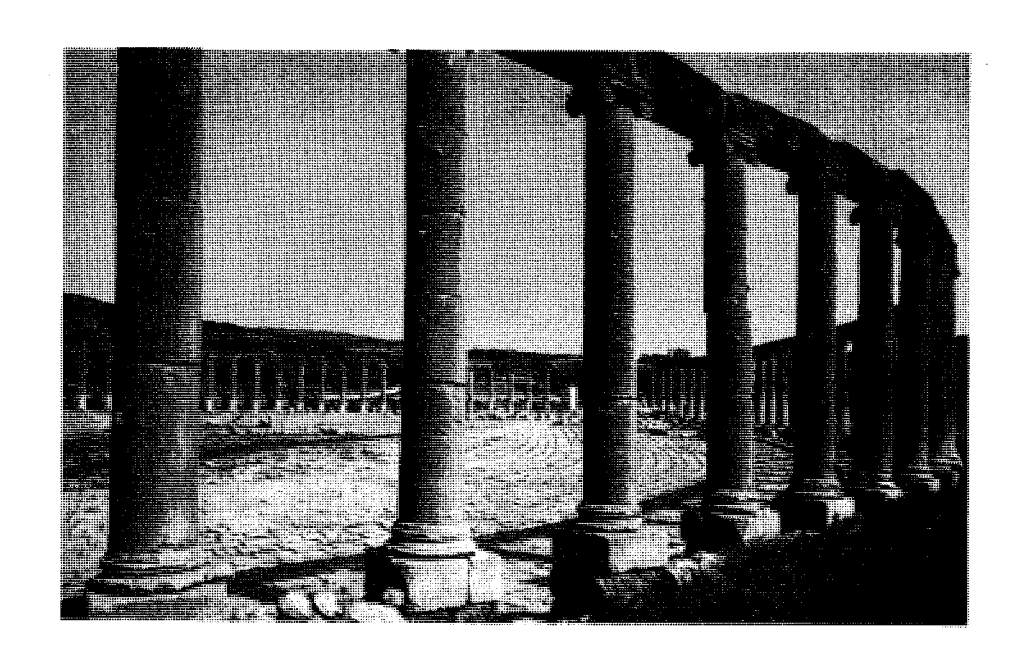


«مسرح بصرى الروماني»

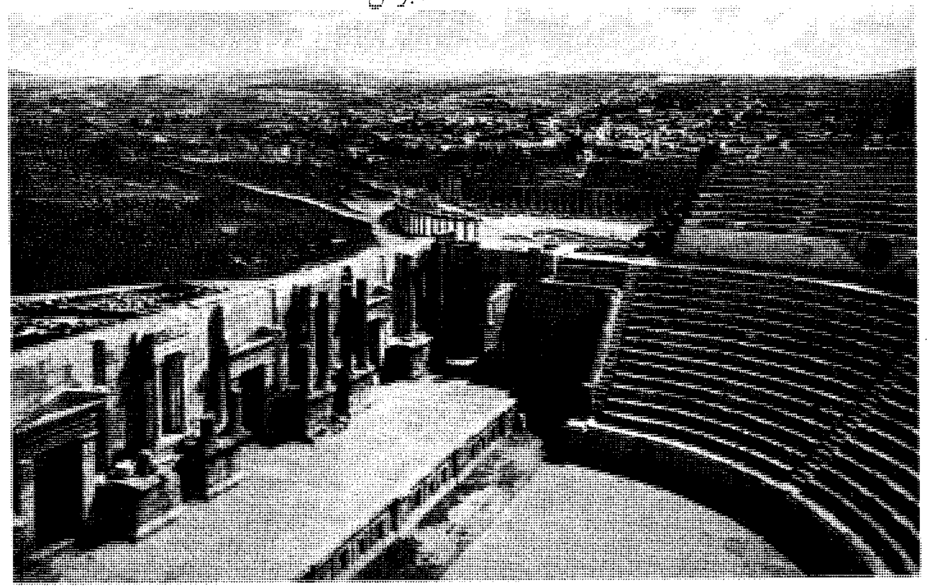


المسرح الروماني ــــ بصرى

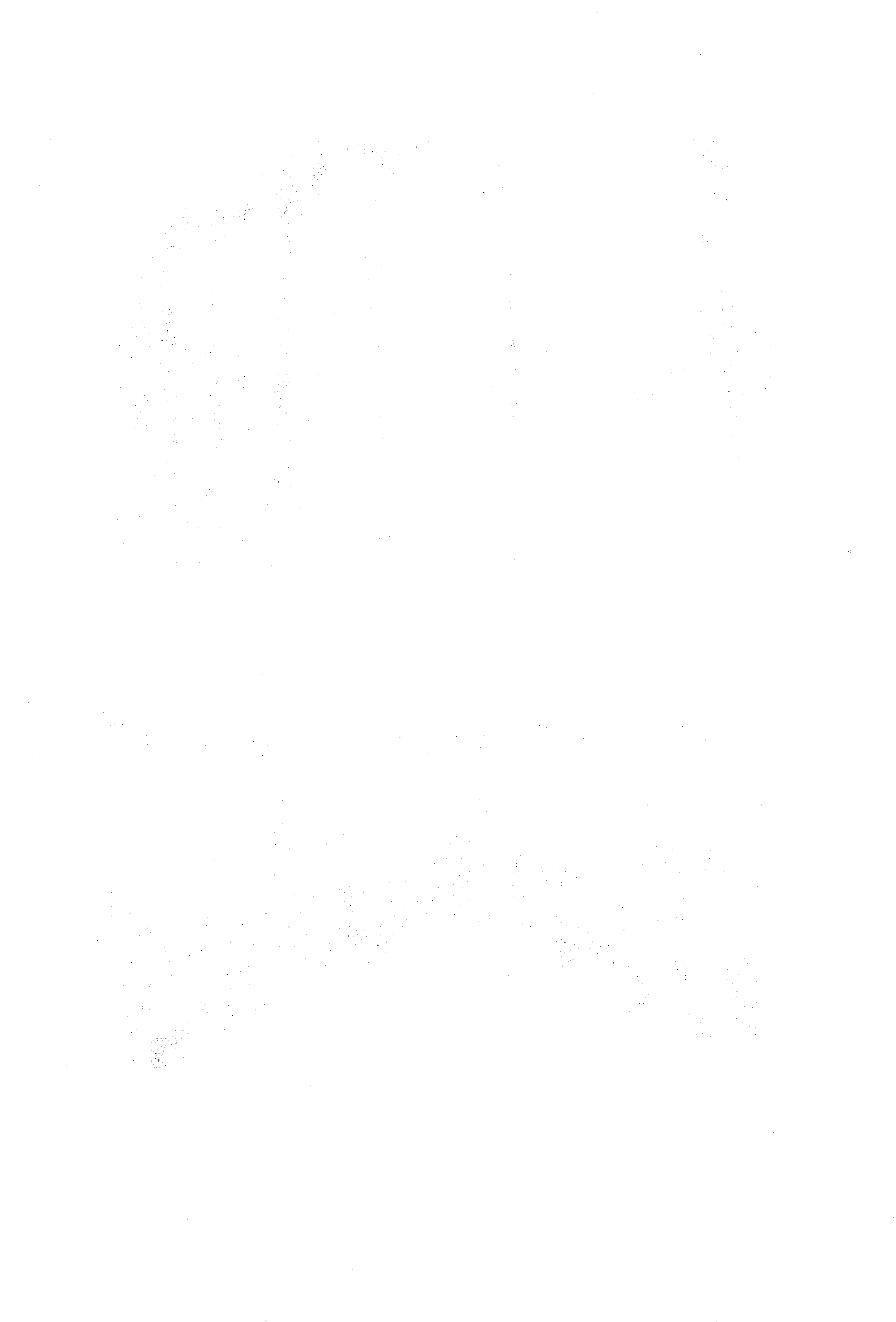




الساحة العامة بجرش



مدرج جرش الأثري «بالأردن»



إلى المدينة وفقت بسيّارة خاصة تعود إلى حمص ، وعندما عرضت عليه مبلغ عشرة ليرات تناولها وأعاد لي خمسة ليرات وسرنا و لم أصدِّق أن الرجل سيوصلني إلى مدينة حمص الميماس ، فقد ظننت أنه لا يصل وقد تشغله عني الإقامة في قرية أو ضاحية من ضواحي المدينة للمبلغ الذي ارتضاه .



الفصل العاشر :

(العودة من تدمر إلى مدينة حمص
ومن ثم إلى دمشق وحوران)

وفي حدود الساعة الواحدة إلا ربعاً وصلنا مدينة حمص ، والتي تحتضن ضريح (سيف الله المسلول) خالد بن الوليد رضي الله عنه والذي ارتضى الإقامة في هذه المدينة طيلة بقيَّة حياته ، وتوفي فيها حين قال جملته المأثورة بعد أن حضرته الوفاة بسبب الطاعون (حضرت أكثر من مائة معركة وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة من سيف أو طعنة من رمح وها آنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء) وقد يجوز أن كلمته كانت نحواً من ذلك .

كما يوجد بحمص إلى ما قبل خمسة وأربعين سنة ثلاثة وثلاثين مسجداً منتشرة في أنحاء المدينة وأروعها جامع خالد بن الوليد كما جاء في وصفه بكتاب (جولة أثرية في بعض البلاد الشاميَّة) بقلم المهندس الزراعي أحمد وصفي زكريا الصفحات ٣٥٨ ــ ٣٥٩ طبعة عام ١٣٥٣/هـ ــ ١٩٣٤/م وجاء فيه : (أما جامع خالد بن الوليد فمبني إلى الشمال من ظاهر حمص في الحي الخالدي ، الذي كان منفصلاً عن حمص لمضي نصف قرن ، وهذا الجامع بعد أن كان بناؤه القديم قويّاً ذا ركائز ضخمة ، وسقف عقد متين من آثار الملك الظاهر بيبرس فيما قيل ، رأى ناظم باشا أحد ولاة الشام في عهد السلطان عبد الحميد أن يجدِّده بما يليق بقدر الصحابي الجليل خالد بن الوليد فاستحصل من السلطان المذكور على ستة آلاف دينار عثماني أكملها بثمن الحلي التي كانت على الضريح ،

وهدم البناء القديم كله وشرع بالتجديد على نسق جوامع القسطنطينية ، فجاء عند ختامه في سنة ١٣٣١/هـ آية في الجدّة والروعة ، بمأذنتيه الرشيقتين ، وقببه البيضاء العالية الجميلة ، مما يعد زينة ومفخرة في غرة حمص .

وانطلقت أبحث عن سيارة أجرة متجهة إلى دمشق من مدينة حمص ، وركبت السيارة التي ينقصها راكبان وبمجرد انتظاري دقائق ، اكتمل الركاب الخمسة وسار بنا السائق دون أن أجد وقتا لأتناول فيه طعام الغداء ، ولكني على يقين بأن السيارة ستقف في أحد القرى للراحة ، وانطلقت بنا السيارة وبسرعة ، امتازت كثيراً عن مثيلتها بالأمس من دمشق ومررنا بالقرى وكبيرتها النبك وعلى أمل أن تقف السيارة ومع إنصات مجموعتي من الركاب ، ومع إغفال السائق تذكيرنا بالغداء وكأننا كمجموعة ترغب أن يستمر سير سيارتنا دون توقف ، ونعبر طريق النبك لندخل بعد هنيهة طريقاً يأخذ بالانحدار ويعوج بعد قطع مسافة حوالي ٧٠ كيلو متراً ، ويواصل السائق لنقطع يقيناً أنه لا توقف للسيارة دون دمشق ، وفي الساعة الثالثة إلا عشر دقائق نصل إلى موقف السيارات في دمشق لأبحث عن سيارة توصلني إلى حيث سيارات عمّان . لرغبتي في المواصلة وعرجت قبل أن أودع حقيبتي وفروتي السيارة المطلوبة إلى مطعم صغير وجدت فيه شواء للحم من الشاورما ، وطلبت على عجل حاجتي ثم انطلقت بعد الغداء بسيارة إلى حيث محطة سيارات عمّان ، وقطعت تذكرة وسرنا في حدود الساعة الرابعة ، لنعبر طريق دمشق درعا ، وأخذت السيارة تبعد عن دمشق رويداً ، وارتفعت بنا في طريق يأخذ كيلو مترات لينساب إلى مهبط مكان ونصل إلى مدينة (الكسوة) ، هذه المدينة التي تعج بحركة زراعية ضخمة فعلى يسارنا نشاهد رزماً كبيرة من الأعمدة الخشبية التي يستفاد منها في عدَّة منافع يحتاج إليها الناس ، كانت من أصغر شيء وهي أعواد الثقاب إلى المصنوعات الخشبية أو إلى السقوف للبيوت ونجد رزماً من القنَّب لصنع الحبال ، كما نشاهد أنواعاً من الفواكه

والخضراوات ، وتكثر جرز محزومة من الثوم الذي تشتهر فيه هذه المدينة ، والثوم على الرغم من أنه منفّر من رائحته ، ومنهي عن أكله قبيل الدخول إلى المساجد ، إلا أن له قيمة غذائية كبيرة تعالج أمراضاً شتى في الجسم ، منها ضغط الدم في القلب ، والسكري ، ويقال إن المناطق التي يكثر بها الثوم ينعدم بها المرض الخبيث (السرطان) والله أعلم ، إلى الجهة اليمنى من طريقنا تنتصب مئذنة جامع كبير في القرية التي تقع في غور ينساب به وادي ، وأخشى أن السكان الذين يبنون حول هذا المجرى ، يتعرضون إلى المخاطر نتيجة سيل جارف قد يتسبب في كارثة أو خطراً لمثل هؤلاء ولو أن أغلب المباني على ضفتي الوادي ، إلا أن هناك من عمَّر بيتاً أو أكثر قريباً من المجرى ، وتنتصب الأشجار السامقة فيه ونعبر الطريق لنستمر مسافة قليلة ولنصل إلى خان دنون ، وهي قرية زراعية دونها وعلى الجهة اليسرى ، توجد قلعة كبيرة مبنية على نسق فني جيِّد ، وبحجارة سوداء بازلتية وجاء اسم القرية على ما أعتقد من هذه القلعة والمسماة (خان دنون) فهذا الخان على ما يبدو كان لمالك يستغل هذه المنطقة زراعياً أو هو أحد موظفي الأتراك قديماً الذين يستأثرون بالسلطة ، فيبني مثل هذا البناء ، أو هو للسلطات التركية التي اهتمت في آخر عهدها بالمحطات التي تعني بسلامة الحجاج من بلاد الشام إلى مكة وذلك ليأمنوا غائلة اعتداءات البدو على هذه القوافل ، إذ أن الحكومة التركية استمالت إليها في خطط الدولة مشائخ البدو وكانت تدفع للشيخ ذي الشأن (الصّرة)[٤٧] السنوية من الذهب ، وحين تنقطع هذه الصرة يقوم رئيس القبيلة بإيعاز منه إلى أفراد قبيلته بالتعدِّي على أنظمة الدولة ، وسلب الحاج وقتله مع حاميته من الجند الذين يرسلون من الحكومة ، والأمان كان بقدر الأعطيات ، وبذلك فإن الاستقرار بهذه القرى

(٤٧) الصرّة : هي مبلغ من الدولة العثمانية يتفق عليه مع شيخ القبيلة لقاء تأمين منطقته من الاعتداء على محمل الحج .. وكذلك طريق المسافرين ، وقد يكون سنوياً أو شهرياً .

الواقعة على طريق القوافل أو غيرها حتى ولو كانت الدولة التركية تعزّزه بين آونة وأخرى بحملات تستهدف تأديب البدو ، إلا أن ثائرة هؤلاء تقوم بين وقت وآخر ، أما القرى الأخرى فقد كانت تفرض عليهم ما يطلق عليه اسم (الخاوة) وهذه الخاوة ريع يدفعه الفلاح للبدوي الذي قد لا يحضر أو يتابع مراحل المعاناة والتعب من الفلاح إلا حين يكدّس الأخير صومعة غلاله ، فيأخذ عشرها أو ربعها أو ثلثها أو أحياناً يناصفه إياها ، وقد تولّت الحكومة التركية لهذا الشأن ، بناء برك وحاميات على شاكلة (خان دنون) ثم تابعنا سيرنا إلى قرية غباغب ثم إلى قرية كبيرة اسمها الصنمين يوجد فيها مبنى كبير أيضاً من الحجر الأسود ، وقد يكون لنفس المهمة التي استحدث لها (خان دنون) ونتوسط سهل حوران في حدود الساعة الخامسة مساءً ، هذه السهول التي تنبسط فيما غربي سلسلة جبل الدروز ، الذي يبعد عنّا مسافة في حدود عشرين كيلو متراً ، وهو سلسلة تتعرج امتداداً وارتفاعاً تختلف من موقع إلى آخر ، وتربة حوران حمراء تميل إلى السمرة ، وتتشكل من موقع لآخر ، وهي من أخصب الأراضي في سوريا ، غير أن ندرة المياه في هذه المنطقة ، ما يدفع بالفلاحين إلى الاعتماد على مياه الأمطار التي قلَّ أن تجدب وإن أجدبت فقد تغني ماشية سكان هذه البلاد عن الماء ، غير أنه لا يبدو على المدن أثر الغنى ، فالسكان لا يزالون يعتمدون على المادة الحجرية السوداء البازلتية في بناء البيوت ، ونظام الحجرات للبيت قد تكون غالبا غرفاً متقاطرة ضمن سور عالٍ يُحكم بباب خشبي متين ليأمن الفلاح على أسرته ضمن هذا السور ، وقد تجد من يستغل أراضٍ كبيرة من هذه المنطقة فتختلف حاله عن من يتدنّى ضعفاً ماديّاً ، وذلك ليسر وتوفر الأيادي التي يمكن تسخيرها لفلاحة وبذار الأرض وحصادها ، ودرسها ، وتذريتها ، كما تنتشر بهذه البلدان الطواحين الميكانيكية لتوفير دقيق القمح الذي يعتمد عليه سكان هذه المناطق ، أكثر من المدن التي

قد لا يتوفر فيها لذَّة وطعم خبز القمح من الغلّة إذ أن الكثير الآن من يعتمد على الطحين الأبيض ، المنزوع من أليافه ، وتشتهر منطقة البلقا بالأردن وحوران بسوريا بهذه المادة ، إذ كانت هذه البلاد في الماضي تعتمد على جزء من النقل للقمح إلى البيدر في تسخير بعض البادية الذين يقايضون الفلاحين بالنقل على جمالهم (إبلهم) إذ يقوم البدوي بتأجير بعير أو عشرة مقابل جزء من الغلّة حين تنتهي مهمَّته في نهاية الحصاد(٤٨) إذ يتفق على (حمل بعير) لكل بعير غالباً من القمح والله سبحانه وتعالى قد حثَّ الخلق على أن يجهِّزوا أنفسهم ، وأن يتهيأوا للغلَّة كقوله تعالى : ﴿وءَاتُوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وتجاوزنا الصنمين وموقعاً قريباً للطريق وقد لا يتجاوز سبعة كيلو مترات قيل إنها مدينة إزرع وهذه تتبع جبل الدروز وجبل الدروز عامرته السويداء ، وصلخد ، وشهباء ، وسكان جبل الدروز هذا هم قبائل عربية عريقة قد يجوز أنها من ضمن الهجرات العربية من الجزيرة ، فهم يتصفون بالشجاعة والكرم الفائق ، وهم على علاقات وطيدة مع بعض القبائل ، وقد يشوب تاريخهم مع هذه القبائل بطولات وملاحم قتالية شُهد بها للدروز بالشجاعة ، وتحدَّث إليَّ أحد عبيد شيوخ عنزة عن والده ، قال التقينا بالدروز عصر يوم ، وكان هذا العبد مشهوراً بالشجاعة حتى عُدَّ وحده عن ثلاثين شخصاً ، وكما يروي هذا العبد عن نفسه إذ يقول لم أخف بحياتي يوماً سوى عصر ذلك اليوم ، واسمه (خيران من عبيد الملحم) شيوخ الحسنة ، يقول كان سلاحي سيفاً حين التقيت بدرزي مع المجموعة وجهاً لوجه ، وابتَدَرتْهُ خفَّة ورعب من ملاقاة هذا الشخص الدِّرزي ، قبل أن يتصرَّف أيُّهما بسلاحه ، إلا أنه يقول حين قابلني الدرزي كان يحمل بندقية ، ولما وجد أن سلاحي سيفاً ليس كفؤاً لسلاحه ، ضحك ضحكةً انبلج وافترّ ثغره منها عن أسنان عريضة بفم كبير ، يقول خيران : تطيَّرت من هذا المنظر ، وشعرت

(٤٨) ويسمى (الكراء) أو الرجاد كما تسميه البادية .

بخوف ورعب أعقبه رعدة ، أيقنت فيها هلاكي ، ويصف على لسان ولده بأنه غدا كخروف سهل التذكية ، وأضاف ولده قائلاً فالدرزي لم يقاومه بتصويب البارود نحوه لا ، بل قال له :(قابل الرجال مثل ما بقابلوك)(٤٩)، وأبَّط إحدى فخذيه ببندقيَّته ، وامتشق حساماً كان في جنبه ، يقول خيران إنَّهُ حين استلَّ سيفه غدوت جباناً رعديداً ، وفررت كأرنب برِّيٍّ تحت مهرة سابق ، ولولا تلك الفرس لذكَّاني كما يذبح الخروف .

والدروز على إثر معركتهم مع الفرنسيين بموقعة المزرعة عام ١٩٢٥ فرَّ جزء كبير من قادتهم وحاشية القادة إلى القريَّات ، وأقاموا فترة طويلة قد تتجاوز العشر سنوات وبنوا بيوتاً هناك ، وحفروا آباراً بالقريَّات ، وكان على رأسهم أميرهم سلطان الأطرش ، الذي بقي بأمان الدولة في عهد جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود رحمه الله ، وحين كان عبد الله الحواس رحمه الله أميراً للقريَّات آنذاك .

ولم يعد سلطان باشا الأطرش إلى قريته بجبل الدروز والمسماة (القريّة) إلا بعد أمان من قادة الانتداب الفرنسي ، والدروز فرقة من فرق الإسلام الكثيرة التي ضلت عن السلف وهم يعتقدون بأن الحاكم بأمر الله هو مثلهم الديني ، وقد أُلِّه الحاكم بأمر الله ، وكان دعاته في العصر الفاطمي يرون أن من قيامه باستحداث (دار الحكمة)(٥٠) أمر بالغ الأهمية في نظرهم ، وكونه يتصرف برعونة فيقتل ، ويعذِّب ، ويلغي في الشَّرائع ، ويسبّ الصحابة ويشتد في أمور الناس ، ويمنع عليهم حرياتهم في التَّصرُّف بالملبس والمأكل ، وقد يرسل العجائز

---

(٤٩) قابل الرجال مثل ما يقابلوك .. لهجة عامِّيَّة دارجة لدى الدروز والمعني بها تكافؤ السلاح .. فالدرزي لديه بندقية .. وهو مسيطر على قبيله غير أنه أبى أن يقتله بالبندقية .. فجرَّد عليه سيفه ليكون الند بالند .

(٥٠) قيل أن ذلك منهجاً كان يدرّس به الحاكم أو يملي بتعاليمه إلى من دعوا له بالألوهية .

لتتبع أخبار خاصَّة أمر الناس ، وضيّق على الحريّات الشخصية ، وأنزل الرعب في قلوب الناس ، كونه لا يرتدع عن أمر يخطر له فعله حتى ولو حارب أهل مصر ، وقد سلَّط عليهم رجال أهل النوبة حين تندّروا وسخروا منه فقتل من أهل مصر عدداً كبيراً ونهب أموالهم وسبيت أعراضهم .

ففي سنة ٣٨٦/هـ بدأت ولاية الحاكم بأمر الله .. بعد موت العزيز (الفاطمي) الذي ولَّى بعده ابنه أبا علي المنصور (الحاكم بأمر الله) وعمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر ، وكان بوصاية الخادم (بورجوان) الذي تولّى أمر داره وتدبير دولة الصغير .

فقد بايع له ، وأخذ له البيعة عن الناس ، وفي عهده انبسطت كتامة في البلاد ، وتطاولوا على الدولة ، واحتقروا شأن الصغير ، وقال بعضهم لا حاجة إلى من يتعبّدنا ، ومدُّوا أيديهم إلى الأموال العامَّة ، دون أن يحرِّك (بورجوان) ساكناً في وقت قوي به شأن الحسن بن عمَّار شيخ كتامة وسيِّدها ، وحكم بعد الاستيلاء على الدولة ولقب بأمير الدولة ، وهو أول من تلقّب في دولة العلويين[٥١] المصريين ، وقد أشار عليه بعض ثقاته بقتل الحاكم ، إذ قد اتَّفَق معه شكر خادم عضد الدولة ، وقد اتفق معه شرف الدولة ، وصارت كلمتهما واحدة ، إذ قبض على شرف الدولة وسيق إلى مصر .

وكتب بورجوان إلى منجوتكين يشكو ضيم شيخ كتامة ، وتجهَّز للخبر بجيش من دمشق إلى مصر .. ولما علم بن عمَّار ... أظهر لبورجوان وللناس بأنَّ منجوتكين قد عصى الحاكم بأمر الله وندب إليه العساكر لقتاله ، وجعل عليهم أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي .

فساروا إليه والتقوا به في عسقلان وهزموه بعد أن قتل من جيشه قرابة ألفي

---

(٥١) دولة العلويين بدأت من المغرب من عبيد الله الفاطمي ... ويقال لهم العبيديون ثم أصبحت (الفاطمية) .

رجل . وألقي القبض على منجوتكين وأسر وحمل إلى مصر .

واستعمل بن عمَّار أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي والياً على الشام . وعزل بن الصمصامة الكتامي .

وقد استطاع هذا الأخير بأن يبدِّد شمل كتامة حين عاد إلى مصر واتَّفق مع بورجوان على أن يكون ضد الحسن بن عمار سيد كتامة .

هذه الأحداث وما أعقبها سهلت لبورجوان أن يقضي على كتامة في مصر ، ويطلب من أهل الشام القضاء على الحسن بن عمار ، بعد عزل قائد الجيش بن الصمصامة الكتامي ، الذي مضى إلى مصر واجتمع مع بورجوان على الحسن بن عمار ، وانتهز بورجوان بعد كتامة عن مصر مع أبي تميم ، فوضع المشارقة على الفتك بمن بقي بمصر من كتامة وبابن عمار معهم . الذي انهزم واختفى ، وذلك ما هيأ (للحاكم بأمر الله) وبطلب من بورجوان في أن تؤخذ البيعة للحاكم بعد أن أجلسه ، وجدد له البيعة ، وكتب إلى وجوه القوَّاد والناس بدمشق بالإيقاع بابن تميم الكتامي ، فلم يشعر إلا وقد هجموا عليه ، ونهبوا خزائنه ، فخرج هارباً ، وقتلوا من كان عنده من كتامة ، وعادت الفتنة بدمشق ، واستولت الأحداث مما دعا بورجوان إلى أن يأذن للحسن بن عمار في الخروج من استتاره ، وأجراه على إقطاعه ، وأمره بإغلاق بابه .

وقد جرت أحداث كثيرة قبل تسلم الحاكم بأمر الله السلطة .

أما الحاكم نفسه فقد تعرَّض له المؤرخ (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي) في كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور فسلسل نسبه حين ذكر خلافته بأنه (الحاكم بأمر الله أبي علي منصور بن نزار بن المعز معد الفاطمي العبيدي» ومن أنه الثالث من خلفاء بني عبيد الله بمصر، تولّى الخلافة بعد موت أبيه العزيز بالله يوم الثلاثاء، سلخ من رمضان سنة ستة وثمانين وثلاثماية للهجرة، وكان مولده بالقاهرة في

يوم الجمعة ، سادس عشرين من جمادى الأولى سنة ثلاثمائة وخمسٍ وسبعين للهجرة .

فلما تولى الخلافة أظهر العدل بين الرعية، وسار في الناس سيرة حسنة على طريقة أبيه العزيز .

وانه أوفى ما قام به والده من بناء الجامع المعروف به إذ تركت أساسات المسجد فأكمله الحاكم سنة ثلاثمائة وثلاثة وتسعين للهجرة .

وألحق به جامع آخر لقبيلة اسمها راشدة من بني لخم، وسمي الجامع باسم القبيلة التي نزلت هناك . وأتبعه بمسجد المقسَّى الذي يُطل على نهر النيل .

ثم أفرد الحاكم لليهود في مصر حارة «زويلة» بالقاهرة وأسكنهم بها، وأصدر أمره في أن لا يخالطوا المسلمين في حاراتهم، في حين سبق له أن أمرهم بالدخول في الإسلام كافّة، فخافوا منه وأسلموا جميعاً، ثم أذن لهم بالعودة إلى دينهم، فارتّد في يوم واحد سبعة آلاف منهم .. ثم أمر بهدم كنائسهم، فهدمت ثم أمر بإعادتها إلى حالتها كما كانت عليه .

وكان يقوم في تدبير أمور القاهرة بورجوان الذي كان وصياً على الحاكم في صغره، والذي يمنعه من التصرف في شيء من أمور المملكة إلا برأي بورجوان، وقد غدا الحاكم كالمحجور عليه، فضاق ذرعاً ، وندب إلى بورجوان من قتله ، وصادر ممتلكاته من خزائن وضياع، حتى قيل أنه كل يوم يؤخذ أحمال مائتي بعيرلأيام طويلة ولمرتين في اليوم، وقيل أن التحميل دام أربعين يوماً على هذه الشاكلة، وأنه بإحصاء موجوداته .. فقد بلغ ما لديه من ذهب ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ مائتي مليون دينار أما من الفضة الدراهم فقد بلغت خمسين إردبّاً .

ووجد له من القماش مائتان وستين بقجة، ووجد لديه ألف قميص حرير اسكندري، ووجد من الجواهر والفصوص ما ضمن ١٢ صندوقاً، ووجد من الأواني والفرش ما لا يحصى هذا ما عدا الضياع، والأملاك، والدواب، والبهائم،

والعبيد، والجواري .

ويقال ان الحاكم بعد قتل بورجوان جّن تصرفاً فمن قول الذهبي أنه منع النساء من الخروج إلى الطرقات ومن التطّلع من الطاقات، والطلوع إلى الأسطحة، ومنع الخّفافين من عمل الأخفاف للنساء .

ومنع سائر النساء من الدخول إلى الحمامات، إذ مّر يوماً فأمر بأن يسد عليهن باب الحمام فأقمن بالحمام حتى متن فيه .

وقيل بأنه منع الناس من بيع الزبيب، وأمر بحرق مزارع العنب، وعدم بيع العسل الأسود إذ كسر اثني عشر ألف مطراً .

ثم انه منع أكل الملوخية، والقرع وكتب إلى الفلاّحين بألا يزرعوا منهما، ومن انه اّطلع يوماً على جماعة يأكلون الملوخية فطاف بهم شوارع القاهرة ثم ضرب أعناقهم عند باب زويلة .

وقيل أيضاً أنه منع الناس من بيع السمك الذي لا قشر له، وقد نهى عن أكل الرطب، وعن زرع الترمس، وأمر يوماً بقتل الكلاب فقتل نحو ثلاثين ألف كلب .

ثم انه أمر أن يوقد الشمع نهاراً وطلب من الناس أن يغلقوا الأسواق بالنهار ويفتحوها بالليل، وجعل الليل مقام النهار في جميع أحوال الناس كلها فامتثلوا ذلك واستمروا عليه دهراً فمرّ يوماً عصراً ليجد رجلاً مسناً يعمل، فانتهره «ألم أنهاكم عن العمل نهاراً» فقال : يا مولاي يا أمير المؤمنين، (أما كان الناس يسهرون بالليل ؟ وهذا من جملة السهر)، فتبسم وتركه .

ثم أعاد الناس إلى ما كانوا عليه بالعمل نهاراً، وكان يمنح بعض رجالاته ألقاباً ينزعها أحياناً منهم، وقد يبكي أحدهم لفقدها فيعيد اللقب إليه .

وقد أمر طائفة اليهود بأن يحملوا في أعناقهم قرامي خشب وزن القرمية خمسة أرطال إذا خرجوا إلى الأسواق، أما النصارى فقد أمرهم بأن يضعوا صلباناً

في أعناقهم من الحديد طول كل صليب ذراع، وأمرهم بأن يلبسوا المآزر العسلية عوضاً عن الشاشات، وأن لا يركبوا بهيمة في الأسواق .. واستمر بأمره ثم أعادهم بعد مدة إلى ما كانوا عليه ..

أما إبن خّلكان فقد ذكر حادثة غريبة للحاكم بأمر الله ومن أنه جَلَبَ صنماً من حضرموت (اليمن الجنوبي) وكان يسأل الصنم فيجيب . وقيل أيضاً بأنه دعا أصحاب المتاجر ألا يغلقوا متاجرهم ليلاً وقد أصبحوا في يوم من الأيام بشكوى زادت على أربع مئة سرقة في القاهرة فكان يحضر كل تاجر ويسأل الصنم عن الّلص السارق فيجيبه عن اسمه (اسم السارق) حتى بلغوا قرابة أربعمائة لص . ثم أمر بضرب أعناقهم وقيل أيضاً أنه بعد هذه الحادثة سادَ الأمن زمناً حتى أن رجلاً خرج من أحد المساجد وافتقد كيساً من الذَّهب في مكانٍ ما ليعودَ يبحث عنه ويجده بعد مدة أسبوع دون أن تلمسه يَد . هذه الحادثة قد يُشك في روايتها غير أن ابن خلّكان قد أشار إليها .

وطَلَب إلى الناس في المساجد حين يذكر اسمه أن يقوموا إعظاماً لاسمه، فكان يفعل ذلك في سائر أعمال مملكته، حتى في الحرمين الشريفين، وبيت المقدس وكان يسب الصحابة وكذلك يفعل عماله في الشام خاصة أبو بكر وعمر . وانه كان يركب حماره (القمر) وينزل عند باب جامعه، ويأخذ من يشاهد من غلمانه بعد أن لبس الصوف سبع سنين فيرقده على باب الجامع ويشق بطنه بيده، ثم يخرج مصارينه ويرميهم للكلاب، ويترك المقتول في مكانه، حتى يدفنه أهله . وكان يعذب بعض غلمانه بالنار .

وقيل أنه أبطل صلاة التراويح، وكان يوصف بأنه عنده شجاعة وإقدام، مع جبن وإدبار، وكان يحب الكرم، ويكثر من البخل، ويحب فعل الخير ويتبعه بشيء من الشرّ، ويحب العدل في الرعية ويتبعه بشيء من الظلم .

وجاء في بدائع الزهور أن نهر النيل في عهده لم يزد لا كثيراً ولا قليلاً ..

وقيل للحاكم أن هذا من فعل الحبشة قد حيَّروا مجرى النيل ، فأمر بطريرك النصارى أن يذهب إليهم ، ودخل على ملكهم فسجد له وأكرمه ، وسأله عن سبب قدومه ، فعرَّفه أن النيل قد نقص و لم يزد في مصر ، وقد أضرَّ ذلك بسكان مصر ، فأمر ملك الحبشة بفتح سدّ عندهم ، يغذي مجرى النيل فزادت مياهه في تلك السنة زيادة ملحوظة حتى أوفى .

وقيل بأنه اشتهرت في عهده سنة من السنين (ضائقة) على سكان مصر ، فزادت الأسعار وبلغت حدّاً لا يطاق ، وذهب الناس إلى قصر الزمرّد يشكون الحاكم هذه الضائقة فقال لهم :

إذا كان من يوم غد أتوجه إلى جامع راشدة ، وأعود ، فإن وجدت في طريقي مكاناً خالياً من الغَلَّة ضربت عنق صاحب ذلك المكان على بابه ، فخاف الناس وحملوا بمخزونهم إلى الطرقات ، وما بقي أحد من أهل مصر والقاهرة إلا وحمل ما عنده من الغلال ووضعها على طريق عودة الحاكم من جامع راشدة إلى قصر الزمرُّد .. واتَّفق مع أصحاب المؤنة على أسعار أصناف طعامهم في البيع بثمن معلوم ولا ينقص إلا تعرَّض للبلاء ، وسكنت بعد ذلك الشكاية التي كان عليها الناس ، وعمَّ الرَّخاء سائر أعمال مصر .. ويحكى أن الحاكم بأمر الله شديد البأس لايحيد عن أمر يطلب إلا بتلبيته .

ومن النكات المضحكة في عهده أن قاضياً في مصر كان إذا غضب من أحد الخصوم لبس طرطوراً[٥٢] فيه قرني ثور ثم يتراجع قليلاً وينطح الخصم الغاضب منه ، وسمي القاضي (نطاح) ، وعلم الحاكم بأمره فطلبه إليه وسأله : (ما هذا الأمر الذي قد اخترعته بين القضاة، حتى قبحت سيرتك بين الناس) ؟.

فقال له القاضي : (يا أمير المؤمنين أشتهي أن تحضر مجلسي يوماً ، وأنت خلف ستارة لتنظر ماذا أقاسي من العوام ، فإن كنت معذوراً فيهم ، وإلا عاقبتني بما

(٥٢) قبَّعة توضع على الرأس .. وكانت في العصر العباسي تأخذ شكلاً مخروطياً .

تختار ، فقال له الحاكم : (أنا غداً عندك ، أحضر مجلسك ، حتى أرى ما تقول) .

فلما أصبح قدم إلى القاضي واختفى وراء ستارة فأتى في ذلك اليوم خصمان بالصدفة .. أحدهما يدَّعي على الآخر بمائة دينار .

واستفسر القاضي من المدَّعى عليه فأقرَّ بالمبلغ قال : (إذن ادفع لصاحب الحقِّ حقَّه) .. قال : (يا سيدي القاضي أنا معسر في هذا الوقت ، فقسِّطوا عليَّ المبلغ على قدر حالي) .

قال القاضي: (نقسِّطها عليك عشرة دنانير كل شهر وعسى أن يقبل خصمك). فقال المديون: (لا أقدر على ذلك). فقال القاضي: (فلنقسِّطها خمسة دنانير ولعلَّ خصمك يرضى). فقال المديون أيضاً: (لا أقدر على ذلك). واستمر القاضي ينزل من قيمة الأقساط حتى وصل المبلغ (دينارٍ) قال المديون: (لا أقدر). وظل يخفض هذا القدر : حتى قال : (تكون عشرة دراهم في كل شهر وهو يقول لا أقدر على ذلك) .

فقال له القاضي : (وما القدر الذي تستطيع) ؟ قال المديون (لا أقدر على أكثر من ثلاثة دراهم في السنة الواحدة ، وبشرط أن يكون خصمي في السجن) .

فاشتد الحاكم غضباً وحُنقاً على الخصم ، وثارت عصبيته وهاج على القاضي قائلاً : (انطح هذا النحس وإلا أنا نطحته) .

وقد تعرَّض الحاكم إلى مارق على حكمه في ليبيا هو أبو ركوة (من سلالة هشام بن عبد الملك بن مروان) ، واستطاع بعد مدة طويلة التغلب عليه بدهاء وقتله .



الفصل الحادي عشر :

سيرنا من حوران
إلى الحدود السورية الأردنية

ونستأنف سفرنا إلى قنيَّة ، وقنيَّة قرية صغيرة فيها جامع ويتفرع من طريقنا طريق فرعي إلى الغرب قيل إنه إلى قرية اسمها جاسم ولو أنني لم أدخل هذه القرية بحياتي ولكنني أيقنت أنها قرية الشاعر العبَّاسي أبو تمّام الذي تركها مهاجراً إلى بغداد إلى حيث مقر إقامة الخليفة العبَّاسي وهو الذي أشاد بالبطولة النادرة حين تنادى إلى الخليفة المعتصم (استغاثة المرأة العربية المسلمة في عمورية) حين صاحت (وامعتصماه بعد أن أذلَّت) ولما اجتمع المعتصم إلى أولي الأمر والنهي من رجاله أشار إليهم بالإعداد ليوم يزلزل فيها عصمة هذه البلدة وبحصنها الشهير ، وحاول المنجمون أن يثبطوا من عزيمة الخليفة ، كون أن البروج وما يضرب بالرمل أو أن الوقت ليس مناسباً للإعداد إذ على أمير المؤمنين التريث ريثما يستطلعون ذلك في طوالعهم ولكن المعتصم جرَّد جيشاً حال سمع خبر صوت الاستغاثة من المرأة وغزا عمورية بالأناضول وفتحها ، وبها يقول أبو تمام عام ٢٢٣/هـ إذ كان الشاعر برفقة المعتصم فشهد الموقعة بنفسه :

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهنَّ جلاء الشكِّ والريب

إلخ .....

ونستمر في طريق درعا لنصل إلى شيخ مسكين القرية التي تبدو لا بمسمّاها

فهي قرية وإن كانت ملكاً أو إقامة في الماضي لشيخ مسكين ، أقول هذا لا عن تاريخ أرويه عن أصل تأسيس هذه القرية بل من مسمّاها فهي قرية كبيرة ، وآثار التجديد في البنيان تبدو بجانبي الطريق الرئيسي إلى درعا وهي تتوسط سهول حوران الخصبة ويوجد فيها بعض المرافق للحكومة وتستوقفنا عادة مفرزة من الشرطة تضع حاجزاً على الطريق ، غير أن سائقنا تمهل في سيره وئيداً ووقف عند الشرطي الذي يقف إلى يمين السيارة والذي أشار لنا بيده إيذاناً في المسير دون أن يدقق ، وما فعل هو قوَّة الملاحظة حين أجال بنظره إلى المجموعة ، واستخلص بيقظته إفساح المجال للطريق ، وسرنا الطريق الذي نسير عليه وكما يبدو قديماً وذلك من ترقيعات مثخنة بالإسفلت دون تناسق ، وكذلك فهو ليس من الطرق الحديثة المرفوعة المستوية ، فهو دون تحسين من وضعه ، كونه محفوفاً بخطر قد يلحق بالمسافر الأذى ، فسيارتنا أحياناً تطير عجلاتها حين تعتلي بقعة يتلوها مهبط يرفع أشلاءنا لينزلها تارةً أخرى ، أضف إلى أن جانبي الطريق أخطر أيضاً ، لأنها تحت عوامل التعرية ، من سيول أمطار إلى منابت تغطي بقعاً منها تكون متدنية كثيراً عن مستوى الطريق ، وقد تصل إلى ٣٠ سنتيمتراً ، مما يشكل خطراً على السيارة فيما لو تأخذ ملفاً طارئاً ، هناك طريق يتفرع من طريق درعا شيخ مسكين إلى الشرق يصل هذه المناطق ببصرى ، وبصرى من مدن الشام التاريخية المأهولة بالسكان فيما مضى والتي تحتضن تحفتها مسرح بصرى أمّا اليوم فهي مدينة صغيرة لا كما كانت في الماضي فمن المسرح الذي يقع ضمن بناء يقارب الشكل السداسي يتبين لك هذه الكثافة السكانية في الماضي ، وبها مسرح يعتبر من أحدث المسارح الرومانية القديمة كونه مبنياً من الحجارة البازلتية لا كما في جرش أو عمّان عاصمة الأردن .

وتمنَّيت لو أن الوقت كان كافياً ، إنني أسير وأنا أحسب الأيام ، فأنا اليوم في ١٣ من ذي الحجة لعام ١٣٨٤ وأحثُّ الخطى الآن للعودة إلى القريّات مقر

عملي ، إذ ليس لي الوقت الكافي في زيارة هذه المدينة لأصف ما بها ، وعليه فقد كنّا نسير في عصر هذا اليوم وحساباتنا ، كيف يمكننا اجتياز الحدود السورية الأردنية قبل الغروب ، وهذا أعتقد أنه من المستحيل إذ أن من المحتمل إنجاز أوراقنا قبل السادسة مساءً ولكننا سنصل الحدود الأردنية في الساعة السادسة وقد نتأخر للسابعة لكثرة السيارات التي تحتاج إلى إجراءات رسمية تقليدية ، ونستمر في سيرنا لنخترق قرية أبطع ، وقرية داعل وكلا القريتين صغيرتان ولو أنهما تحاطان بمساحات واسعة من الأرض الخصبة ، وقد أشير إلى وجود طريق يتفرع إلى الغرب للمزيريب والمزيريب هذه يوجد فيها بجَّة مياه كثيرة فوق سطح الأرض لتشكل بحيرة صغيرة وقد كانت في الماضي مسرحاً لأحداث قد ذكرنا عنها نبذاً في عرضنا السابق ، فقد أورد ابن بشر في كتابه عنوان المجد في تاريخ نجد الجزء الأول صفحة ١٥٠ ـــ ١٥١ ما جاء من أحداث ١٢٢٥/هـ حين سار الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود من الدرعية لثلاثٍ خلون من ربيع الثاني بثمانية آلاف لغرض تأديب بعض القبائل من بادية الشام والذين انهزموا حين بلغهم النذير إلى الأغوار فقد نزل عين البجة وروى منها المسلمون ، وشربت خيلهم وجيوشهم ثم أقبل على قصر المزيريب ، فظهر عليهم من خيل فحصل طراد ، فانهزمت الخيل إلى القصر واحتصروا فيه . إلخ ... مما أسلفنا عنه ، ثم سرنا إلى قرية صغيرة اسمها عتمان ، واستأنفنا سيرنا إلى درعا والتي تعتبر مدينة كبيرة من مدن حوران ودرعا هذه اسم جديد لهذه المدينة ، فالمعروف تاريخياً أنها (أذرعات) وليست درعا كما في بطون كتب التاريخ ، ولا يزال البدو كما سمعت يطلقون عليها هذا الاسم (أذرعات) وليست درعا ، وأمّا عن (أذرعات) فهي من الثغور القديمة والتي عاصرت عهود موغلة في التاريخ ، فقد افتتحت حين كانت درباً لحملات المسلمين منذ الفتح لمدينة دمشق ،وقبل هذا الفتح في الانتصار الساحق الذي حققه المسلمون في معركة اليرموك

الشهيرة ، إلى عصر المماليك وإلى ما بعد هذا الوقت ، والمدينة كما يبدو قسمت قسمين قسم حديث وهو الشمالي ، وقسم جنوبي يقع على رابية ويتميز من حيث المباني فالقسم الشمالي أحدث بنياناً ، إذ يتميز ذلك من واقع البنيان فالجنوبي لا يزال العمران فيه تقليدياً من الطين والحجر أو الحجر ، أو الطين أحياناً كما يستطيع المشاهد تبين قدم تاريخ القسم الجنوبي من (أذرعات) وندخل الجمارك السورية الساعة الخامسة والثلث ، ونجتاز الإجراءات الرسمية في تخليص جوازات سفرنا وإلقاء النظر من موظفي الجمارك على محتويات سيارتنا ، وتسير بنا السيارة باتجاه الحاجز النهائي للجمرك ليؤذن لنا بالخروج من الحدود السورية إلى حدود الأردن التي قد لا تتجاوز كيلو مترين تقريباً ، وندخل الحاجز الجمركي في حدود الساعة السادسة إلا ربعاً مساءً .

الفصل الثاني عشر :

من الحدود الأردنية
إلى عمّان العاصمة

الجمرك الحدودي للأردن هو في مدينة (الرمثا) المدينة التي لا يميزها عن بقية المدن السورية شيئاً كان ذلك من حيث طراز المباني أو اللهجة القومية للسكّان وننجز إجراءات الجمارك في حدود السادسة والنصف بعد غياب الشمس ، لنستأنف سفرنا إلى عمان ، ونعبر الطريق الذي يجانب مدينة الرمثا من الجهة الشرقية فموقع المدينة غربي الطريق وقد أورد في (تاريخ الأردن) في القرن العشرين تأليف منيب الماضي وسليمان موسى طبعة ١٩٥٩/م نبذاً قليلة عن هذه المدينة حين أشار إلى سنجق عجلون في الصفحة السابعة من كتابهما بالتقسيمات الإدارية قولهما (قررت الحكومة العثمانية سنة ١٨٥١ أن تؤلف وحدة إدارية باسم سنجق (قضاء) ، من المنطقة الممتدة بين نهري اليرموك شمالاً ، والزرقاء جنوباً ، وعيَّنت قائمقاماً لهذا السنجق جعلت مركزه إربد ، وكان هذا السنجق يضم نواحي الكورة وبني جهمة والسرو والوسطية وبني عبيد والكفارات ، وجبل عجلون وجرش أما الرمثا (التي نحن بصدد التحدث عنها في هذه العجالة برحلتي هذه) والقرى المحيطة بها شرقي وادي الشلالة فقد ألحقت بسنجق حوران وكانت منطقة غور الأردن الشمالية تابعة لقائمقامية طبريا ، وقد ألحقت الحكومة العثمانية هذا السنجق بمتصرفية حوران ، وكانت جرش وعجلون ناحيتين تابعتين لقائمقامية إربد ، بينما كانت ناحية الرمثا تابعة إلى درعا

مباشرة (أما عن قضاء البلقاء فجاء ما نصه) :

(يمتد هذا القضاء من وادي الزرقاء شمالاً إلى وادي الموجب جنوباً ، وفي النصف الأخير من القرن التاسع عشر عينت الحكومة قائمقاماً لهذا القضاء مركزه بلدة السلط ، وجعلته تابعاً لمتصرفية نابلس ، وقامت الحكومة كذلك بإرسال قوة عسكرية اتخذت من قلعة السلط مركزاً لها لتوطيد الأمن وفرض قسط من النظام في المنطقة وفي عام ١٩٠٥ فصل قضاء البلقاء عن متصرفية نابلس وألحق بمتصرفية الكرك وكانت تتبع هذا القضاء مديريتا ناحية في عمان والجيزة) .

أما ما ورد عن متصرفية الكرك في الصفحة الثامنة للمؤلفين عن التقسيمات الإدارية فجاء فيه (بقيت المنطقة الجنوبية دون حكومة بعد انسحاب إبراهيم باشا إلى أن كان عام ١٨٩٤/م عندما أوعزت الحكومة العثمانية في الآستانة إلى والي الشام رؤوف باشا للعمل على احتلال المنطقة وتوطيد الأمن فيها ، وفعلاً سيَّر الوالي حملة عسكرية وعيَّن حسين حلمي باشا متصرفاً للواء الكرك ، وقد استقبل شيوخ الكرك هذه الحملة قبل وصولها وطلبوا من المتصرف إعلان العفو العام عمّا وقع في البلاد من جرائم حتى ذلك التاريخ فأجابهم إلى طلبهم وخصَّص لهم رواتب شهرية تتراوح بين خمسين ريال مجيدي وثمانية ريالات ، مشترطاً أن يكونوا هيئة انضباط تساعد في إقرار الأمن ، ثم دخلت الحملة الكرك واحتل رجالها القلعة ورفعوا عليها العلم العثماني .

كانت الحكومة العثمانية في بادىء الأمر قد قررت أن تكون معان مركزاً لمتصرفية اللواء وأن تكون الكرك والسلط والطفيلة قائمقاميات تابعة لمعان ، واعتبرت حدود هذا اللواء وادي السرحان شرقاً ، نهر الأردن ، البحر الميت ، وادي عربة غرباً ، نهر الزرقاء شمالاً ، وأن يكون اللواء مرتبطاً بوالي سوريا في دمشق ، ولكن الأهلين احتجوا على هذا الإجراء ورأت الحكومة أن موقع الكرك أكثر ملاءمةً ، فأصدر السلطان أمراً باعتبار الكرك مركزاً للواء ، وجعل

أقضية معان والسلط والطفيلة .

بنى المتصرف حسين حلمي باشا داراً للحكومة مقابل القلعة القديمة وجامعاً إلى جوارها وعمل على إصلاح القرية لتكون مسكناً للجنود ، ثم بدأ بفرض الضرائب على الأهلين وفتح مدرسة ابتدائية وبعد ثلاث سنوات عين للمتصرفية خلفاً له صادق باشا شقيق الصدر الأعظم كامل باشا وكان رجلاً مرتشياً معتمداً بمركز أخيه ، وفي عهده قطعت الحكومة رواتب المشائخ مما ترك أثراً سيئاً في نفوسهم وجعلهم يفكرون في الانقضاض والثورة ، ولكن والي دمشق علم بما يبيته الشيوخ فأرسل قوة إضافية من الفرسان بقيادة خسرو باشا الشركسي المعروف بشدته وبسالته فأخلد الأهلين إلى السكينة خوفاً من بطش الدولة .
وتولى المتصرفية من بعد ذلك رشيد باشا وكان رجلاً قانونياً محباً للعمران أنشأ في الكرك مدرسة من تبرعات الآهلين وباشر بتجديد بناء الجامع العمري ، كما أنشأ داراً للحكومة في السلط وأخرى في الطفيلة وفي عهد هذا المتصرف بدأ أهل الكرك ببناء قرى جديدة في منطقتهم .

نقل رشيد باشا قبل أن تجيب الحكومة طلبه بتأسيس محكمة نظامية في الكرك وخلفه مصطفى بك العابد شقيق عزت باشا العابد صديق السلطان عبد الحميد ، وكان رجلاً مغروراً يقبل الرشوة علناً ولا يبالي بأحد وفي عهد هذا المتصرف تشكلت في الكرك محكمة نظامية عام ١٩٠٢[٥٣] .

أما ما جاء بكتابة المؤلفين[٥٤] عن العقبة في الصفحة التاسعة فهو التالي : (كانت العقبة قديماً تعتبر تارة في الحجاز وتارة أخرى في سوريا ، وتارة ثالثة في مصر ولم تنسحب قوات محمد على المصرية من العقبة عام ١٨٤١/م

(٥٣) تاريخ سيناء تأليف نعوم شقير .
(٥٤) المؤلفين منيب الماضي ، وسليمان موسى .

عندما تم انسحابها من سوريا وفلسطين ولذلك بقيت العقبة تابعة لمصر حتى عام ١٨٩٢/م عندما انسحب المصريون منها وألحقت بالحجاز ولكن في هذه الفترة نشأ خلاف بين الحكومتين العثمانية والبريطانية على ملكية جزيرة سيناء ، وأصرت بريطانيا على إلحاق سيناء بمصر وأنذرت الدولة العثمانية باستعمال القوة إذا لزم الأمر ، ولهذا السبب اضطر السلطان إلى الرضوخ وألفت الحكومتان لجنة مشتركة لتعيين الحدود . وفي يوم ١ تشرين الأول سنة ١٩٠٦/م وقَّع الطَّرفان على اتفاقية ، تقضي بأن تشكل الحدود بين الدولة العليَّة والدولة المصرية خطاً مستقيماً من رفح إلى رأس خليج العقبة على رأس وادي طابا ، أما بلدة العقبة فقد ألحقت بمحافظة المدينة المنورة ، وكان شأنها قد عظم أثناء حملة الدولة العثمانية على اليمن وعسير ، إذ غدت محطة للحشود والإمدادات ، وفي سنة ١٩٠٥/م ، وصل إليها خط التلغراف من معان ، وقد كاد يؤدي الخلاف على الحدود إلى الحرب بين الامبراطورية العثمانية وبريطانيا ، لذلك حشد الأتراك قوة لا تقل عن ألفي رجل مقاتل في العقبة ، بينما جاء الانكليز بطرادين حربيين وقوة من الجيش المصري إلى الخليج .

من مسيرنا في شرق المدينة (الرمثا) نلاحظ أن هناك تجديداً بطيئاً يقل عن مدينة درعا ، ولو أن سكان هذه المدينة يشتهرون بالمثابرة والجد والنشاط ، فهي لا تزال تحاول السبق ، إلا أنها لم تلحق إلى حينه عداد المدن الشهيرة ، كعمّان والزرقاء وإربد ، وتجاوزنا حدود المدينة لنستمر في طريق أفضل بكثير من طريق درعا دمشق ، فطريق الرمثا جرش عمّان ، يعتبر من أجود الطرق التي شاهدتها في العالم العربي ، رغم ضآلة الموارد في هذه الدولة ، ومضينا حوالي خمسة كيلو مترات ليعترضنا تقاطع طريق فرعي هو طريق إربد المفرق ، أما الطريق لجرش فمكلفاً لا سيّما وأنه يتعرَّج في جبال عجلون الشهيرة هذه الجبال المكسوة بالشجر عكس ما كنّا نشاهده في الطريق من دمشق إلى حمص حين نعلو هضاباً

جرداء إلا من شجير صغير يصلح رعياً للماشية نشاهد هذه المناظر في غسق أخذ يظلم كثيراً ، إلى الدرجة التي لا نستطيع بعد ربع ساعة أن نتبين شيئاً غير نور السيارة في الطريق ، ونأخذ مسافة في حدود ربع ساعة أو تزيد لنشاهد أنواراً تتلألأ في مدينة جرش الأثرية غير أن الطريق وللأسف غير مضاء إلا من مقاهي تستخدم الأتاريك ، (اللكسات) للإنارة ذات الوقود النفطي و لم نستطع تبين آثار هذه المدينة القديمة ، والتي تعتبر بحق من أقدم ما يمكن أن نتحدث عنه ، فآثار جرش كانت محطاً لأنظار أباطرة الرومان القدماء ، ولو لم تكن منطقة جرش بالأهمية التي تليق بها ، كان ذلك من الناحية الاقتصادية أو البشرية ، لما أوصلها هؤلاء الأباطرة إلى مثل هذا الفن من التمييز والآثار كما شاهدتها قبل هذه المرة صورة رائعة لمنتهى الإبداع الهندسي .

ونسير في طريق ، والريبة تنتابنا من مغبَّة سرعة السيارة التي تأخذ الملفات ، وكنا باستمرار في يقظة وحذر نطلق ألسنتنا على السائق الذي على ما يبدو يعرف هذا الطريق ، وكأنما هو مرسوم في ذهنه ، ولكن خوفنا ناتج عن الخشية من خلل قد يقع في أحد إطارات السيارة ، مما سيعرِّضنا إلى كارثة .

ونشاهد أنواراً تتلألأ بين الفينة والأخرى على جوانب الردهات الموغلة في العمق لتهبط في مكان وتعلو مستوى سيرنا في أخرى ، غير أنها قليلة ، والإنارة ليست كهربائية غالباً ، ونأخذ مسافة طويلة قد تتجاوز أربعين كيلو متراً من جرش ، لتتلألأ لنا إنارة العاصمة ونهبط في غور طويل ينبسط ليكون كيلو مترات محدودة ننسى فيها مخاطرنا بالطريق ، ونلاحظ دوراً وإنارةً في هذا السهل ولكنها ليست المدينة عمّان فهي قرية بدأت تنشأ في هذا المكان اسمها (البقعة) .

ثم تأخذ السيارة حوالي خمسة كيلو مترات لتبدأ في الارتفاع إلى صويلح مروراً بماحص وندخل عمّان في حدود الساعة الثامنة إلا ثلثاً ، وتقف سيارتنا عند محطة تكاسي عمّان دمشق لأنزل منها إلى مكان قريب ، وأستدل إلى فندق

ليس بعيداً عن المحطة وأقيم فيه ، لأذهب بعد قليل أبحث عن مطعم لأتناول طعام العشاء ، ولأعد عدتي لأستأنف سفري في الغد ، يوافق يومنا بوصول عمّان الثالث عشر من ذي الحجة لعام ١٣٨٤/هـ وبدأت أتساءل : ولماذا لم نعثر بطريقنا على قرى كثيرة كما كنّا نعهدها في سهول حوران ؟. فأعلِّل ذلك مع نفسي في أن السبب يعود إلى مشروع الحكومة الأردنية لهذا الطريق المكلف في الجبال وعدم تهيئة مساحات طبيعية تسمح بنمو قرى أو مدن في هذه الأمكنة كخط المفرق إربد ، الذي يختلف عن هذا الطريق ، ثم أعود إلى الاحتمال الذي يصفه كل من الأستاذين منيب الماضي وسليمان موسى في كتابهما تاريخ الأردن في القرن العشرين ط ١٩٥٩/م .

الفصل الثالث عشر :

(نبذة عن تاريخ الأردن في القرن العشرين)

فقد تحدثنا عن أن دور المماليك في عهد دولتهم قد كان والفوضى تضرب أطنابها في البلاد الأردنية بسبب التنازع بين أمراء هذه البلاد لنيل الرئاسة ، وعندما انتصر العثمانيون عام ١٥١٦/م على المماليك كانوا أسوأ حالاً ممن سبقهم في حكم هذه البلاد من حيث الإصلاح لأحوال البلاد في توطيد الأمن وتأمين الاستقرار فيها ، وقد كانت الدعوة منهم للإصلاح تقترن بقدر الفائدة التي يجنونها ، أو الخيرات التي تدر عليهم ، ولضعف موارد هذه البلاد فقد أغفلت في عهدهم ، ولا يهمهم سوى العمل على إسكات بعض الشيوخ مما ترى السلطنة العثمانية أنه مهمٌّ ، وإن في الأعطيات لهذا الشيخ أو غيره ما يؤمن لهم سبل الحجاج وما يحميهم إضافة إلى حماية السلطنة ، فقد دأبت الدولة العثمانية في حالات كثيرة إرسال قوة عسكرية كحامية مع القوافل حين تسير عبر الطريق إلى المدينة غير أنه كثيراً ما يتعرض جيشها والحجاج إلى خطر البدو الذين تضرب أطنابهم في البادية لغرض اقتناص فرصهم في سلب الحجاج وقتل الحاميات في بعض الأحيان ، وقد تقوم الدولة بإرسال حملات تأديبية إلا أنها قد لا تفلح أحياناً فتعزز قوتها بقوة إضافية وتنال هذه القوة الثانية أيضاً نصيبها من الإحباط وقد تجدي أحياناً ليفرض الأمن زمناً ، وليعود البدو إلى تحديهم للسلطة مرة أخرى كلما خبت جذوة القوة في الدولة .

وهمُّ السلطنة الوحيد تأمين الحجاج فبالإضافة إلى الحماية تقوم الدولة بإنشاء برك في محطات معينة يتولى مما تعنيهم الأعطيات إضافة إلى ردٍّ قبائلهم توفير المياه بهذه البرك ، وعدم استعمالها حين تفيض بها السيول وتملؤها ، وقد يضطرُّون إلى استعمالها، لري إبلهم وماشية قبائلهم، أما الحماية فقد كانت تتمثل بقلاع تبنيها في هذه المحطات يتناوبها مسؤولون بدرجات مختلفة لحفظ الأمن ، وعادة ما تقوم السلطنة بتنظيم سير الحجاج بقوافل تعيِّن فيها أميراً للحجَّاج يشرف بنفسه ويحتاط على مجموعته فيعين منازلهم وراحتهم ومواطن الإقامة المؤقتة لهم بمساعدة هذه الحاميات .

أمّا المشهورون من رؤوساء القبائل ومن يؤمل مساعدتهم للدولة فقد كانت كما ذكرنا تفرض لهم (صُرَّة) سنوية من الذهب وتعتبر ذلك حقاً خاصاً لهذا الشيخ الشهير لغرض فرض الأمن في كفِّ عشيرته أو قبيلته من الاعتداء على الحجاج أو الأهلين المستقرين (الحاضرة) وحين تقطع هذه الصرة أو الأعطية كثيراً ما يخلّ الأمن في ناحية ما ، من السلطنة حيث تواجد عشيرة أو قبيلة الشيخ المحروم من الصرَّة بعد استمرار لهذا العطاء الذي يتناول فيه هذه الصرَّة ، وقد يقوم بقتل الحجاج والحامية العسكرية .

أما القرى المتطرفة فقد كانت تفرض عليهم وكما ذكرنا أيضاً ما يسمى (بالخاوة) لقاء عدم تعرض هذه القرية إلى اعتداء عشيرة شيخ ما .

والخاوة هي أتاوة أو ضريبة يحصل عليها هذا الشيخ على شكل حبوب أو ماشية أو نقود من أهل القرى نظير الكف وعدم الاعتداء عليها .

وقد نجم عن ذلك عدم استطاعة الدولة في فرض سلطانها ، وعدم توزيع سلطاتها في البلدان ، فقد كانت المركزية من عوامل تفكك أوصال هذه السلطنة التي أخذت في عدم الرغبة بالإصلاح والتعليم والتعمير ، ومحاربة المرض .

ففي الصفحة الخامسة من كتابهما تاريخ الأردن في القرن العشرين وعن

الأستاذين منيب الماضي وسليمان موسى ، ما جاء نصه :

ومن دلائل الدمار الذي أصاب هذه البلاد في العهد العثماني أن قضاء الكرك لم يسكن فيه سوى ثلاث قرى : العراق وكثربا ، وخنزيرة (ذلك ما ورد في مذكرات عودة القسوس المحفوظة) وإن القرى كانت قليلة السكان جداً بالنسبة لما هي عليه الآن ، فقد قدر عدد سكان القرى التالية في الجزء الشمالي من لواء عجلون عام ١٨٨٥ كما يلي :

ملكا ٦٠٠ نفر ، ابدر ١٥٠ نفر ، سمر ٢٢٠ نفر ، كفر أسد ٢٥٠ نفر ، قمم ٢٠٠ نفر ، كفر سوم ٢٠٠ نفر ، اربد ٧٠٠ نفر ، بيت راس ١٧٠ نفر ، البارحة ٣٠٠ نفر ، كفر جايز ١٥٠ نفر ، مروا ٢٣٠ نفر ، سموع ١٨٠ نفر ، وقد كانت مأدبا خربة لا منازل فيها حتى عام ١٨٧٦/م عندما رحلت إليها بعض عشائر الكرك وسكنت في مغاورها أولاً ، ثم أخذت تبني المنازل لها بعد ذلك بحوالي عشر سنوات .

و لم تكن بقية مقاطعات شرقي الأردن تحتوي على عدد من القرى يماثل نسبياً عددها في قضاء عجلون ، وقد يعود السبب في ذلك إلى اتصال قضاء عجلون من جهاته الشرقية والشمالية بأراضي حوران التي لم يكن للبدو فيها سيطرة وسلطان وإلى وعورة الأرض وسهولة الدفاع عن معظم قراها .

لذلك كانت القرى في الجنوب ترتكز في الدفاع عن نفسها على المدن المتباعدة وهي السلط والكرك والطفيلة ومعان وتعقد المحالفات أحياناً بينها وبين القبائل القوية التي تجاورها وتدافع عن كيانها بقدر ما تستطيع وأحياناً كثيرة تدفع الخاوة مضطرة مرغمة .

ومن أمثلة طغيان البدو أن رجال قبائل العَمْر التي سيطرت على منطقة الكرك ردحاً من الزمن ، كانوا يمنعون زفاف العروس إلى خطيبها ، ويمنعون دفن الميت حتى يستوفوا جعلاً معيناً ، وكان أحد أفراد هذه القبائل يمر بالفلاح الكركي

أثناء حراثته للأرض ويقول له : أنا شريكك في غلَّة الأرض ، ثم يمضي فلا يعود إلا في موسم البيدر لكي يأخذ حصته من الغلال .

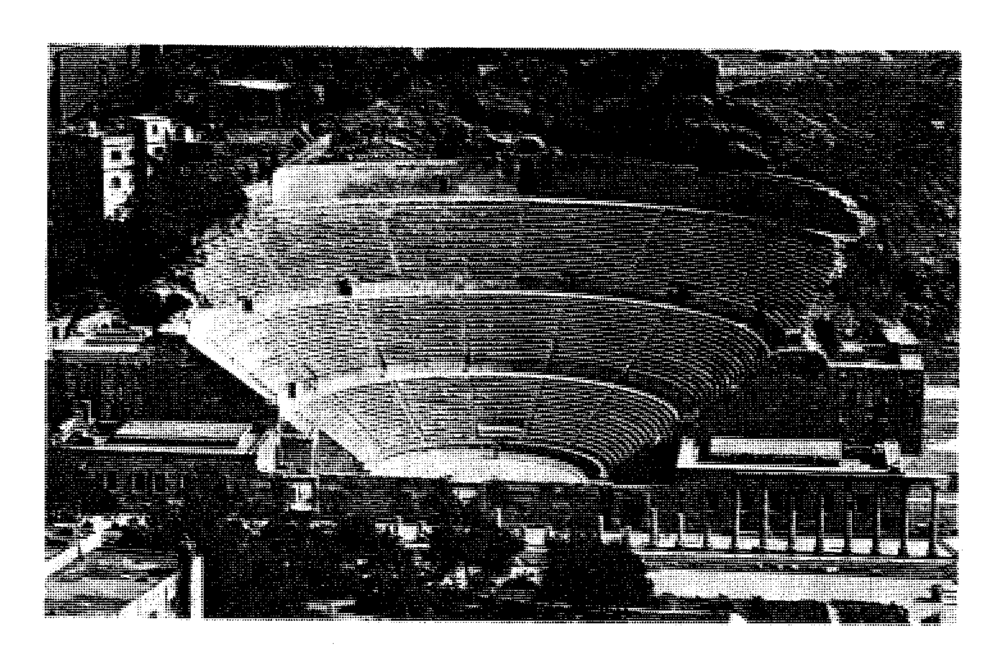
واستمرت هذه الحال حتى عرف أهل القرى البنادق ذات الفتيل قبل أن يعرفها البدو الذين كان سلاحهم الرماح والسيوف فاستطاعوا أن يرهبوا البدو الذين كان يصيبهم الذعر عندما يسمعون دوي الرصاص لأول مرة في حياتهم فيسارعون للفرار من ميدان المعركة بعد أن يسقط منهم بعض القتلى ، ومن المؤسف أن أهل القرى كانوا يزيدون الحالة سوءاً بشن الغزوات على بعضهم البعض دون أن يتَّحدوا .

(انتهى ما أورد المؤلفان للصفحة الخامسة والسادسة) .

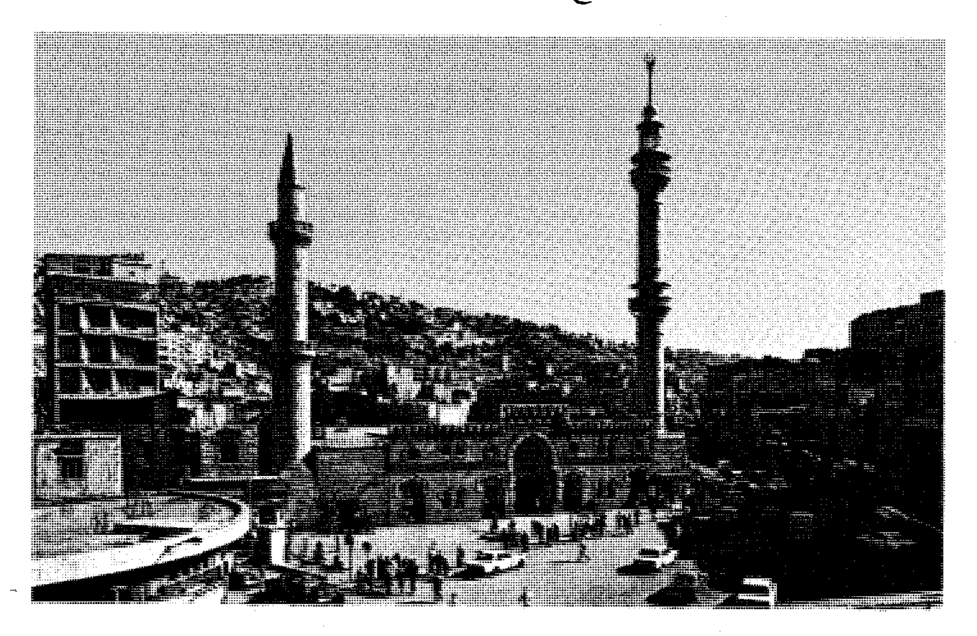
فكرت قليلاً وفي حدود الساعة التاسعة إلا ربعاً مساءً، ارتأيت أن أدخل فيلماً أختاره في الشارع الذي أقيم فيه وقريباً منه لوجود أكثر من سينما ، مررت بعدة عروض اخترت فيلماً وقضيت وقتاً فيه ولغاية الساعة الحادية عشر ونصف ، وعدت أدراجي إلى فندقي ، وأدخل غرفتي حتى الصباح الباكر ، وفي حدود الساعة الثامنة استيقظت بعد دفع الأجرة وحملت فروتي ، وحقيبتي وركبت سيارة أجرة إلى المصدار بعمّان حيث وفّقت بسيارة أجرة إلى القريَّات وركبت فيها ودفعت الأجرة (٢٠) عشرين ريالاً وسرنا في حدود الساعة التاسعة والنصف بعد تناول لوجبة الإفطار من مطعم قريب للمحطة في المصدار ، ولما عدت إلى مكتب السفريات فوجئت بصديق باكستاني (طبيب) يعمل بمستشفى القريَّات وصل قبل أشهر وجيزة اسمه (ضياء) وفرح بي كثيراً ، إذ كنت أتردد عليه بوالدي المريض حين كان يقيم مع والدته هناك ، وتحدَّث لي طويلاً وبلغة يصعب فهمها ، فهو لا يجيد العربية ، وكان يخلط معها اللغة الانكليزية ، ولو أنني لا أجيد لكنته إلا أنني كنت أميِّز وأعرف ما يعنيه ، ونأخذ طريقنا إلى

قرية سحاب القرية التي تقع غربي مخفر الموقر من الجهة الغربية تفصل بينهما سهول منبسطة إذ أن موقع سحاب فيما بين مدينة عمّان وهذا المخفر ، وتجاوزنا سحاب ليستمر الطريق حوالي اثني عشر كيلو متراً ويعلو قمة يشمخ فيها بناء هذا المخفر ، والذي يعتبر من المخافر القديمة لشرطة البادية ، إذ يجب على المسافر إلى القريات أن يمر به ، لغرض التسجيل ، ونجد ترحيباً ولطفاً من شبيبة في المركز ، وكعهد الكثير منهم ممن يتحلّون بالأخلاق الفاضلة ، والسيرة الطيِّبة ونودِّعهم ، ونستأنف سفرنا ، في طريق صحراوي وتأخذنا المرتفعات والمنخفضات في الموقر إلى مسافة قد تقترب من ثمانية كيلو مترات ليبدأ الطريق بالانبساط قليلاً ، ولندخل إلى وادٍ أو شعيبٍ جارف في حالات الأمطار اسمه (الجناب) ويتميز هذا الوادي بامتلائه في الحصى وشجر بري على جانبيه وتتميز المنطقة بوفرة الشجر البري إضافة إلى ربيع هذا العام الذي يغطي المنطقة فيزيدها بهاءً وجمالاً ، وخاصةً مفارش الشعاب التي تبدو وكأنها خمائل وارفة ، ثم نستمر مسافة تأخذ عشرات الكيلو مترات لنصل إلى قصر قديم أثري اسمه الخرّانة .



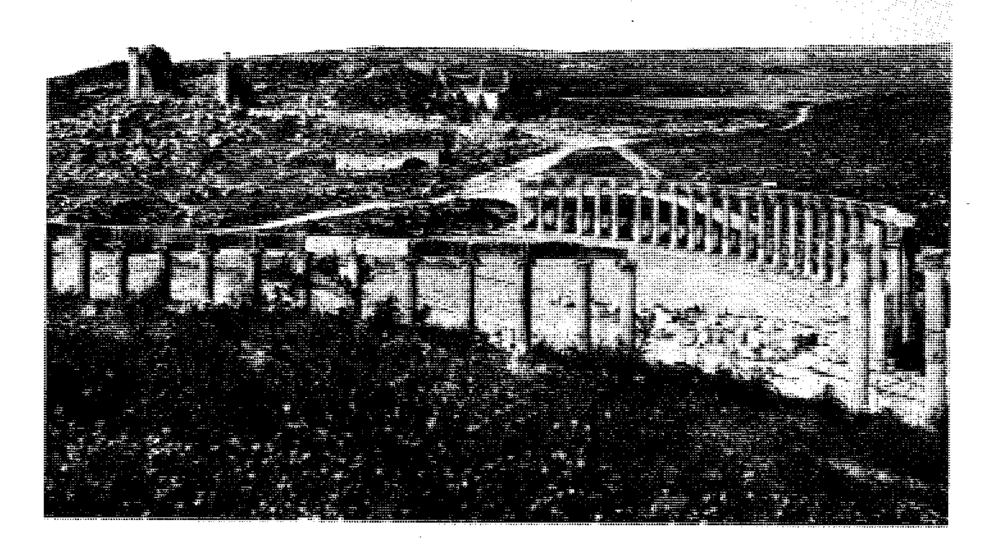


المدرج الروماني بمدينة عمان

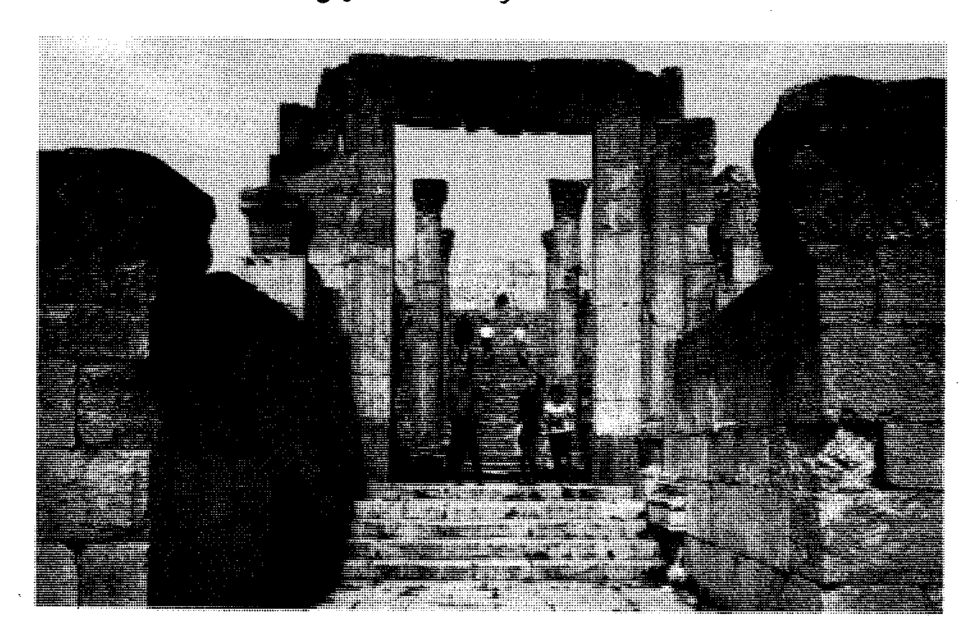


الجامع الكبير بعمان

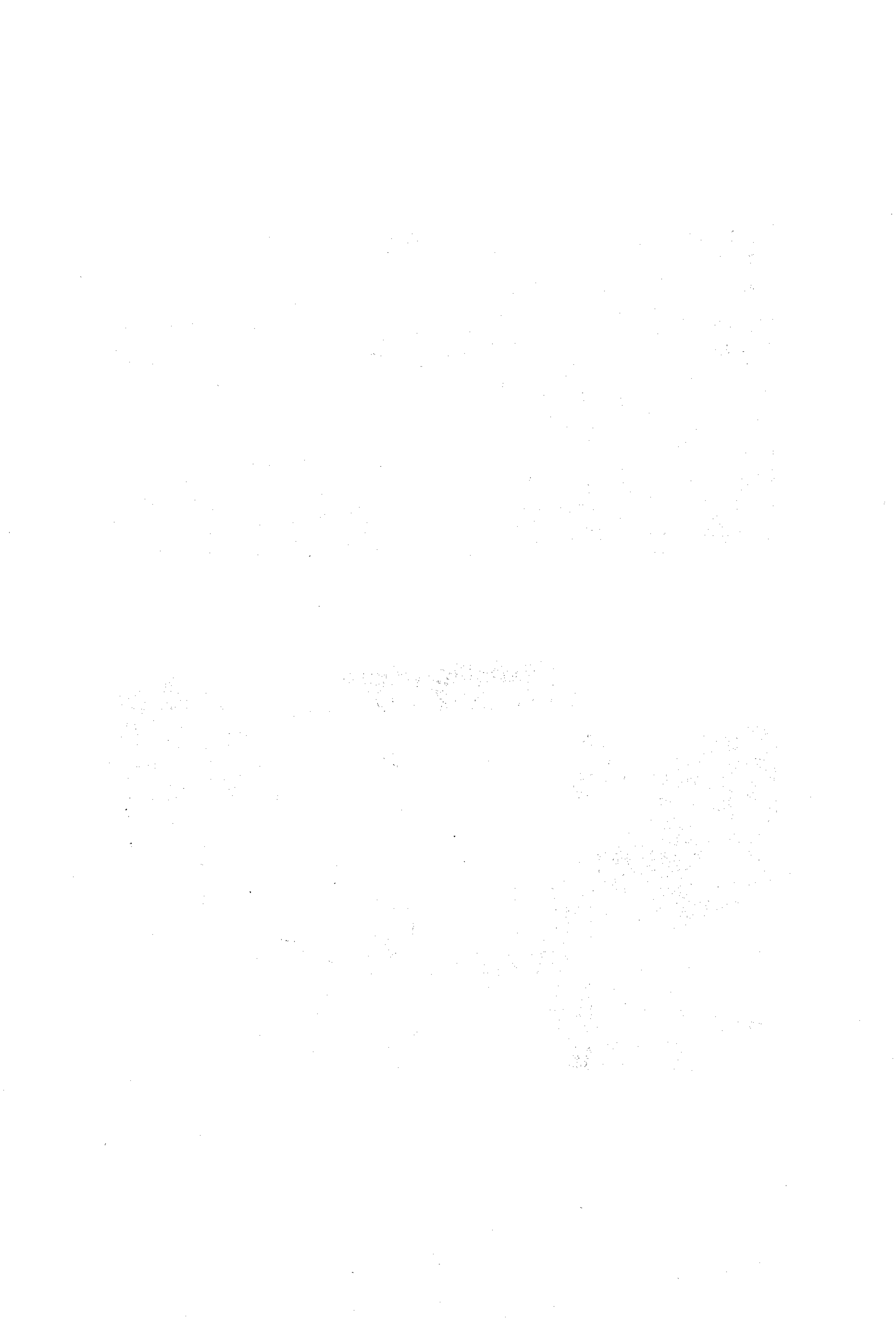


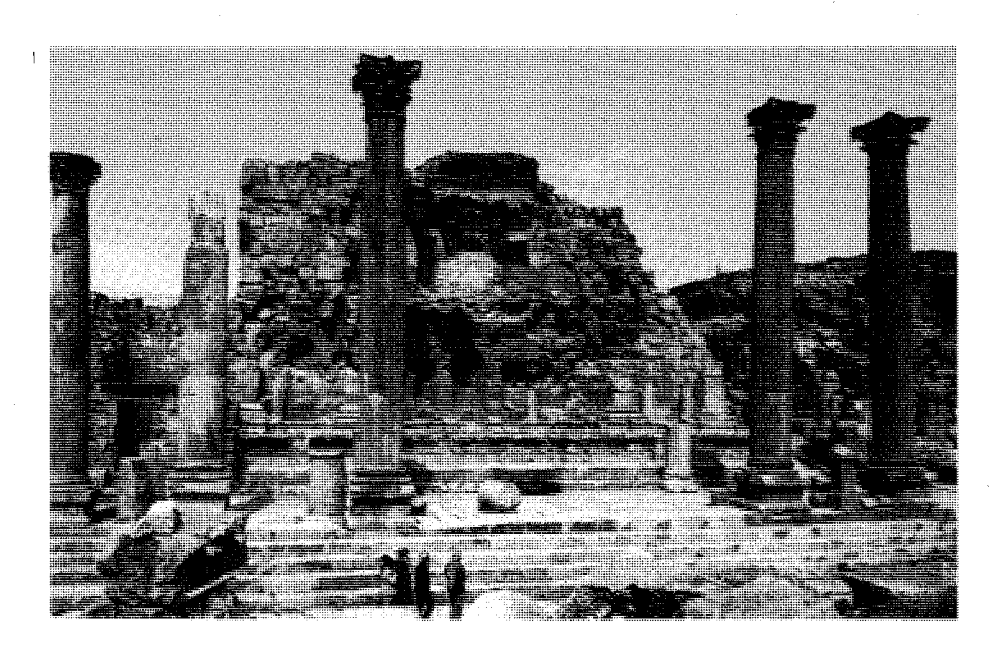


الساحة العامة وأحد المعابد بجرش

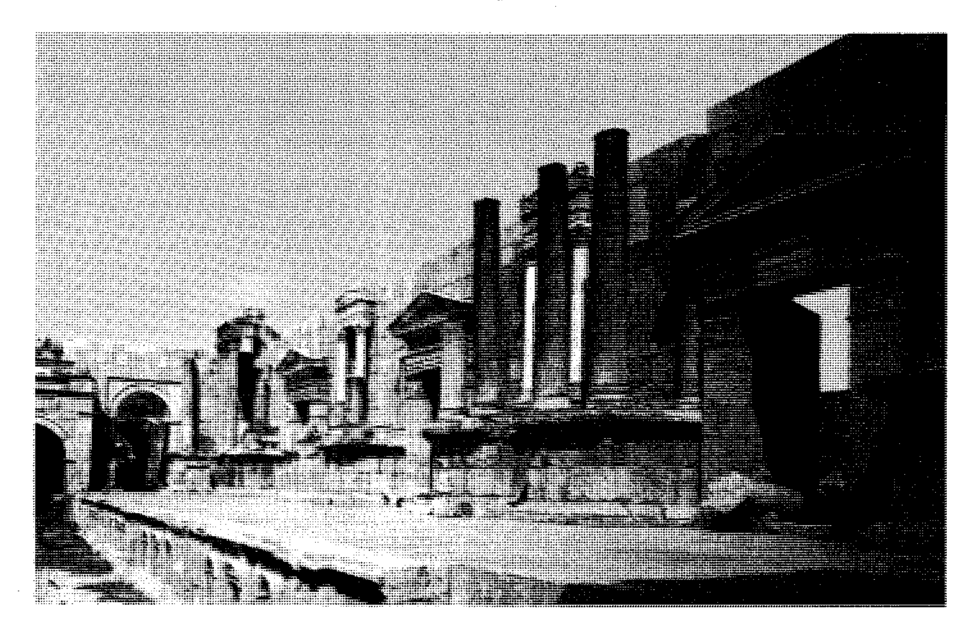


مدخل حارة المعابد بجرش





عين الماء في جرش



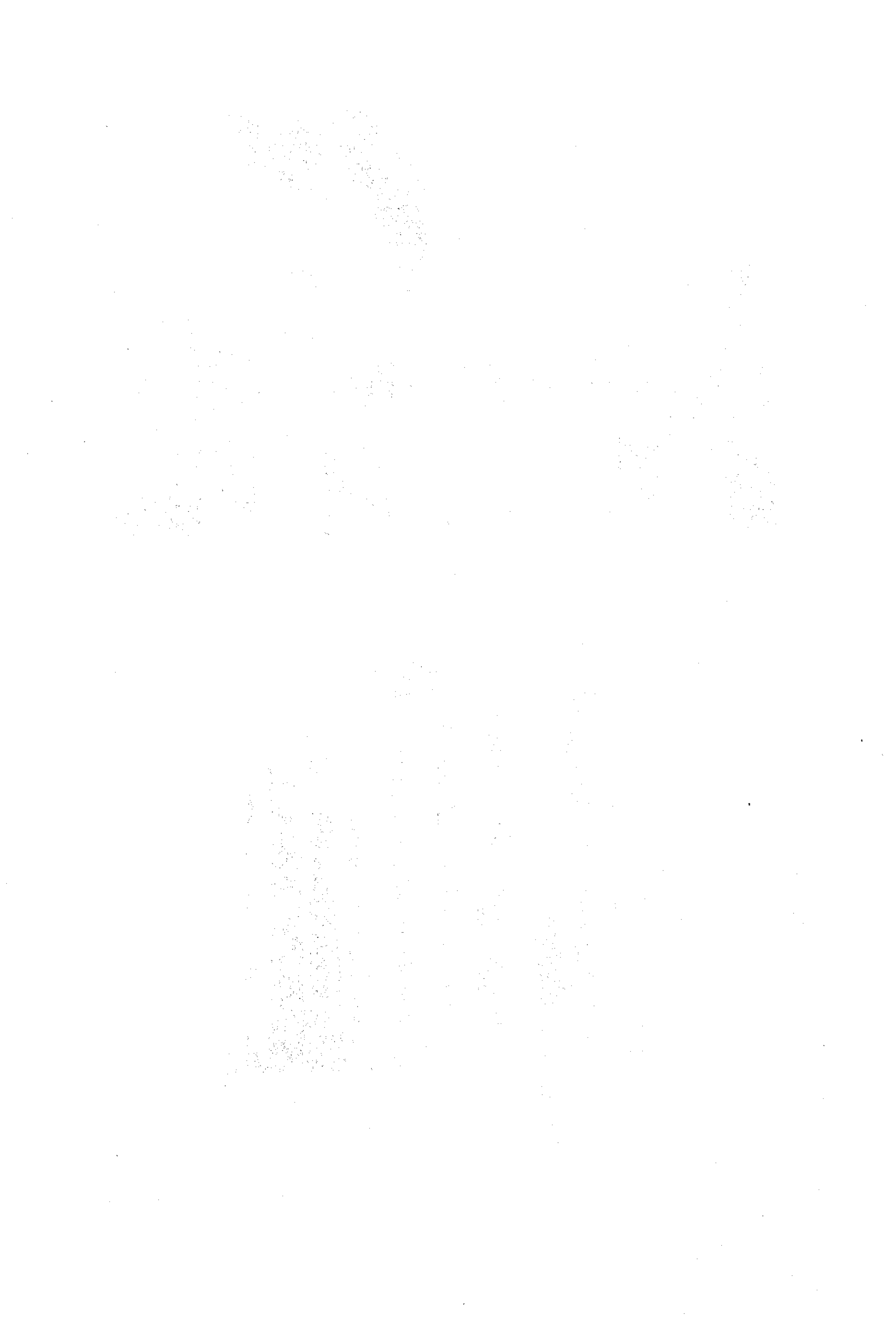
جزء من مدرج جرش الأثري

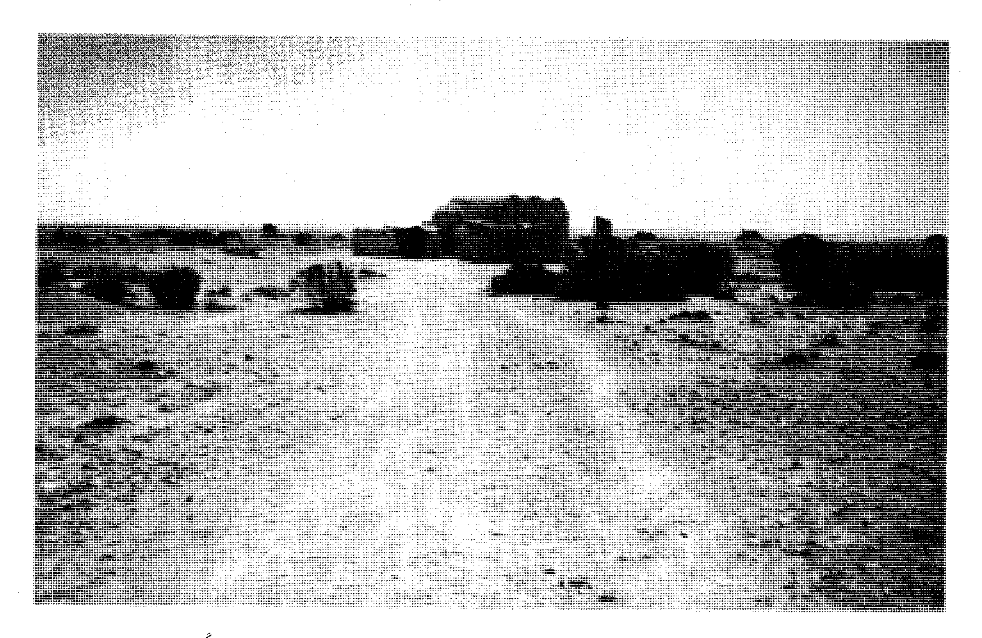


آثار جرش



أعمدة جرش



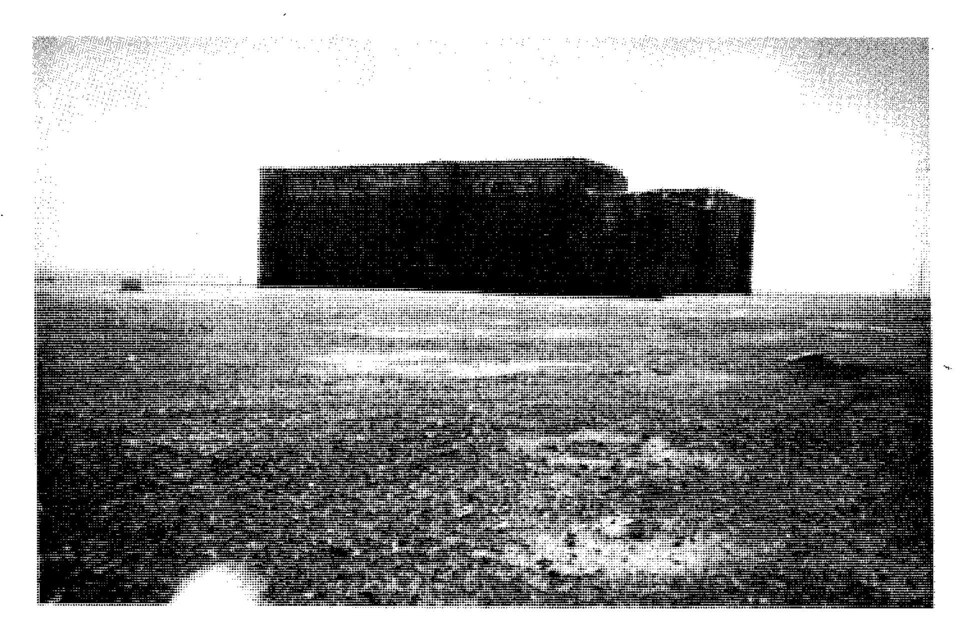


منظر قصر عمرة من مسافة تقرب من مائة متر تقريباً

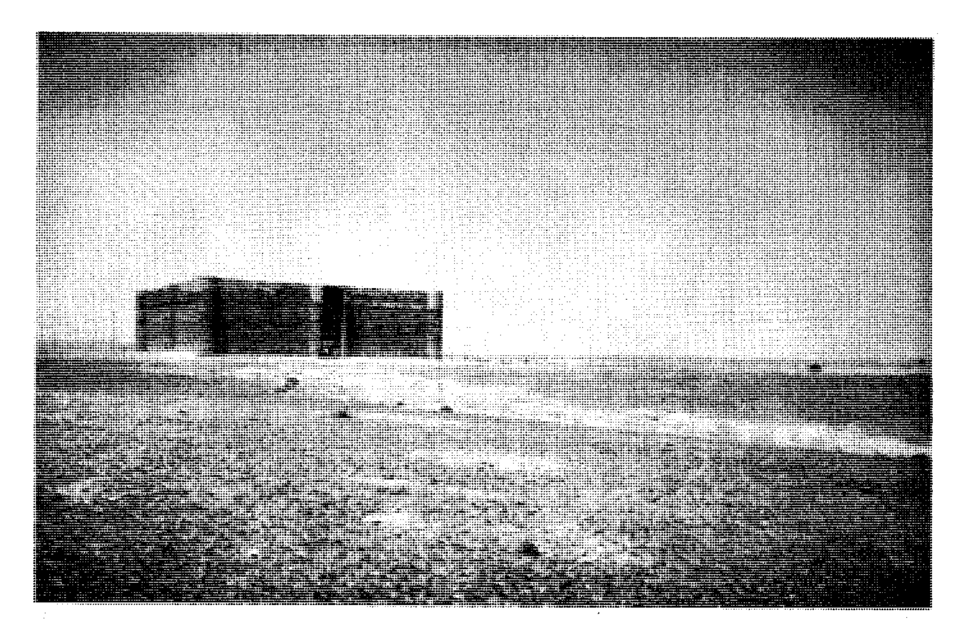


وادي الجناب وهو من الأودية التي تكتنز على المياه من أعماق قريبة



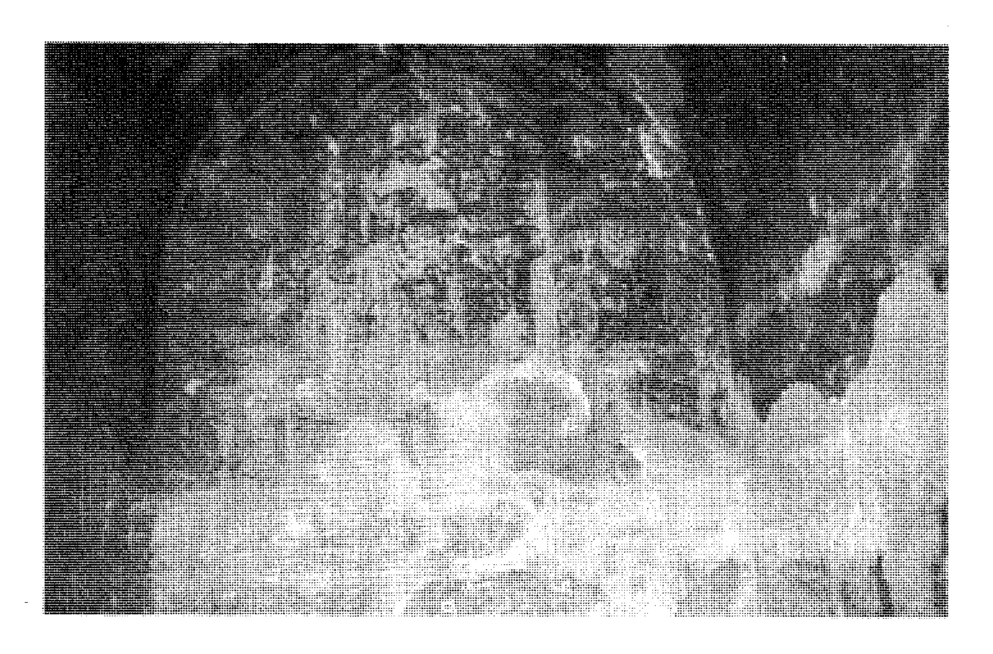


جانب من جوانب قصر الخرّانة بالأردن



الباب الرئيسي للقصر





«صورة تمثل الخليفة والحراس حوله بالحمام» (كما يروي الدليل)

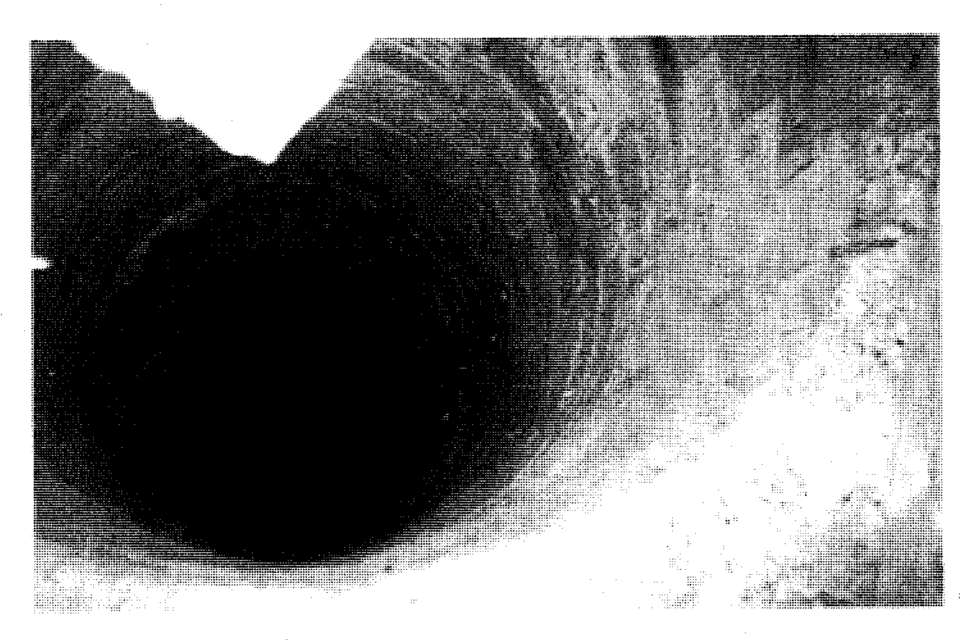


لوحة فسيفساء أرضية بأحد أقبية قصر عمرة في الأردن





«قصر عمرة بالأردن» لوحة جدارية من الفسيفساء ، وهي لا تزال كما صوِّرت في الماضي



البئر المغذي لقصر عمرة وعمقه قرابة خمسة وأربعين متراً



الفصل الرابع عشر :

(قصر الخرّانة الأثري
ونبذة عن يزيد بن عبد الملك)

وقصر الخرّانة هذا يقع في نصف المسافة تقريباً ما بين عمّان والعمري مركز حدود الأردن السعودية ، ويقف السائق هناك لأقتاد الدكتور ضياء ، ندقق في مبنى هذا القصر الذي يتكون من مائة غرفة تقريباً ، ولأنني لا أعلم تماماً عن تاريخ هذا القصر واحتمال أن بناءه في عهد الأمويين ، إذ أن الغاية من وجوده في وسط البادية هو لغرض الصيد واللهو ، وقد يحتمل أن يكون يزيد بن عبد الملك بن مروان هو من أسسه فهو من الخلفاء الأمويين الذين ولعوا بحب الصيد ، وهو ممّن كان يطارده ويعدّ له العدَّة حتى قيل إنه أوَّل من علّم الفهد للركوب على كفل الحصان ، وقد كان يقلّد الفهود الذهب وكذلك كلاب الصيد .

وكان أيضاً كما جاء في كتب بعض المؤرخين ماجناً يتشبب في حبّابة وسلاّمة القسّ فقد ورد في ذكر بعض سيرته في كتاب (الكامل في التاريخ لابن الأثير) ما جاء نصه :

كان يزيد من فتيانهم ، فقال يوماً وقد طرب وعنده حبّابة وسلاّمة القسّ : دعوني أطير .. قالت حبّابة : وإلى من تدع الأمَّة ؟ قال عليك ، قيل وغنته يوماً :

وبين التراقي واللهاة حرارة ما تطمئن وما تسوغ فتبردا

فأهوى ليطير ، فقالت يا أمير المؤمنين إن لنا فيك حاجة ، فقال : والله

لأطيرَنَّ ... فقالت : على من تخلف الأمة والملك ؟ قال عليك والله ... وقبَّل يدها ، فخرج بعض خدمه وهو يقول : سخنت عينك فما أسخفك ...؟ .

وخرجت معه إلى ناحية الأردن يتنزهان ، فرماها بحبَّة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت ، فتركها ثلاثة أيام لم يدفنها حتى أنتنت وهو يشمُّها ويقبِّلها وينظر إليها ويبكي(٥٥) فكُلِّم في أمرها حتى أذن في دفنها، وعاد إلى قصره كئيباً حزيناً ، وسمع جارية له تتمثل بعدها :

كفى حزناً بالهائم الصبِّ أن يرى منازل من يهوى معطَّلة قفرا

فبكى وبقي يزيد بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس ، أشار عليه مسلمة بذلك وخاف أن يظهر منه ما يسفهه عندهم .

وكان يزيد قد حج أيام أخيه سليمان فاشترى حبابة بأربعة آلاف دينار ، وكان اسمها العالية ، وقال سليمان :

لقد هممت أن أحجر على يزيد فردَّها يزيد فاشتراها رجل من أهل مصر ، فلما أفضت الخلافة إلى يزيد قالت امرأته سعدة : هل بقي من الدنيا شيء نتمناه ..؟ قال : نعم ، حبّابة ، فأرسلت فاشترتها ثم صيَّغتها وأتت بها يزيد فأجلستها من وراء الستر وقالت : يا أمير المؤمنين هل بقي من الدنيا شيء نتمناه ؟ قال : قد أعلمتك .. فرفعت الستر وقالت : هذه حبّابة ، وقامت وتركتها عنده ، فحظيت سعدة عنده وأكرمها ، وسعدة بنت عمرو بن عثمان ، ولما مات يزيد لم يعلم بموته حتى ناحت سلامة فقالت :

لا تلمنا إن خشعنا أو هممنا بخشوع
قد لعمري بتُّ ليلي كأخ الداء الوجيع
ثم بات الهمُّ منِّي دون من لي بضجيع

---

(٥٥) أعتقد أن مثل هذا الوصف مبالغ فيه ، وقد يكون نقمة بعض المؤرخين لهفوات بعض الخلفاء .

للـذي حـلَّ بنـا اليــو م مـن الأمـر الفظيــع
كلمــا أبصرت ربعــاً خاليـاً فـاضت دموعـي
قـد خـلا مـن سيِّـد كا ن لنــا غيــر مضيــع

ثم نادت : وا أمير المؤمنين ؟ فعلموا بموته ، والشعر لبعض الأنصار . وأخبار يزيد مع سلاّمة وحبّابة كثيرة ليس هذا موضع ذكرها وإنما قيل لسلاّمة القس لأن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمّار أحد بني جشم بن معاوية بن بكير كان فقيهاً عابداً مجتهداً في العبادة ، وكان يسمى القسّ لعبادته ، مرَّ يوماً بمنزل مولاها فسمع غناءها فوقف يسمعه ، فرآه مولاها فقال له : هل لك أن تنظر وتسمع ؟ فأبى فقال : أنا أقعدها بمكان لا تراها وتسمع غناءها ، فدخل معه فغنَّته ، فأعجبه غناؤها ، ثم أخرجها مولاها إليه ، فشغف بها وأحبها وأحبته هي أيضاً ، وكان شاباً جميلاً ، فقالت له يوماً على خلوة : أنا والله أحبك .. قال : وأنا والله أحبك قالت : وأحب أن أقبِّلك . قال : وأنا والله .. قالت : وأحب أن أضع بطني على بطنك : قال : وأنا والله .. قالت : فما يمنعك ؟ قال : قول الله تعالى ﴿الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ وأنا أكره أن تؤول خلّتنا إلى عداوة ثم قام وانصرف عنها وعاد إلى عبادته ؛ وله فيها أشعار منها :

ألم ترهــا لا يبعــد الله دارهــا إذ أطربت في صوتها كيف تصنع
تمــد نظـام القــول ثم تــردُّه إلى صلصل من صوتها يترجَّـع

وله فيها :

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر
ألا ليت أني حيث صارت بها النوى جليس لسلمى كلمـا عـجَّ زهـر
إذا أخذت في الصوت كاد جليسها يطيــر إليها قلبــه حين ينظــر

فقيل لها سلامة القس لذلك .

(سلامة بتشديد اللام ، وحبابة بتخفيف الباء الموحدة) .

انتهى ما أورده ابن الأثير عن يزيد بن عبد الملك بهذه المناسبة .

أما ما أضاف إليه ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية) عن يزيد قوله :

فلما دفنها (أي حبابة) أقام أياماً عندها على قبرها هائماً ، ثم تراجع إلى المنزل ثم عاد إلى قبرها فوقف عليه وهو يقول :

فإن تسل عنك النفس أو تدع الصبا فاليأس تسلو عنك لا بالتجلُّد
وكان خليل زارني فهو قائل من أجلك هذا هامة اليوم أو غد

ثم رجع فيما خرج من منزله حتى خُرج بنعشه ، وكان مرضه بالسل ، وذلك بالسواد سواد الأردن يوم الجمة لخمس بقين من شعبان لعام ١٠٥/هـ .

وكانت خلافته أربع سنين وشهراً على المشهور ، وقيل أقل من ذلك ، وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة ، وقيل خمساً وقيل ستاً وقيل ثمانياً وقيل تسعاً وثلاثين وقيل إنه بلغ الأربعين والله أعلم .

وكان طويلاً جسيماً أبيض مدور الوجه أفقم الفم لم يشب ، وقيل إنه مات بالجولان وقيل بحوران وصلى عليه ابنه الوليد بن يزيد ، وعمره خمسة عشر سنة ، وقيل بل صلى عليه أخوه هشام بن عبد الملك ، وهو أخو الخليفة بعده ، وحمل على أعناق الرجال حتى دفن بين باب الجابية وباب الصغير بدمشق ، وكان قد عهد بالأمر من بعده لأخيه هشام ومن بعده لولده الوليد ين يزيد فبايع الناس من بعده هشاماً .

انتهى ما أورده ابن كثير .

وقد قضينا في (قصر الخزّانة) حوالي ربع ساعة ، ثم سرنا في طريقنا إلى القريّات ، ويوجد أمثال قصر الخزّانة في الأردن المشتّى ، كما يوجد أيضاً قصر عمرة وهو لا يبعد عن الخزّانة إلا في حدود ٢٠ إلى ٣٠ كيلو متراً ... ويقال بناه سليمان بن عبد الملك رغم أنني أشك بصحّة ذلك .

ويقال بناه الوليد بن يزيد ، وهذا هو أغلب الظنِّ ... إذ أن قصر عمرة مجرد حمامات ، زيِّنت غرفاته بصور للعرايا من النساء والرجال .

وإذا كان يزيد يلقب بالخليع عند بعض المؤرخين ، فقيل إن الوليد لم تدم خلافته طويلاً وإلا لزاد على والده كما أورد عنه .

فقيل عنه أنه كان فاسقاً ، واتهم بالزندقة ... .

وقصر عمرة أعتقد هو القصر الذي جاءت منه تسمية (العمري) ، واشتقَّت ، لأنه قريب من المركز ولا يبعد سوى قرابة عشرون كيلو متراً ، أو نيِّف بقليل .

ونصل العمري .. وننهي إجراءات جوازاتنا بالمغادرة ، وندخل الحدود السعودية في حدود الساعة الثانية عشرة ونصف ظهراً ، وأعود إلى القريّات منهياً هذه الرحلة يوم الرابع عشر من شهر ذي الحجَّة لعام ١٣٨٤/هـ .

وبالله التوفيق



الفهـــرس